طبطاب الجنّة

هاني نقشبندي



رواية

دار الساقي

طبطاب الجنّة

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

هاني نقشبندي

طبطاب الجنّة



الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-826-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

نحن يجب ألا نغادر الطفولة أبداً...
فهي كل ما بقي لنحتمي به عندما نكبر!

هاني

مايو/أيار

"ألا يهز الله مملكته فيتحرك ذاك الجاثم على القبر؟".

تمتمت فتاة الأربعة وعشرين ربيعاً، وهي تنظر إلى الأرض المسوّرة بحائط مهترئ، وقد امتلأت بالشواهد. عيناها مغرورقتان بحزن طازج، ورعشات شفتيها الخفيفة لا تكاد ترى. ولولا أنفاس هادئة تعلو في صدرها وتهبط لبدت تمثالاً متقن الصنع.

"ساعتان وأنت تقفين مكانك لا تغادر السيجارة يدك. إلى ماذا تنظرين...؟ الموتى لا يتحدثون ولا يعودون. ألا تذهبين إلى جدتك بدل وقفتك الطويلة هنا؟"، قالت العجوز متأففة.

لم تنظر غرسة، وهذا اسم الفتاة، إلى محدثتها الجالسة وراءها، وبقيت تتأمل الأرض أمامها والمحاطة بالأبنية المتهالكة.

تمتمت العجوز، أم عتيق، بعبارات اعتادت النطق بها عندما لا يعجبها شيء.

نظرت إليها الفتاة بلامبالاة والسيجارة في يدها. سحبت نفساً، وعادت تنظر إلى الفضاء أمامها وهي تقول "هل مللت مني؟".

"بل هي وقفتك هذه ما يحيرني. وها هو يوم جديد قد مضى وأنت تكررين الأمر ذاته. إن كان ما تفعلينه هنا مجرد مراقبة الأبنية المجاورة، فلا شيء يستحق أن تريه فيها... كومة من القاذورات

هي بساكنيها لا أكثر".

"ومن قال إني أنظر إلى البيوت؟".

"إن لم تخنّي خبرة السنوات الطويلة، فأعتقد أنك عاشقة. لكن أي عشق هو الذي يفرض عليك هذه الوقفة المتعبة طوال اليوم؟".

تنهدت غرسة، واغرورقت عيناها، متحاشية النظر إلى العجوز.

أجابت غرسة وهي تمسح دمعة سقطت "لو كانت هناك عدالة على الأرض... ما كنت هنا".

"الظلم فعل نختاره بأنفسنا إن ارتضيناه. ولم أرَ ظلماً أكثر مما تفعلينه بنفسك الآن. لن أجبرك على الحديث يا ابنتي، لكنني على يقين بأنك عاشقة. فأي ظلم هو أعظم من الحب؟".

تنهدت غرسة من دون أن تلتفت إلى أم عتيق، وبقيت متسمرة تنظر إلى المقبرة أمامها.

"هل هو يسكن هنا... في هذه البناية؟"، سألت أم عتيق.

لم تجب غرسة.

تململت العجوز سريعاً وقالت "أي شيء في المقبرة يستحق أن تتأمليه كما تفعلي كل يوم طوال الأسابيع الماضية؟ امضي إلى جدتك يا ابنتي فهي في حاجة إليك أكثر من الموتى، فلم يبق على المغيب سوى لحظات؟".

وكأنما أذنت العجوز، بعبارتها تلك، للعتمة بأن تدخل غرفتها المتواضعة. وغشي المكان صمت زاد من وطأة الوحشة فيه.

"ستكرهني جدتك إن اشتمت رائحة الدخان على ثيابك، وستلعنني إن لم تدخلي الدار قبل أن يأتي الليل".

أطفأت غرسة سيجارتها، وأحضرت كأس ماء وحبة دواء وضعتهما أمام العجوز، ثم قبّلت رأسها وتلفعّت بعباءتها وغادرت من دون كلمة واحدة.

"آآآآه... أيّ همّ يحمله صدرك يا فتاة؟"، قالت أم عتيق وهي تتناول دواءها، وسط صمت لا يشقه سوى صوت أجش انطلق من مؤذن المسجد المجاور يعلن صلاة المغرب.

كان الصيف على الأبواب، والرطوبة تغمر المكان، وهواء يحمل رائحة البحر القريب يداعب خصلات غرسة التي تأبى الانحسار وراء غطائها، وهي تغادر دار أم عتيق. هي شقة متواضعة في الطابق الثاني من بناية تكاد، لولا سرّ إلهي غامض، أن تسقط في أي لحظة.

على صوت المؤذن، سارت غرسة باتجاه بيت جدتها التي تقيم معها. لم تكن تبعد عن بيت أم عتيق أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام. لا تفصل بين الدارين سوى بضعة أزقة، وتلك الأرض الفضاء المليئة بالشواهد التي تطيل التأمل إليها من شرفة العجوز. إنها مقبرة "أمنا حواء" في حي العمارية الشعبي، وسط المدينة العتيقة.

تباطأ خطو غرسة وهي تقترب من الحائط الشمالي الأبيض الطويل للمقبرة. تباطأ أكثر وهي تلامس امتداده بيدها. يقطع باباً أخضر كبيراً للمقبرة هذا الامتداد الطويل للحائط الذي

استحال لونه الأبيض القديم إلى فضي متكسر بفعل الإهمال وتعاقب الشمس والرطوبة. كان الباب مواربا. اقتربت منه مسافة تتيح لها رؤية ما وراءه. كانت تبحث عن شيء ما، فيما المؤذن يختم أذانه. حلّت العتمة، حتى باتت الرؤية متعذرة على الضوء الشحيح المتبقي لعمود مائل كعجوز يجاهد للوقوف. دلف رجل من الباب الكبير، وبقيت هي متسمّرة مكانها. عنّ لها أن تصرخ. أن تنادي باسمه. أن تدفع الباب بقوتها، وتتوجه إليه رامية بنفسها عليه. خطت بتردد حتى وقفت تكاد تلامس الباب أمامها. لم تفعل أكثر من ذلك، فلن يسمح لها بالدخول إن شاءت. الوقت مساءً، والمقبرة تغلق بابها أمام زوارها الكثر. كذلك فإن زيارة القبور ممنوعة على النساء. حتى لو قفزت فوق السور، ولم يرها أحد، فهل يقبل ذاك الذي تنشده في الداخل أن يغفر لها؟ أن يستقبلها؟ أن ينظر إليها؟

شهر تقريباً، وهي تفعل الشيء ذاته كل يوم. منذ تلك الحادثة، يتكرر المشهد، لا تفارقها صورة منه. لم تكن تهرب من ماض يطاردها، بل هي من بات يطارده بكل آلامه وشروره. ولو تجمع ألم سنواتها أمامها ذات يوم، فستواجهه وعصا في يدها تنهال عليه ضرباً! ولو قدّر لها أن تقرأ مستقبلها كله في صفحتين، أو سطرين، فلن تتردد أياً كان ما ينتظرها. ليس هو التفاؤل ما يسند عزيمتها أمام المحن، بل انعدام الخيارات أمامها.

فقرها ويتمها خلقا لها شخصية غريبة ومتناقضة، وكأن أبراج العالم ونجومه اجتمعت فيها. عنيفة وحنونة، ثائرة ومهادنة،

محافظة ومتحررة.

نشأت في بيئة كل ما فيها عيب وخطيئة. لم تؤمن بكل عيب قيل لها، ولا خافت من خطيئة لو شاءت إرادتها القيام بها.

ممتلئة الجسم قليلاً، كاملة الدسم في أطرافها. لكن طولها يخفي امتلاءها فلا يبرز من وراء ثوبها سوى ردفان يسيلان لعاب القلب. عيناها تلسعان كسوط، وشفتاها تبتلعان رجولة عشرة رجال في طرفة عين. بشرتها داكنة قليلاً، وشعرها فاحم طويل معقود معظم الوقت على شكل ظفيرة أو اثنتين، يتمنى العاقل لو شنق به.

أنوثتها أعظم من جمالها، حتى لتحطم وقار الشباب والكهول. وإغواؤها الغزير والفطري يقفز بالصبي إلى البلوغ في لحظة عين. وهي بثيابها الشفافة التي كانت تتعمد الظهور بها على شرفة منزل جدتها، شبه العمياء، تربك كيمياء الحي الذي تسكنه، من المؤذن الذي يزداد اهتياجاً في صلواته، إلى عابر السبيل، وبائع الخمر الرديء. وإن شاءت ممارسة الأنوثة الكاملة في سيرها، بثياب لصيقة بردفيها كما اعتادت، فستأبى جفون أن تطبق ليوم كامل كي لا يختفي طيف ما رأته من الذاكرة.

وبعكس الرجال والصبية، كان لها من نساء الحي قدر محترم من الاحتقار والضغينة. كانت بالنسبة إليهن شيطاناً في ثوب امرأة. لكن أيّ شيطان هو الذي يملك أنوثتها؟

في حي يملك ألف لسان قادر على رشق الرذيلة على من يشاء، كان على غرسة أن تكون أكثر حذراً في مسلكها وما يصدر منها.

لكنها لم تفعل. بل كثيراً ما بادرت هي بحرب استباقية، فما العباءات السوداء هنا سوى غطاء يخفي أجساداً مترعة بالخطيئة، كما تكرر جهاراً بلا خوف.

لم تكمل تعليمها، فما كان لجدتها أن تتحمل شراء دفتر واحد، ولا كانت ترى للمرأة من مستقبل سوى في بيت وأطفال.

وللجدة قصتها...

كان لها زوج يعمل سائق شاحنة بين المدن الصغيرة. شاحنة أكل الصدأ معظم حديدها، حتى تكاد ترى السائق بكامله من وراء هيكلها المهترئ. كان يختفي أحياناً عدة أيام، قبل أن يعود إلى بيته الذي بالكاد يبقى فيه ليلة أو اثنتين قبل أن يعتلي شاحنته الصدئة بصوتها الهادر الجاف مثل صوته. حتى هذه المدة القصيرة، لم تشفع في إسباغ بعض العطف على زوجته التي لم تكن تملك سوى انتظار قدومه، ثم انتظار انصرافه بأسرع مما حضر. كان نزقاً غليظ القلب، حتى بعد أن رزق بابنتين. لم يحضر ولادة أيّ منهما، وكثيراً ما عاير زوجته بأنها لا تنجب سوى الإناث. تزوجت الصغرى أولاً، واختفت. وكأنها كانت تنتظر من يأخذها إلى حيث لا ترى والدها أبداً. لكنها أبقت حبلاً متآكلاً من التواصل مع والدتها، قبل أن ينقطع. بقيت البنت الأخرى مع أمها. نشأت مختلفة عنها. لها شخصية متسلطة حتى على ذاتها. ورغم وحدتهما وحاجة إحداهما إلى الأخرى، فقد كانت الأم وابنتها تصطدمان كل حين. وكثيراً ما كان السبب هو رفض الابنة لخنوع أمها المطلق واستسلامها المخزي لظلم أبيها، ورفضها هي

خضوعاً مماثلاً لها وله. ثم أتت الضربة القاضية في علاقة الابنة الهشة بوالدها عندما رأته يركل أمها ذات يوم على خاصرتها، فلما حاولت أن تدافع عنها نالت نصيبها هي الأخرى. استكانت في حجرتها التي تسكنها غرسة الآن. أغلقت على نفسها هناك عدة أيام تأبى الخروج منها، لا يسلي عنها سوى حلم واحد... كيف تقتل أباها؟!

مع غيابه المستمر، وعودته المشؤومة المتقطعة، طوّرت الابنة إحساساً يدرك لحظة عودته وهو بعيد عن الدار ساعة أو اثنتين. فإن كان الحب يخبر عن وصوله كنفحة عطر، فإن الكره بوق من الألم تسمعه قبل أن تراه.

وحتى لا ترتكب جريمة سفك دمه، كثيراً ما كانت تترك حديث أمها وتنهض وهي تردد، كأنّ مسّاً أصابها، "سيأتي الآن"، وتهرب إلى حضن حجرتها. وكم تمنت، كبديل من قتله، لو بعثرت نفسها رماداً يتطاير من نافذتها كلما سمعت صوته الأجش وهو يدخل الدار.

فكرت ألف مرة في مغادرة المنزل، لكنها كانت تضعف ألف مرة أمام ضعف أمها. عرفت أن القدر لن يكون معها، فهو لم يكن يوماً مع أمها ولا أختها. وبدلاً من مواجهة والدها ثانية، يئست من إقناع أمها بالرحيل من الدار التي باتت تكرهها. كانت تقول لها "لنرحل ونتركه وحده علّ الشيطان الساكن في رأسه يأكل جسده"، وترفض الأم. باتت الابنة أشبه ببقرة ربطت إلى ساقية تطحن إنسانيتها. لذلك وافقت على أول طالب ليدها. كان رجلاً

يكبرها باثنين وعشرين عاماً. وجدته حينها بعكس والدها، رقيق القلب والحاشية. ومن طيبته، عاد إلى زوجته الأولى وأربع بنات ينتظرنه منها، بعد أقل من ثلاثة أشهر. لكنه أبقى على صلة طيبة معها رغم أنه لم يرزق منها بأبناء. بقي يرسل لها كل شهر بعض المال حتى انقطعت أخباره وماله بعد ورقة بطلاقها تسلمتها في المحكمة. لم تنتظر طويلاً قبل أن ترتبط برجل آخر. كان متزوجاً هو أيضاً، رغم أنه لا يكبرها بأكثر من سبعة أعوام. صارحها قبل أن يطلب يدها بأنه لا يريد أبناءً، فلديه خمسة من زواجه الأول. قال إنه عانى الكثير في تربيتهم، والأكبر منهم يميل إلى عقوقه. أخبرها أيضاً أنه معجب بشخصيتها القوية، وباستقلال رأيها، وأن هذا تحديداً، إضافة إلى جمالها، هو ما جذبه إليها دون باقي النساء. ثم، وبقدرة قادر، تحول ما كان مصدر إعجاب إلى نفور. وشخصيتها القوية التي أعجب بها، كما ادّعى، تحولت في عينيه إلى تمرد أنثوي على رجولته. وبعد أقل من ستة أشهر، أصبح الإعجاب برأيها المستقل سوطاً ينهال على جسدها، ولم يلبث أن منع عليها الخروج أو الدخول من دار صغيرة اكتراها لها. وزاد على قفل الباب قفلاً آخر، فما كان يسمح لها بالخروج إلا برفقته لشراء حاجيات له هو من مالها الخاص، وقد كان قليلاً على أيّ حال. رغم كل ذلك، فقد عجز عن أن يكسر ولو غصناً من شجرتها القوية. فلم تركع ولم تتوسل. وقد وجدت بعد حين طريقة للخروج من المنزل من دون أن تعبث بقفلَي الباب. بعد حين اكتشفت، وعن طريق الصدفة وحدها، أن زوجها السجّان

قد كذب عليها عندما أخبرها بقصة زواجه الأول وأبنائه الخمسة. فقد كانت هي خامسة من يتزوج من النساء طمعاً في أموالهن، ولا أبناء لديه، لقد كان عقيماً.

بعد أن تطلقت منه، مهددة إياه بإفشاء سرّه، عادت إلى منزلها الأول، إلى حين. لكن لم تلبث أن اكتشفت أنها حامل في شهرها الثالث. كان الجنين هو غرسة التي شبّت تحمل صفات أمها وشخصيتها.

كيف أتى الحمل من رجل عقيم؟

لا أحد يعلم إن كان الله قد أمر بمعجزة، أو هي مهارات الهروب من الأبواب المقفلة.

ماتت الأم بعد ولادة غرسة بعامين. ولم يظهر الزوج الأخير ليدّعي أنه والدها. فنشأت تحت رعاية جدتها التي ترك لها زوجها بعد وفاته مبلغ سبعة آلاف ريال، وشاحنة صدئة اشتراها أحدهم بأربعة آلاف وخمسمئة ريال.

عاشت الطفلة مع جدتها على ما يجود به أهل الخير. وعندما كبرت قليلاً، جعلت تبيع بعض الثياب التي تحسن خياطتها في سوق داخل المدينة العتيقة المجاور لبيتها، جنباً إلى جنب مع بعض السيدات المتلفعات بالسواد. كانت تبيع أكثر منهن لجمال ما تعرض، حتى اصطفت الشاريات أمامها. لم يكن الأمر في مصلحتها أمام جمع من البائعات اللواتي رفضن حضورها بينهن بتهمة أنها فتاة سوء، ولا يجوز أن تجلس بشرف كما يفعلن هن، فهي لا تجيد سوى إغواء الرجال والنساء أيضاً! ولمّا كان القانون

يسكن المقبرة منذ زمن، فقد هدّدنها بالضرب إن هي شاركتهن في المكان.

ما كان لمثل غرسة اليافعة أن تخاف، لكنها توقفت عن العمل هناك، اشمئزازاً من البائعات والمشتريات على حدّ سواء. ولم يساعدها توقفها عن التعليم في سن مبكرة في إيجاد فرصة عمل أكثر إنسانية يقيها تحرش كل رائح وغاد.

بيد أن القدر اقتنع أخيراً بحاجتهما إلى عنايته، فنشأت غرسة بشخصية من صوان يوقد النار في صدور غيورات الحي، وكبرياء يقطع كرامة الرجال إن حاولوا العبث معها. هؤلاء، ورغم محاولاتهم المتجددة لإغواء الفتاة الصغيرة، وتجاوبها بمكر مع بعضهم، بدافع التسلية غالباً، ما كانوا ليتخطوا ما جعلته حداً لها ولهم.

كبرت الفتاة، ونضجت أنوثتها، جاذبة كل جندب وطائر وخفاش نحوها. من يقترب أكثر يحترق. وحيث إن هناك دوماً مرة أولى، فقد حدث أن اقترب جندب جريء ذات يوم، ودفع كلاهما الثمن. احترق الجريء، وانكسر شيء في المصباح.

عندما وصلت سن البلوغ، قبل بضعة أعوام، أرادت جدتها أن تزفّها لرجل يكبرها. لم ينقذ الفتاة سوى تهديد تلقته الجدة من زوجة الرجل الكبير إن هي زوّجته حفيدتها. بعدها تقدم آخران لخطبتها، أفضلهما بائع يفترش أرض السوق، كما كانت حالها. لكن غرسة التي كبرت وباتت سيدة نفسها، رفضت كل طامح لعشها، واضعة عينها على عصفور واحد في الحي.

ذاك العصفور كان الرجل الثاني الذي سمحت له بالاقتراب من نارها ونورها. لكنه الأول الذي سكن قلبها. الآن، وفي سن الرشد، لهذا الرجل وحده ما يشاء منها ولو وجبة كاملة من جسدها.

لم تكن فتاة عادية. ولأنها لم تكن كذلك، فما كان لجرح في القلب، من هذا العصفور، أن يلتئم سريعاً. وما سيرها نحو المقبرة، والوقوف أمامها، وتطلعها إلى من بداخلها، سوى محاولة لن تتوقف لحظة واحدة للقتال حتى الرمق الأخير من أجل من أحبته.

بدأت العتمة تغمر الحي الشعبي الذي تسكنه وهي تقترب من دارها. شذرات أضواء خافتة خجولة تأتي من فجوات النوافذ الخشبية التي نخرها السوس. يعمّ الهدوء هذا الوقت من المساء، تأهّباً لصخب الليل. وقْع خطوها، ورائحة جسدها، عنصرا الحياة الأساسيان في طريق عودتها في هذا الوقت من اليوم.

وكأنها تسوق قطيعاً من لذة الحياة وبؤسها معاً، تدخل الحي غير عابئة بالأعين التي تشتهيها أو تشتمها من وراء النوافذ المتهالكة. متحصّنة فقط بعباءتها حول نصف جسمها، لا تسلّم على أحد، ولا ترد سلام أحد، إن كان هناك من أحد تراه. وإن أرادت أن تمعن في إثبات حضورها، تتجاوز باب منزلها، لتختفي في عتمة زقاق تلو الآخر، تاركة خلفها رائحة عطر لا يغادر المكان، كشاهد على أن غرسة مرت من هنا رغم أنف الجميع.

هذا الحي الشعبي كان ذات يوم تاريخ مدينة جدة، وموطن أثريائها، حتى تحول بقدرة عجائبية إلى ورقة منسية يسكنها العوز والألم. وكما ازدهرت في ما مضى بعض حدائقه، فقد تكوّمت

القاذورات اليوم في كل ركن منه. لم يرَ أحد عامل نظافة منذ وقت. لعله نسي، أو هي البلدية من نسيت هذا المكان العميق في حضارته.

الحياة هنا تختلف عن الحياة في الطرف الآخر من جدة، حيث ينشر غسق المساء فضله على الأغنياء. وحيث الأموات هناك أحياء، والأحياء هنا موتى. إن كان من تسمية يستحقها هذا الحي الذي يقع قريباً من باب مكة العتيق، فهو "زومبي"، أي عالم الأموات الذين يسيرون كالسكارى على غير هدى. كانت غرسة تستغرب دوماً، لمَ لا يزال بعض القادرين على مغادرة الحي يرغبون البقاء فيه، أم أن الموت حياً فيه لذة من نوع ما؟

"لمَ تأخرت حتى اللحظة؟".

سألتها جدتها وهي تسمعها تلج إلى الدار.

"كنت عند خالتي أم عتيق".

أجابت بهدوء، وهي تفرك أطراف أصابعها من بعض بياض حائط المقبرة الذي كانت تلامسه. لم يكن هناك من جرح كما حدث في الأسبوع الماضي عندما كشطت راحة يدها على الحائط الخشن.

"أذّن المغرب، فقومي لصلاتك". قالت الجدة.

"صليت".

"أين؟ عند أم عتيق أم في الشارع؟".

"في قلبي"، قالت الفتاة وألقت بعباءتها فوق مقعد قريب، ومضت إلى حجرتها الصغيرة.

سمعت صوت جدتها تصلي، وانشغلت هي بخلع فستانها.

وقفت تتأمل نفسها في المرآة بثيابها الداخلية، وتعيد النظر إلى أطراف أصابعها.

كانت غرفتها من الصغر حيث بالكاد تتّسع لسرير صغير. لكنها أحسنت توضيب حاجياتها في هذا الحيّز. هي تحب اللون الأحمر. وكل ما في غرفتها، وخزانة ثيابها، أحمر. لون يسيطر عليها بقدر ما يمنحها القوة. مؤمنة، في الوقت ذاته، بأن القوة تأتي ممّا نخاف منه.

من وراء نافذتها المغلقة منذ شهر، منذ تلك الحادثة، أتاها صوت غناء يتكرر للمرة الثالثة. اقتربت وألصقت أذنها. نعم... إنه الصوت ذاته يتسلل إلى حجرتها من منزل مجاور. لكنه لن يكون، قطعاً، من المنزل المقابل. أزاح عن صدرها، الصوت المتسلل، بعض حزنها. فدندنت شيئاً لا يتطابق معه. بدا أن دفقاً من بهجة يتيمة ينطلق مع الصوت القادم من وراء النافذة. شرّعتها قليلاً وأخذت تتمايل في فضاء غرفتها. لو رأى أحدهم ذاك الجسد الغض يتمايل بملابسه الداخلية، لقطع نصف طريق إلى الجنة.

قادتها قدماها إلى خارج حجرتها، وهي لا تزال تسبح في رقصتها تلك. هل هذه هي غرسة التي كانت تمشي حزينة بجوار المقبرة منذ دقائق فقط؟ إنها هي بكل ضعفها وقوتها، حزنها وفرحها، تداعب السكين إن شاءت أو تجعله يقطعها.

رأت جدتها على الأرض تصلي. طافت حولها وهي لا تزال ترقص مرة، اثنتين، ثلاثاً... ومع الرابعة صرخت بها جدتها، التي بالكاد ترى "هل أنت عارية أم يخيّل إلي؟ استري نفسك يا فتاة".

وقبل أن تقوم عن سجادة صلاتها سألتها "هل أسمع صوت غناء ثانية؟ يا لهم من جيران سوء لا يقدّرون مصاب الآخرين. غرسة... أغلقي النافذة، وساعديني لنعدّ عشاءنا".

يونيو/حزيران

إن كانت غرسة حبيسة سجن كبير خارج أسوار المقبرة دون اختيارها، منذ ولدت، فإن حبيبها بقي حبيس تلك المقبرة باختياره، جاثماً فوق قبر يحمل الرقم ٢١٥.

منذ شهر كامل يزيد بيوم أو اثنين، والعاملون هنا يحاولون إقناعه بمغادرة المكان. الشمس تطعن كالرمح، والحر قائظ دبق. في البدء كانوا يواسونه في فقيدته بالعبارات التقليدية ذاتها "البقاء لله"، "الحي أبقى من الميت"، "شد حيلك"، وما كان لحيله أن يشد الرحال من هنا. بعد أيام من المحاولات المتكررة، وعطايا الشاب المكلوم لهم، تركوه باقتناع أنه سيترك المكان بعد حين. لكنه لم يفعل.

لم تكن ثيابه رثة وهو يقضي صبحه ومساءه على القبر. فقد كان هناك من يقدم له ثوباً نظيفاً كلما اتسخ ما عليه. واستحمامه، بماء بارد، تمّ له كلما أراد في دورة مياه العمال. وهو لم يستحم على أي حال حتى الآن سوى ثلاث مرات طوال شهر كامل.

ما ادّخره من مال طوال حياته، والذي بلغ في جملته قرابة خمسين ألف ريال، وجد أين ينفقه في هذا المكان القفر، المحاط ببعض البنايات الصغيرة المحيطة بالمكان شبه المنسي من جدة.

تحمل المقبرة، في حي العمارية القديم، اسم "أمنا حواء"، بادّعاء أنها كانت مرقد أم البشرية. تصطف القبور داخلها على شكل مربعات متلاصقة طليت حوافها بالأبيض، تشبه أسقف غرف طمرت بالأرض. تمتد كلها، بعضها بجوار بعض، بطول مئتي متر هي امتداد المقبرة.

في الماضي كانت هذه الجبّانة هي حدود المدينة القديمة. أما اليوم فهي تتوسط حياً شعبياً كل ما فيه بنايات متعبة قذرة لا تعلو أكثر من طابقين، وبضعة أكواخ بائسة في أسطحها. المقبرة ذاتها أكثر نظافة من الحي الذي تقع وسطه، والموتى أنفسهم أكثر حياة من ساكنيه.

لم يكن الشاب الذي يجلس على القبر يعيش بعيداً عن هنا، كحال غرسة. وما سكناه الآن فوق مرقد من أحبها بالأمر الصعب لمن عاش ألم حب قد رحل صاحبه... الانتظار كل ما يملكه، ولا شيء يفعله في صبحه ومسائه، سوى البقاء جالساً على ذاك القبر ينظر إليه في صمت، أو يرقب من يدفن ومن يزور.

على القبر الذي يقيم عليه، لا يبكي ولا يصلي، ولا يفعل شيئاً سوى الصمت. إن كان من فعل آخر يستحق أن يسجل هنا، غير قضاء حاجته، فهو بعض طبطاب الجنة[1] الذي يتناول شيئاً منه، وينثر الباقي على القبر، كمن يقاسم ساكنه الحلوى.

كان يدفع لأحد العاملين هناك بضعة ريالات كل يوم، من أجل هذا الطبطاب الذي يحضرونه له من المدينة العتيقة. هذا الصمت،

---

١ نوع من الحلوى الشعبية تصنع من السكر المحروق والدقيق.

والأفعال القليلة التي يقوم بها، ليست سوى موجة خفيفة على سطح ماء ثائر في عمقه. كان يبكي، يصرخ، ويناجي التراب بلا كلل في صمت مطبق.

"أيها التراب... يا من أنت نحن ونحن أنت. يا من أكلت من أحب. ألا تفتح هذا القبر؟ ألا تخرجها منه، لترى حالي علّها تعود من موتتها؟ إن أبت مشاعرك الخالية من الإحساس أن تدرك ما بي، فهلّا رحمتني وضممتني إليها؟"، ثم يختم مناجاة كل يوم رافعاً رأسه إلى السماء "ارحمني... ارحمني..."، ويجهش في بكائه الصامت من جديد!

كان العاملون في المقبرة، ومعظمهم مصريون، يتعاطفون معه ويعاملونه بلطف. في البدء كانوا يعرضون عليه أن يشاركهم طعامهم، لكنه كان يرفض. وعوضاً عن ذلك كان ينقدهم بين حين وآخر ما يصرفهم عنه.

خليل هو مدير المقبرة. لم يكن يظهر كثيراً، معطياً كل صلاحياته للعاملين هنا حيث يعلم كل فرد ما يقوم به. ومع أن قانون البلدية التي تشرف على المقابر يقضي بتغيير العاملين، بالتناوب على مقابر المدينة التي يصل عددها إلى أربع عشرة، إلا أن معظم من في هذا المكان يبذلون جهدهم للبقاء فيه أكثر من المقابر الأخرى المنتشرة في أرجاء المدينة. وسبب ذلك هو طوف الزائرين، من حجاج ومعتمرين، الذين يفدون إلى المكان باقتناع أن أم البشرية "حواء" مدفونة هنا بالفعل. مثل تلك الزيارات التي لا تنقطع على مدار العام تكون سخية في عطائها. ولما كان العطاء مقروناً بذاكرة

المكان، فما الذي يمنع لو صيغت ألف حكاية عن "حواء" هنا.

لا يحتاج حفر قبر أو دفن ميت إلى الحيلة، لكن تحصيل المال يتطلب ذلك. وهو ما أتقنه معظم العاملين هنا، والشحاذين أيضاً. فحتى أكثرهم جهلاً، قادر على التحدث بضع كلمات من لغات الزائرين، وأغلبهم من آسيا، الذين لا يكملون زيارتهم للأماكن المقدسة من دون رؤية مقبرة أمهم الأولى.

ظهور طيف امرأة ضخمة في الليل، تجوب المقبرة أو تغادرها، قد يكون بعض ما يقال للسذج منهم. لكنها تلقى قبولاً لغموضها. ولمن شاء أن تكون مكافأته أكثر سخاءً، فسيقسم أنه حادث الطيف ذات مرة، أو سمعه يقرأ القرآن.

وإن سأل بعض الزائرين عن ذاك الجالس على القبر بمظهره الحزين، جاء أكثر من جواب لإضفاء حبكة جيدة على أسطورة أم البشرية. فهو أحد من رأوها، أو أحد المستنجدين بها أيضاً. وإن حاول بعضهم الاقتراب منه، حال العاملون دون ذلك، "وإلا غضبت أمنا حواء"، كما يقولون!

العاملون الذين رثوا لحال الرجل أول الأمر، تقبّلوا وجوده بعد ذلك، إما لعطائه المباشر أو لاستغلال وجوده الحزين لنسج قصص تطال آدم نفسه ما دامت زوجته هنا!

موظف البلدية الذي غضّ النظر عن بقائه، هو أيضاً، ونظير أعطية مجزية كلما جاء للمراقبة، كان يقف كل مرة من بعيد ويعيد السؤال ذاته: ألا يزال موجوداً؟

لا يوجد قانون يمنع بقاءه، ولا قانون يسمح. ولو اجتهد

أحدهم، لوجد نصف قوانين البلد مدفونة في أحد القبور هنا.

إضافة إلى بعض العاملين، فقد تعاطف مع سلومي مدير المقبرة خليل، الذي قليلاً ما يحضر.

عندما يحين موعد الصلاة، كانوا يدعونه إلى الصلاة معهم. وما كان يفعل في معظم الأحيان. لم تكن هكذا حاله في سابق الأيام عندما كان أول القاصدين للمسجد. لكن حاله تبدّلت. اعتقد بعض من عرفه أنه قد فقد عقله بالبقاء هنا، والتوقف عن الصلاة والعبادة، أو أنه قد فقد يقينه بكل دين. بعضهم حاول ثنيه عن فعله، ودفعه إلى مغادرة المكان، لكنه يرفض الإنصات أو الحديث لمن حضر لرؤيته. وفي المرة الأخيرة، قبل أسبوعين فقط، طرد بعض من تجمع حوله لمواساته كما لو كان هو سيد المكان. غادروا وهم يدعون له بالهداية والثواب إلى رشده.

ذات ظهيرة، زار المكان رجل طاعن في السن. وقف على أحد القبور وأخذ يقرأ القرآن. ثم نظر إلى حيث يجلس الشاب المكلوم غير بعيد عنه. استغرب من بقائه جاثماً فوق القبر بلا حراك. اقترب بهدوء. سلّم عليه... بقي الشاب صامتاً من دون أن يرفع إليه عيناً. سأله الرجل الهرم عن اسمه، عن قصته، فما أجاب. حاول أن ينهضه، فنهض معه بوداعة طفل. أخذه الشيخ إلى رواق قرب المدخل اصطفّت تحته مقاعد أعدّت للمعزين. أجلسه وجلس بجواره وسط استغراب بعض العاملين. وضع يده على رأسه وراح يتلو بعض أدعيته. أغمض الشاب عينيه حتى أتمّ الشيخ قراءته. ما إن انتهى، حتى نظر إلى صاحب اليد الممدودة

إلى رأسه، فانتفض وعاد إلى موضعه فوق القبر. بقي الشيخ ينظر إليه في صمت ومضى في حال سبيله. عند الباب قال لأحد العاملين "إنه رجل ممسوس. ألا تحضرون من يقرأ عليه؟".

لم يكن أحد من العاملين هنا يعرف من أين يأتي الشاب بالمال ولا مصدر رزقه. لكنه كان سخياً معهم وكأنه ينفق كل ما ادّخر في حياته. هم لا يعرفون سوى رجل زاره مرتين، وضع في يده مبلغاً من المال ينفق منه على الحلوى وكسب القبول.

اعتاده الجميع، كما اعتاده ساكنو الحي الذين تطل بيوتهم على المقبرة، ومن بينهم بيت أم عتيق وضيفتها غرسة.

لا تبدو على محيّاه سمات الفقراء ولا الجهلة، رغم قسوة المكان، بل زادته لحيته التي طالت وقاراً مع سنيّ عمره التي لم تتخطّ ستة وعشرين عاماً. له قوام معتدل، ووجه طفل ملأه الحزن. لم يكن يشتكي، ولا يتكلم حتى مع عمال المقبرة، سوى بضع إيماءات أو كلمات كلما دعت الحاجة. وقد احترموا صمته ومصابه، فاكتفوا بدعوته بين حين وآخر إلى الصلاة أو الطعام، رغم معرفتهم المسبقة بأن الرفض الصامت غالباً ما يكون جوابه.

عندما كانت تقسو عليه شمس ظهيرة يونيو/حزيران، يكتفي بوضع شماغ أحمر على رأسه. يتلثم به حيناً، أو يتركه ينسال على الجانبين. وعندما يأتي المساء، يمكن تمييز ظلاله وثوبه الأبيض المغبر، من نوافذ المنازل المحيطة.

يبدو في مظهره غائباً عن المكان، لكنه شديد الوعي بماهيته. وقد أعطاه انصهار ألمه من حبه إحساساً عدمياً بما يحيط به.

في ذلك المساء الذي سارت فيه غرسة بجوار المقبرة، أفاق من إحساس العدم، ملتفتاً إلى مكان احتكاك أصابعها بالحائط. وقف، أنصت، كأنما هذا الاحتكاك مناداة خافتة لاسمه. بقي واقفاً بضع دقائق يحرك رأسه كمن يرى غرسة تسير وراء الحائط المرتفع، ثم عاد بهدوء وجثم كما كان.

* * *

مضت ساعة وهي تجلس وراء باب شرفتها المغلقة في بيت جدتها. كان الوقت باكراً، والجدة في المطبخ تعدّ، على ضوء قليل في عينيها، إفطار الصباح.

لم تهنأ الفتاة بليلة يرتاح فيه جسدها المتعب من وطأة التفكير والتنقل بين بيت جدتها الذي تسكن فيه، وبيت العجوز أم عتيق، الذي يشرف على المقبرة مباشرة.

أم عتيق صديقة قديمة للجدة. حالت صحتها، وبالمثل صحة الجدة، دون تواصلهما المستمر. لكن في الشهر الأخير فقط، باتت غرسة هي الحلقة بينهما. ما كانت الفتاة لتفعل ذلك لولا رغبتها في مراقبة ذاك الساكن فوق القبر، الذي يمكن رؤيته من زاوية منفرجة من شقة أم عتيق، حيث اعتادت غرسة زيارتها كل يوم من الظهيرة إلى المساء. وغالباً ما كانت تعينها على بعض شؤون المنزل المتواضع من حجرتين.

كان نفورها من كل ما حولها يزداد يوماً يتبعه يوم. إحساس

بالقرف يكبر في صدرها من الأشياء التي تحيط بها وتعيش فيها. ولم يكن غريباً أن فكرت، كحال أمها الرحالة، بمغادرة المنزل والحي والبلد كله، لولا جدتها والجار الوسيم الذي عشقته. لكن الجار منصرف عنها إلى قبر حبيبته، وجدتها تبدو قانعة هنا أكثر منها. وهي إن كانت تعيش بنصف إيمان، فما كانت تملك إيمان جدتها، ولا اليقين بجنة تقول إن الله خلقها لشهوات الرجال.

كانت تقضي صباحاتها تهتم بشؤون البيت، ومحاولة التقرب من ذاك الوسيم، فاقدة أي أمل بالدنيا، إلا أن يكون لها ذات يوم. إن خرجت فلشراء الحاجيات، وتقفل عائدة إلى البيت. في رحلتها القصيرة هذه تكون قد حصدت من النظرات الجائعة ما يكفي لإطعام قطيع من الأسود، بنفس قدر ما تحصده من لعنات نساء الحي. بعدها تقبع أمام نافذتها تنتظر رؤيته وهو يغادر أو يعود إلى بيته.

غاوية ومغوية. هكذا كانوا يصفون حركاتها، مشيتها، حديثها، وحتى بكاءها بأنها كلها مصطنعة لاصطياد الرجال. وبعد تلك الحادثة المشؤومة، بات الحديث عنها شتائم تسمعها، من دون أن تعيرها أدنى اهتمام.

ذاك الصباح، طلبت منها جدتها قبل أن تغادر إلى بيت أم عتيق أن تفتح جزءاً من باب الشرفة.

"وما الذي ستجنينه يا جدتي غير رائحة العفن؟".

"دعي بعض الضوء يدخل".

"حتى الضوء في هذا الحي بات قذراً". قالت غرسة وهي تتلفع بعباءتها.

"لا تتأخري في بيت أم عتيق... ولا تدخني أيضاً".
قبّلت الفتاة رأس جدتها، وانصرفت.
الوقت هو الثانية بعد الظهر، والشمس أكثر تصالحاً مع المدينة، لكنها كافية لتنزّ من جسد الفتاة عرقاً برائحة المسك. وكما كل يوم، سارت بمحاذاة المقبرة، لكن من دون أن تلامس حوائطها.
اشتمّت رائحته وهو في الداخل جاثم على القبر.
صعدت خلاسية اللون إلى الطابق الأول من البناية المتهالكة، حيث تسكن أم عتيق. ألقت من النافذة المشرعة نظرة سريعة إلى المقبرة، ثم أخذت ترتب القطع المتواضعة في البيت، وأعدّت لمضيفتها طعام غدائها، ثم جلست تراقب الشاب متموضعاً فوق القبر كناسك يتعبد.
"منذ شهر وأنت تفعلين الشيء ذاته يا غرسة... بالله عليك ما الذي تنظرين إليه غير المقبرة؟".
"لو كان بيدي أن أفعل غير ذلك لفعلت"، وأشعلت سيجارتها الأولى.
"لا أعرف ما تحبين في هذه السيجارة التي تقتل صدرك".
"إنه الحب يا خالتي أم عتيق"، قالت ونفثت الدخان في تململ.
"جميلة مثلك، وفي هذا العمر، يجب أن يكون لها زوج وأطفال، وهذا هو الحب".
"وهل يعرف هذا المكان الحب؟".
"... ولأنه لا يعرفه، فلا تنتظري أن يأتيك وأنت واقفة هكذا...

فالحب لا يملك قدمين".

نظرت إليها غرسة ولم تعلّق.

"يمضي العمر سريعاً يا ابنتي. عندما أفكر في خمسين عاماً مضت، أحسّها البارحة. لن تجدي بعد حين من ينظر إليك".

"ومن قال إني أريد أحداً ينظر إلي سواه؟".

"من هو سواه؟ أنت عاشقة بالفعل... غرسة تحب... لقد قلت ذلك لنفسي. من الذي تحبينه إذاً؟".

نفثت الدخان وقالت وكأنها تفكر في ما هو أبعد من وقفتها تلك "أنت أكثر من رآه".

"أنا...؟ رأيته...؟ أين...؟".

لم تجب.

"هل هو يسكن هنا... في هذه البناية؟".

رحلت بنظرها عبر النافذة باتجاه المقبرة.

تقدمت العجوز بظهرها المحني إلى حيث النافذة. نظرت ثم قالت:

"هل هو أحد المقيمين في هذا الحي؟ آه... هذا يفسّر زياراتك لي في الشهر الأخير. حسناً... أخبريني من يكون".

"وهل سيتغير في الأمر شيء لو عرفت من يكون؟".

"إن شئت طلبت يده لك"، قالت أم عتيق بابتسامة هادئة.

صدرت ضحكة منكسرة عن غرسة وقالت "ليت الأمر كذلك".

"حسناً... أخبريني من يكون، ودعي الأمر لي".

نظرت غرسة إلى أم عتيق والحزن يملأ مقلتيها، ثم نظرت إلى المقبرة، وكأنما تسوق بصر العجوز إلى ذاك الجاثم على القبر.

"آه... هل تريدين مجنوناً مثل هذا؟ إنه يسكن فوق ذاك القبر منذ أكثر من شهر. شهرين ربما. ما عدت أذكر. لقد هرمت. أنا لم أره أول الأمر، لكن أخبرني عنه بعض الجيران. خديجة التي تسكن في الأعلى... أظنك تعرفينها. عندما رأيته رثيت لحاله. قلت في نفسي لعلها زوجته أو ابن له دفن هناك. وتيقنت أنه رجل هالك في عقله، ممسوس أو كافر، أياً كان مصابه".

"ولماذا لا يكون عاشقاً؟".

"مجنون ولو كان عاشقاً. فالأرواح تعود إلى خالقها إلى يوم الدين. هو يعلم ذلك ولا يريد أن يصدق. أو قد يكون كافراً بإرادة الله. فالله تعالى هو من يعطي ويأخذ". قالت العجوز وعادت تلقي بجسمها المتعب على مقعدها.

"بل هو عاشق..."، كررت غرسة بصوت شابته حشرجة بكاء.

"هو مجنون إذاً!".

"إن كان الحب جسداً، فالجنون هو عقل العشق يا خالتي. بدونه يكون الحب وردة من ورق، جميلة لكن لا حياة فيها. لست أريد أن أكون وردة كتلك..."، صمتت ثم أضافت "بل كتلك". وأشارت بيدها الممسكة بسيجارتها إلى حيث يجثم الشاب في البعيد هناك.

لم تفهم أم عتيق كثيراً مما قالت غرسة. لكنها استغربت إشارتها

إلى الرجل، وسألت في عفوية "هل ذاك الذي يجلس هناك رجل أم امرأة في ثياب رجل؟".

"إنه الرجال كلهم".

"ومن هي التي تريدين أن تكوني مثلها إذاً؟".

تنهدت الفتاة ولزمت الصمت. ثم ما لبثت أن انفجرت في بكاء مرير.

صدمت العجوز وهي ترى بكاءً حارقاً أمامها. نهضت إليها ثانية، وأبعدتها عن النافذة وهي تربّت بحنوّ ظهرها. سريعاً ما تماسكت غرسة، وجففت دمعها، وانسلّت إلى حيث كانت تقف.

قرأت عليها العجوز بعض آياتها وحاولت أن تبعدها ثانية عن النافذة.

"أرجوك يا خالتي... اتركيني هنا. سأكون أفضل". وعادت تنظر إلى الرجل.

"ألا تتخدّر قدماه من جلسة محرابه تلك؟"، سألتها أم عتيق وهي تنظر إليه.

"أخرجي ما في صدرك يا ابنتي، فكلنا يوماً سنكون هناك".

ووضعت راحتها على خدها تداعبها بحنان أم... فأجهشت بالبكاء ثانية.

"عاشقة ومظلومة أنت أيتها الفتاة.هيا... أخبريني بقصتك".

يوليو/تموز

لم تُبعد ظهيرة يوليو/تموز الرجل عن مكانه، ومن حوله بقايا حلواه. بدا متعباً لمن يرى وجهه الشاحب عن قرب، وعينيه المحمرتين. كان رمضان يقترب. وقد اختار واحداً من أكثر شهور العام لهيباً. ستخلو الشوارع من المارّة نهاراً، وتصبح الحياة شبه عدم إلا في الليل.

بالنسبة إليه، كان الأمر سيّان.

المسافة بين بيت أم عتيق والمكان الذي يجلس هو فيه يناهز مئة متر. بُعدٌ ليس كافياً ليخفي الكثير من تفاصيل حركاته عن عيني غرسة التي تراقبه منذ يومه الثالث أو الرابع هنا.

الصمت الطويل ينفجر ألماً في صدرها كلما رأته. كان لا بد للصمت أن ينتهي وتخرج قيء جرحها، وإلا ماتت كمداً. بعد تردد أخذت تروي قصته، وقصتها معه، لأم عتيق.

بصوت أقرب لحديث النفس، قالت:

"اسمه سليمان. ويدللونه سلّومي. يتيم مثلي. لم يرَ أحد والديه. قال البعض إنهما من اليمن، وإنهما أثناء طريقهما عائدين من الحج تعرضا لحادث سيارة. ماتا، وبقي هو على قيد الحياة. كان طفلاً لم يتجاوز الثانية من عمره. تكفل أحد ساكني الحي، واسمه خالد

الأحمد، بتربيته. لا أعرف كي وصل إليه، لكن هذا ما حدث.

كان خالد يسكن أمام بيتنا. وهو رجل ميسور كريم. تعود أصوله إلى منطقة الباحة. قدم إلى جدة منذ زمن، وعمل في حانوت صغير قبل أن تكبر تجارته في الأرزاق؛ سكر ورز وسمن وأشياء كثيرة أخرى. لم يكن عملاً تصعب إدارته، لكن التوسع فيه تطلب قدرة على الحساب، وهو ما كان يجيده سلومي. لذلك بات اعتماد خالد عليه أكثر من اعتماده على نفسه.

رغم أن الرجل بقي في الحي الذي نسكنه، كان أغنى من يعيش فيه. داره كانت صغيرة فاشترى اللصيقة بها وضمّهما إليها في دار واحدة. خلفها حديقة صغيرة ما زلت أذكر شجرة الليمون التي تتوسطها والتي كنا نلعب حولها أنا وسلومي وهي... سلمى".

"هل تقصدين سلمى... التي ماتت؟".

"نعم، إنها هي، ابنة خالد التي أتت بعد خسارته توأمين. زوجته سيدة طيبة، وكريمة أيضاً، لكن ليس بكرمه، ولا طيبته. هي ابنة عمه، وقد كانت الحبيبة إلى قلبه. لم يبخل عليها ولا على داره بشيء، بما في ذلك سلومي الذي تعهد بتربيته. حتى هي كانت تعامل سلومي كابن لها حيناً..."، صمتت غرسة لحظة ثم واصلت "أو كأجير حيناً آخر. لم أفهم شخصيتها كثيراً. ولم يكن الأمر ليعنيني أكثر من أن تسمح لنا باللعب في حديقة الدار، تحت شجرة الليمون، مع ابنتها سلمى وسلّومي، وبعض أبناء الحي.

أول مرة دخلت فيها دارهم، أحسست كم هم أغنياء مقارنة بي أنا وجدتي ودارنا المتواضعة التي نسكنها، قبالتهم تماماً. في

طفولتنا، كان أبناء الحي يلعبون معاً، ويدخل بعضهم بيوت بعض. الصبية يتحلقون من حولي، ويخافون من سلمى. وأنا أتحلق حول سلومي وأغار من سلمى التي كان يوليها كل اهتمامه.

مرح وذكي. وهو فوق ذلك، نبع يفيض حناناً. دأب على زيارة جدتي بين حين وآخر. كنت أقرفص بجواره كلما زارنا. حاولت مرة الاقتراب منه، لكنه ابتعد. كأن صوتاً في أذنه طلب منه ذلك. أدركت بتفكير طفولي أنه إن كان من شيء وراء ابتعاده فهو خوفه من زلّة تبعده عن سلمى. لربما، كباقي الصبية، اشتهى مني الجسد فقط. أما قلبه، فقد كان منصرفاً إليها. هو لم يخبر أحداً بحبه، لكن ما كان للأمر أن يخفى على أحد أيضاً، لاسيما أمها التي لم يعجبها ما شعرت به.

كانت سلمى محاطة بالكثير من اللعب. حيناً نتشاركها معاً، وحيناً لا تريد من أحد الاقتراب منها. الشوكولاتة وطبطاب الجنة كانا عشقها الأول، كما هو شأننا كلنا حينها. ولم يبخل عليها بما أحبت. ما زلت أذكر كم كان يشتري ألواحاً من هذه الحلوى من مصروفه اليومي الذي يحصل عليه من خالد، ولم يكن كثيراً على أي حال. فيعطي كل فتاة في الحي قطعة أو نصف قطعة، حتى أنا، وقطعتين من أجل سلمى. عندما بات يعمل مع خالد بدوام كامل، كانت الحلوى التي يحضرها لسلمى وحدها تكفي أطفال الحي كلهم. حتى إن العم صالح، وهو صاحب دكان صغير وسط الحي، كان يعرف موعد زيارة سلومي له كل يوم، فيعدّ له مسبقاً طبطاب الجنة الذي كانت تصنعه زوجته. ومثل العم صالح، بتنا

نحن أطفال الحي نعرف بدورنا متى يأتي لشرائه، قبل أن يذهب إلى عمله صباحاً أو يعود منه، إذ كان يعمل فترة صباحية وأخرى مسائية. ما كان سلومي يغفل أحداً من أطفال الحي، بما في ذلك أبناء العم صالح السبعة. لكن تبقى حصة سلمى هي الأكبر.

الأطفال يغار بعضهم من بعض بسبب قطعة حلوى. لكن غيرتي كانت مختلفة. أجلس ساعات أفكر كيف أبعدها عنه أو أبعده عنها، حتى إني تمنيت الموت لها. لم أعلم أن حب سلومي لها سيكون هو الموت ذاته. وكما هي غيرتي كانت تكبر ضدها، كانت أمها تحاول جهدها إبعاده عنها. فهو رغم قربه من خالد، يبقى للأم مجهول النسب وأجنبياً.

لم تغيّر تلك الحقيقة من مشاعر خالد تجاهه. فقد كان يعامله كابن حقيقي. حتى إنه، عندما كبر، بات سنده الأول والوحيد. لم تحُل لعنة الأجنبي، التي التصقت به، دون اكتسابه مهارة الحساب والتجارة. ومع أن تعليمه توقف قبل أن ينهي الثانوية رغبة منه في العمل مع والده بالتبنّي، فقد كان عقله يعمل كآلة حاسبة أمينة على سر صاحبها وماله. لكن كلما اقترب سلومي من خالد، ازداد حبه لسلمى التي كانت قد بلغت ربيعها الخامس عشر. كانت جميلة. سمراء، لها شعر أسود فاحم بطول الليل".

صمتت غرسة لحظة، ثم استرسلت بنبرة هيّجتها العواطف "هل تعلمين يا خالتي أم عتيق أن الغيرة هي أول إحساس في الحياة؟ حبّ التملك في داخلنا يكبر معنا. نريد كل شيء لنا. حتى قطعة الحلوى نغار إن أكلها أحد أكثر منا، فما بالك بسلومي الذي أصبح

بالنسبة إلي حلوى الدنيا كلها؟

هل تصدقين لو قلت لك إني قد أوقفت تعليمي عندما توقف هو؟ فقد كنت أراه رجلي الأبدي. وما كنت أريد أي فارق بيننا. صحيح أن فقري سبب آخر لعدم إكمال تعليمي، لكن بقي هو السبب الأكبر. عملت وسعي لألفت نظره إلى ثيابي، حديثي، مشيتي. حتى إني...»، ترددت غرسة قبل أن تواصل، "حتى إني أغويته بكل جسدي. نعم... كان أول رجل أتعرّى أمامه".

فغرت أم عتيق فمها. اقتربت من غرسة تحثّها على مواصلة قصتها. فأي إثارة في حياة عجوز وحيدة أجمل من سماع قصة حب وعري؟

"حدث ذلك عندما رأيته عائداً ذات مساء. كانت جدتي في رحلة، مع إحدى جاراتنا، إلى مكة لأداء العمرة. دعوته إلى المنزل فلبّى. لم يعلم بغياب جدتي. عندما أخبرته في الدار أننا وحدنا، ارتبك وخاف. كنت أكثر جرأة منه، وإن لم أصدق أنه يجلس أمامي، وأننا في البيت أخيراً... وحدنا.

لبست أجمل ثوب عندي. كان أحمر. يكشف أكثر مما يستر. اقتربت منه فنهض واقفاً. أمسكت يده وأعدته إلى حيث كان يجلس، وبجواره جلست. لمست يده. ثم داعبت خصلة من شعره الأجعد الفاحم. خفّ روعه قليلاً، وأخذ يتحسّس شيئاً مني. أزحت من الثياب ما اعترض طريق يده. ثم أزحت كل شيء. نهض ثانية وكأن شيئاً دفعه بعيداً. قبل أن أنهض وأمسك به من جديد، توجه إلى الباب مسرعاً وصفقه من ورائه وهو يتهمني بالعهر.

كان ذلك أول لقاء جمعنا وحدنا في هذه المرحلة من العمر. بعدها حدث عكس ما تمنيت. صار يتجاهل حتى النظر إلى منزلنا. وزياراته إلى جدتي توقفت تماماً. حتى الحلوى التي كان يشتريها لي ولسلمى، توقفت هي الأخرى.

جاهدت أكثر من مرة للتواصل معه من جديد. لكنه كان يزداد تجاهلاً لي. شعرت بندم، وسألت نفسي إن كنت قد أخطأت بإغوائه. لم أرد سوى التقرب منه أياً كان الثمن. ولو حدث بيننا ما حدث، ما كنت لأندم أن يكون الرجل الأوحد في حياتي.

شعرت بطعنة عميقة لكبريائي. كرهت سلمى الغافلة عن حبي له. شعرت أن في تجاهله إهانة لي وأنا التي عرضت عليه شرف جسدي. تمنيت قتله في بعض الأوقات، أو هكذا حلمت، انتقاماً لشرفي الذي قلت في سري إن سلومي قد اغتاله. لكنه لم يكن الكبرياء أو الشرف بل الغيرة. فقد آثرت أن يموت، أو أموت أنا، على أن يكون لأحد غيري. ما كنت لأمنع عنه شيئاً. كل أبناء الحي، الذين كنت ألعب معهم طفلة صغيرة، كانوا يحاولون التقرب مني. يدللونني، يداعبونني ويبتسمون ويضحكون ويخترعون البطولات والقصص. حتى آباؤهم فعلوا الشيء ذاته. اعتقد جميعهم أن إظهار مفاتني إن هو إلا محاولة لإغوائهم، وأني جاهزة لأي احتمال. لم يدركوا أني كنت أشتهي سلومي وحده، وأغويه وحده. لكني بدلاً من الاقتراب منه، بتّ أكثر بعداً. وكم تمنيت، في سرّي، لو استأجرت قاتلاً مأجوراً، يقتل المسافة التي بيني وبينه.

بات بعدها أكثر انصرافاً إلى سلمى، وكأني دفعته إليها. هو

يكبرها بسبع أو ثماني سنوات، ويصغرني أنا بعام واحد.

هل كانت سلمى أجمل مني؟ ألهذا أحبها؟ لا أعلم. لكن من السخف ربط الحب بالجمال، عرفت ذلك من ألمي. فإن كان الجمال صفة متحللة مع الزمن، فالحب روح خالدة.

حاولت كلما سرت بمحاذاة بيته الذي أمسى شبه محرم علي، أن أختلي به ولو نصف دقيقة، لأبلغه أسفي لما بدر مني. لكني تساءلت، حتى قبل أن تحين فرصة الاختلاء، إن كان هو من ينبغي عليه الأسف أن دفعني إلى ما فعلت من أجله. مع هذا، فقد أردت أن أختلي به لأخبره بأن من يستحقه هو من يحبه لا من هو يحب، في إشارة إلى أن حبي له أعظم من حب سلمى. لكني ما استطعت. وجدت ذلك عبثاً. فقد أدركت أنه إن كان حبي عظيماً، فقد كان متواضعاً أمام حبه لها.

اليوم أفكر، ما الذي كان سيفعله من أجلها، وما الذي كان علي أن أفعل من أجله؟ لو أخبرت أحداً بقصتي حينها، لطلب مني الكف عن هذا العبث، فأنّى لشاب مثله أن يفكر بفتاة مثلي لاكتها ألسنة الحي؟ هو حتى اللحظة يجهل أني ما صرت حديث الحيّ إلا بسببه. ليتني ملكت الجرأة، ولو مرة واحدة، لأخبره بذلك قبل أن يحدث ما قد حدث. إن أسفي عليه اليوم أعظم من أسفي على ما يقال عني.

مرت أيام كثيرة، ونضجنا كلنا؛ أنا، سلومي، وسلمى. كان مفترق طرق ينتظرنا في أي لحظة.

بات أي صوت هامس يصدر من دارهم، يرعبني وأتساءل هل

وصلنا إلى المفترق؟

ذات صباح، سمع الحيّ صراخاً يأتي من منزل خالد. كان خلافاً قد نشأ بين خالد وزوجته. تبيّن أن سببه هو سلومي. هذا ما قالته إحداهن لجدتي. رأت الزوجة أنه بات كبيراً ليشاركهم الدار، ولها ابنة نضجت كتفاحة جميلة، وللحيّ ألف لسان. ورأى الزوج أن الدار تسع الجميع، وبإمكان ربيبه أن يسكن في جزء صغير منها في الخلف، الجزء الذي ضمّه إلى منزله، ولا شأن للحي بالموضوع.

لا أعرف إن سرّني ذلك أو ساءني. فقد كنت بين نارين. أردته أن يبتعد عن سلمى، ولا أريده أن يبتعد عن الحي. قضيت أوقاتاً أرقب خروجه من الدار، خشية عدم عودته من جديد، ثم أعود وأرقب دخوله خوفاً من صرخات جديدة يتبعها خروج أخير.

لاحظت في ما بعد أن غيابه يزداد عن البيت كل يوم. علمت من أم سلمى، يوم أتت ذات يوم لزيارة جدتي، أن خالد بات يبقي سلومي ساعات أطول في متجره، لا يعود منتصف النهار كما اعتاد، ولا يعود إلا وقد نام الجميع. لعلها كانت محاولة لتهدئة الوضع مع زوجته. لكن الغياب كان يطول. في بعض لحظات انتظاري له، عاجزة عن البوح بحبي، والانفراد به، كرهته، وتمنيت لو أستأجر قطيعاً من الكلاب ينهش لحمه. أن أشعل النار في بيته وعمله".

صمتت غرسة قليلاً، ثم واصلت سرد قصتها وهي لا تزال على وقفتها تلك تنظر إليه.

"... رغم هذا، فقد كان أعظم ما أخشاه أن يصيبه مكروه

ما. أعرف أنه قوي، لكنه ضعيف أمام سلمى، وهو أمام والدتها نار تقترب من الزيت. ما كان لي أن أتركه لها. حاولت التواصل معه ثانية وثالثة وعاشرة، وأخفقت المحاولات كلها. ذات يوم، وبالصدفة وحدها، التقيته وجهاً لوجه".

تصمت قليلاً... "رماني بكلمات اقتطعت جزءاً من إنسانيتي ورمته لكلاب الحي المصبوغة بالجرب. هذه المرة كنت أنا المخطئة بالفعل".

أطرقت غرسة إلى الأرض، وجففت دمعتين نزلتا من جرح غائر، وواصلت

"... مع أني كنت أنتظر رؤيته كل لحظة، وأحاول التواصل معه وقد هيّأت ألف تصور لحوار سريع يجعلني أكثر قرباً منه، لكن حدث العكس تماماً. كانت زوجة خالد ترسل لنا، بين حين وآخر، بعض ما تعدّه من طعام. تحضره بنفسها أحياناً، أو ترسله مع أحدهم. ثم نعيد إليها الأطباق في ما بعد. وغالباً ما أكون أنا من يفعل. ذاك اليوم، وقد طلبت مني جدتي أن أعيد الأطباق مصحوبة ببعض الحلوى التي صنعتها، ترددت وخفت أن أدخل دارهم فألتقي به. كنت أريد ولا أريد. تشجعت، وهيّأت نفسي، وكررت في سري ما كنت أريد أن أقول لو حدث أن التقينا. في الدار، طلبت مني أم سلمى أن أجلس معها قليلاً، ففعلت وعيناي تجوبان المكان بحثاً عن سلومي، وكأنه مختبئ في إحدى الزوايا. لا أعلم لَمَ جاءني هذا الإحساس... أنه مختبئ في مكان ما. بعد قليل أطلّت علينا سلمى. للحق يا خالتي فقد كانت جميلة. لكني

تمنيت لحظتها لو انشقت الأرض وبلعتها فتختفي من حياة سلومي إلى الأبد. ما طقت البقاء أكثر. غادرت وكان الوقت ضحى. الجزء الصغير الذي يسكن فيه سلومي له مدخل خاص به، قرب الباب الرئيسي. هناك وقفت، وأنا أشتمّ رائحته في المكان. فكرت في أن أغامر بالدخول إلى حيث يسكن. كدت أفعل لولا خوفي أن يراني لسان طويل في الحي. وأنا واقفة مترددة، أطلّ هو. رآني أقف على الباب الذي يقود إلى مسكنه. سألني بنبرة جافة ما أفعل هنا؟ تلعثمت... كل ما تهيّأت له وتخيلته من حوار تبخّر في لحظة. أخذت أرتجف، وتهدّل صوتي وكأني طفل ارتكب خطأً لا يغتفر. قلت له إني كنت في زيارة لأم سلمى.

وما تفعلين على بابي؟

كنت... كنت...

كنت ماذا؟

واقترب خطوة حتى شممت عطره.

آآه يا خالتي أم عتيق... لن أنسى تلك الرائحة أبداً. أسندت ظهري إلى الحائط وهو ينظر إلي بقسوة شعرت بها رمحاً ينغرس في صدري. لكني تمالكت نفسي قليلاً وقد أكسبتني رائحته بعض القوة.

أعدت إليكم بعض الأطباق؟

ظل صامتاً ينظر إليّ بغضب. نزعت نفسي بما أوتيت من قوة من سطوة عينيه، هاربة منه. كان لا بد أن أحتك به في تلك الفسحة الضيقة. لحظة الاحتكاك تلك أشعلت جسدي، وإن لم أخطئ،

فقد أشعلت جسده بالمثل. تركني أنصرف، وليتني انصرفت ولم أقل ما قلت".

"وما الذي قلته يا ابنتي؟

صمتت غرسة، ورفعت رأسها تنظر إلى السقف، ثم قالت "بشجاعة لا أعرف كيف أتتني حينها، قلت له إن سلمى لن تكون لك... فاقترب مني وصفعني. لم أتزحزح من مكاني، بل ازددت شجاعة وأنا أقول بغضب: أتمنى الموت لها، فتبقى وحدك حتى تموت كل يوم بحسرتك. وانصرفت من دون أن ألتفت إليه. فور أن دخلت بيتنا بكيت كما لم أبكِ من قبل".

صمتت غرسة وهي تجفف دمعها...

"لم أخطط لذلك... ولم أتعمّده... لم أتعمّده. لقد خسرته إلى الأبد".

"وماذا عن سلمى... هل كانت تحبه؟"

"لا أعلم. لكن لماذا لا تحبه؟ كل فتيات الحي كن يحببنه".

"وجدتك... ما كان رأيها؟".

"جدتي لم تكن تعرف شيئاً. ضعيفة وشبه عاجزة. لا يصلها سوى ما ينتهي إليها من بعضهن عن افتتاني بسلومي. وهي لم تكن تحبه على أي حال. من أجل ذلك حاولت أن تزوجني لأي رجل يطلبني. لكن ما كنت لأقبل. الأمل في داخلي لم يمت، أن سلومي سيكون لي أنا، حتى أتى عصر ذلك اليوم.

كنت أجلس في غرفتي، مشرعة نافذتي المطلة على بيتهم. فجأة، سمعت صوت نحيب قادم من هناك. اهتزّت أطرافي وخفق

قلبي. أمر عظيم قد حدث. ظننت أن سوءاً قد أصابه. لم أفكر في أحد غيره. ظل النحيب يعلو حتى سمعه كل من في الحي. مرت دقائق قبل أن تهرع بعض النسوة إلى البيت". رفعت غرسة رأسها بعينين دامعتين وواصلت حديثها بصوت خفت قوته "يا الله... هل استجيبت دعوتي؟ والله ما قصدت". مسحت دمعها وأضافت "نعم... ماتت سلمى".

"سمعت بتلك القصة يا ابنتي... سمعت بها"، قالت أم عتيق.

"حتى الآن، لا أحد يعلم ما حدث، وكيف ماتت! لم تكن تشكو أي علة أو مرض. لقد رأيتها قبل يوم وهي تخرج إلى السوق مع أمها. ما كان بها شيء. لكنها إرادة الله، والموت لا يحتاج إلى سبب. هكذا قالوا جميعهم. لكني في داخلي كنت أحس، بل موقنة، بأن للأمر علاقة بسلومي.

قال بعضهم إن هذا الشاب الوسيم الذي رباه خالد، طلب الزواج من ابنته سلمى. رفضت الأم بشدة... قالوا إن أم سلمى كانت تبرر رفضها بجهل نسبه، لكن الأب ما كان يعنيه النسب لشاب صالح مثله، رباه بنفسه وعني به. قالوا أيضاً إن الأم رأت سلمى في خلوة معه، وأنها ضربت رأسها على الحائط". اغرورقت عيناها وواصلت بعد صمت قصير سرد قصتها "لا أحد يعرف الحقيقة. رأينا بعد أيام سيارة شرطة تقف أمام بيت خالد، بعدها لم نرَ شيئاً. لم يفطن أحد إلى أن العاشق قد اختفى. لم يكن من مكان أبحث عنه فيه، وما سمعت سوى بضعة أصوات تسأل عنه. لكني تيقّنت أنه إن صحّت الرواية التي تداولها البعض حول

وفاة سلمى، فلن يعود سلومي إلى الحي، وهذا ما كان يرعبني".

"وماذا كان موقف خالد، والد سلمى؟"، سألت أم عتيق.

"لم تطله الشائعات كثيراً، فهو رجل صالح ومسالم. لكن هناك من قال إنه لم يكن ليرفض سلومي زوجاً لابنته لولا رفض زوجته. بعضهم قال إنه كان هو أيضاً يرفض الفكرة كلها".

أشعلت سيجارتها الخامسة، وأضافت "في اليوم الرابع شوهد سلومي وهو يبكي فوق قبر سلمى الذي ترينه هناك يا خالتي"، وأشارت برأسها إلى حيث يجثم بلا حراك وكأنه شاهد قبر.

"هذا هو سلومي إذاً...؟ والله ما تخيّلت ذلك!".

"حاولوا أن يبعدوه عن قبرها، لكنه كان يرفض. حتى والد سلمى فشل في إقناعه، فبات يكتفي بزيارته، وإعطائه بعض المال من وقت إلى آخر. وها قد مضى على حاله أكثر من شهر كما ترين، ولا أعلم إلى متى سيبقى". التقطت غرسة نفساً عميقاً، وكأن كلماتها الثقيلة كومة أحزان تجثم على صدرها. "حاولت أن أتصل به، لكن هاتفه بقي مغلقاً، فأرسلت مع بعضهم رسالة واثنتين بلا نتيجة. ترقبت خروجه، ولم يخرج. نقدت أحد العاملين مالاً ليخبرني عن حياته كيف تسير، وأين يأكل وكيف ينام؟ أخبرني أنه على ما يرام، ولا ينقصه شيء سوى الدعاء له بالخروج من حزنه. ذات صباح كتبت له قصاصة صغيرة قلت فيها "لو كان لي أن أختار شيئاً هذا الصباح، فأن أكون الرسالة التي تقرأها"، وطلبت من العامل أن يوصلها إليه. لم يعد العامل بردّ على رسالتي. وعندما رأيته في اليوم الثاني، أخبرني أن سلومي رفض أن يتسلّم شيئاً".

نهضت العجوز وأخذت تنظر إلى حيث سلومي "نعم... يبدو هو بالفعل!".

"من أجل هذا يا خالتي..."، طأطأت غرسة وبدت مترددة قليلاً، "من أجل هذا آثرت أن أكون هنا، في دارك التي تطل عليه. أراقبه كما كنت أفعل في دارنا من قبل. لا أريده أن يغيب عن ناظري. أتألم لألمه وألمي. هل تصدقين يا خالتي؟ ما زلت أغار منها حتى وهي تحت التراب. انظري ما يفعل العشق. هكذا أردت له أن يعشقني.

أنا أحبه، ولا أعلم ما أفعل بحبه وهو لا يزال جالساً هناك. هل هو المجنون أم أنا؟"، قالت وهي تنظر بعينين محمرّتين إلى العجوز التي تقف إلى جوارها، "تركته لها عندما كانت حيّة... فلماذا لا تتركه لي بعد أن ماتت؟".

* * *

مضى الشهر الثاني سريعاً، ورمضان في منتصفه. هدوء يعمّ المدينة في النهار، وألعاب نارية، وصرخات بائعين، وصلوات طويلة في الليل. لم يتغير من وضع سلومي شيء، ولا غرسة بالمثل، وكأنهما في سباق لا تعرف نهايته.

لا تعرف غرسة إن كان حبيبها قد فقد الإحساس بالزمن والمكان ونفسه. تمنّت لو كان كذلك، علّ الجرح يشفى، لكنها خافت إن حدث هذا بالفعل، أن يفقد إحساسه بوجودها، وينساها. هذا إن

كان لا يزال يذكرها. تتساءل وهي تراه كل يوم إن كان صائماً؟ نعم... تقول في نفسها إنه صائم عن كل شيء. وقد شاركته في الأمر، فأسعدها أن تقاسمه شيئاً وإن لم يعِ بها. كل ما يبقيه على قيد الحياة هو قطع الحلوى التي يأكلها، وكل ما يبقيها هي على قيد الحياة، أمل بأن يخرج مما هو فيه.

قبل رمضان كانت تبقى مع جدتها في الصباح والليل، وتقضي ما بين الفترتين مع أم عتيق في منزلها. لكنها في رمضان تبقى مع أم عتيق حتى منتصف الليل أحياناً. وهو وقت مبكر للمدينة في هذا الشهر. جلّ ما تفعله هو الشيء ذاته: مراقبة سلومي. كان قلّما يتحرك إلا ليريح رأسه أو ينام كما هو.

الحي المقفر الذي تعيش فيه، والغاطّ في نومه نهاراً، يغص في فوضاه وعفنه خارج ذمة أي سلطة مساء. مأساة خالد وزوجته لا تزال تحوم كسحابة ثقيلة فوق بيتهما. الشيء الذي يسجل كنوع من التغيير في الحي هو نافذة غرسة التي أُشرع نصفها بعد إغلاق طويل. أما باب الشرفة، فما زال في حداده.

من منزلها، تنظر كل يوم من الجزء المشرع لنافذتها إلى حيث كان سلومي يعيش. لن يعود هنا ثانية. كانت تسأل نفسها كل حين، أين ستأخذه خطاه؟ مراقبتها الدائمة في جزء منها إرضاء لشهوة البقاء قربه، وجزء آخر خوف من أن يختفي. فإن فعل، فلا مكان تبحث فيه عنه.

من حيث نافذتها، تسترجع كل تفصيلة صغيرة، وكل لقاء جمعها به منذ كانا طفلين. بنطاله القصير، شعره الفاحم الأجعد،

الكرة، الحلوى، و... سلمى.

... سلمى تطل من قبرها إلى عقل غرسة، وتجتمع في هذا العقل بعاشقها. حتى في الموت تغيظها. حتى الموت نفسه يعجز عن التفريق بينهما.

تنظر من النافذة وتجتر الذكريات ثانية وعاشرة، كأنها تتعمد الاصطدام بها لتكسرها، تحطمها وتطحنها ثم تنثرها على تراب سلمى. هي لا تكرهها، وإن غارت منها. لكن المشكلة بالنسبة إلى غرسة أن سلمى ماتت، ولم تمت في الوقت ذاته.

رغم الذكريات العصيّة على السحق، لم تهمل غرسة نفسها. لا تزال تتجمّل، وتعنى بثيابها وقوامها، وكل شعرة في رأسها. أحلامها تدفعها إلى التفكير بمنتهى غايتها، ومن أجله ستبقى الأجمل والأشهى، كما عرفها وكما سيعرفها عندما يعود... كانت واثقة من أنه سيعود من جنونه، لكن ما لا تعرفه هو متى؟

لو كان الحب يقاس بالكتلة والوزن، لرجحت كفة غرسة أمام قصص العاشقين كلهم.

لو كان الحب يقاس بالتاريخ، لكان حبها هو الدهر كله.

إن كان لكل علة سبب، وإن كان لكل سبب سبب، فإن الحب وحده لا سبب له. هو ينتقي من يريد لمن يريد. عندما يرتبط بسبب لن يدوم. عندما يرتبط بسبب... يموت. لن يكون له قبر. ولن يكون هناك سلومي آخر يجلس عليه. وقد لا تكون هناك غرسة تنظر إليه وتنتظر.

الشيء الذي أدركته من حبها، أن اليتم الذي عاشته ما عاد مؤلماً

تحت وطأة الحب الذي هو أكثر إيلاماً منه.

كانت الأصوات القديمة الغاضبة التي تصدر من بيت خالد، والتي لا تزال تسمع ما بقي منها في فضاء الحي، تبدو مبررة إن عرفنا أن زوجته كانت شديدة الغيرة من سلومي نفسه لاهتمام خالد المتعاظم به، لذلك كرهته. ورغم أن الزوجة كانت سيدة صالحة، إلا أن غيرة النساء على رجالهن، حتى من أصدقائهن، تتساوى بين الصالحات والخبيثات. فلا علاقة للغيرة بالأخلاق.

لا تنكر غرسة في داخلها أن سعادة بمذاق ما، كانت تغمرها كلما علمت أن زوجة خالد تغار من سلومي، ما يعني أن أي تقارب بينه وبين سلمى سيكون مستحيلاً. مع ذلك، ما كانت غرسة وأم سلمى لتكونا استثناءً أمام الغيرة. فواحدة تغار على سلومي، وأخرى تغار منه.

لا سرّ يمكن إخفاؤه في الحي. لكن... كيف عرف الحي أنه يحب سلمى ولم يعرف أن غرسة تحبه هو؟

غرسة الكتومة ما كانت لتعبّر عن مشاعرها لأحد. وهي إن كانت تجيد الإغواء، فبالقدر ذاته تجيد الكتمان. لكن أيضاً... لماذا لم يفكر أحدهم بأنها قد تحب هذا الشاب الفارع؟ لقد اكتفوا بصنع الشائعات وتداولها، لكنّ أحداً لم يفكر في أن غرسة تحب سلومي. هل الحب طبقي هو الآخر؟ هل لأنها الفتاة الفقيرة الساكنة في دار متهالكة، وهو الوسيم الذي نشأ في بيت أكثر رفاهاً يحول دون ذلك؟ لكنه ليس بيته، كما أنه مثلها يتيم.

جدتها شبه العمياء لا يعنيها اليوم سوى البحث عن عريس

لحفيدتها. وهي التي لم تعرف الحب يوماً، لا يمكن أن يخطر في بالها أن حفيدتها تحب جارهما الوسيم، وإن أخبرها أحدهم عرضاً. أم سلمى التي تزور الجدة من حين لآخر، ما كان لها هي الأخرى أن تفكر في الأمر. وليتها فعلت. فكثيراً ما تمنت لو تخبرها عن عشقها لسلومي، علّ الزوجة تقنعه بها، ليس حباً به أو بالفتاة اليتيمة، بل لصرفه عن ابنتها... وربما، صرفه عنها.

اختلفت أمور كثيرة منذ تلك الخلوة التي جمعتها بسلومي. تمنّت لو حدث شيء بينهما. لو طلب منها ما ترددت. بل كانت هي المستعدة لأن تطلب منه أن يفعل. وكم تحسّرت... أنه لم يفعل.

لا تعرف بعد تلك الحادثة إن كان سلومي قد ازداد كبراً في نظرها أم صَغُر. لكنه كان كبيراً بحيث ما كان له أن يكون أكبر من ذلك، وإلا أصبح إلهاً. وما كانت ترفض أن يكون الإله لها. المهم أن يكون معها، ولها. ستكون قد أخذت منه شيئاً ثميناً، أثمن ممّا أخذ هو منها. روحه، ونطفه، وذكرى تنقلها من عالم الفتاة الضيق إلى عالم النساء الواسع العريض. لكن ليس هنا... ليس في هذا الحي. الذكرى الأولى للمرأة ترافقها إلى الأبد، مهما كانت عبثية. بل لا بد من أن تكون عبثية كي تبقى إلى الأبد.

للعشق أنين مكتوم. لم يسمع به أي من ساكني الحي. ولو كان الأنين يدرك بالإحساس لا السمع، فإن الحي الذي تسكنه لا يحس ولا يسمع.

جميل أن تبوح المرأة بحبها ولو لمرآتها. لكن غرسة لم تفعل.

لأنها أرادت أن تخبّئ كل كلمات العشق من أجله عندما تختلي به. وعندما حدث الاختلاء، لم تتحدث عن حبها، فقد أرادت أن تمارسه. ولأنها لم تفعل هذا أو ذاك، أصبح أنينها أكثر صخباً. وإن بقي لها شيء، فليس أكثر من مراقبة سلومي في مقامه حيث هو اليوم، أملاً بأن يكون لها.

أن يكون بعيداً وتراه، أفضل من أن يكون قريباً ولا تراه. لذلك هي تراقبه. وليتها كانت تسكن كل يومها في بيت أم عتيق. بل تمنت لو كانت تسكن معه فوق القبر ذاته، هي فوق الأرض، والأخرى تحتها.

كان رمضان في ليلته الأخيرة. ولما كان منزل غرسة غير بعيد عن الوسط التجاري القديم للمدينة، فقد كانت زحمة الأصوات تضج في رأسها والبيت. مساء ذلك اليوم، شرعت نصف نافذة حجرتها، ثم خضبت شعر جدتها بحناء اشترته لها. بعد أن فرغت، وقفت أمام مرآتها وفكّت ضفيرة طويلة عقدتها منذ يومين، وفكرت بالعيد، كيف سيكون؟ حاولت أن تكسر الحزن الساكن في بيتها وقلبها، فأشعلت البخور، وأدارت الموسيقى رغم اعتراض الجدة. صرخت بها معاتبة أن للعيد حرمته. "ألم تصلي كفايتك خلال رمضان؟ إنه وقت الفرح والعيد يا جدتي. هيا... افرحي"، قالت وهي تمسك بيد جدتها ترفعها في الهواء، فيما الجدة تبتسم حيناً، وتقطّب جبينها حيناً آخر. مسرحية غير متقنة تهرب من خلالها إلى عالم أكثر بهجة ولو لليلة واحدة.

بعد رقص متصنّع خال من الحياة، توقفت وأخذت تنظر إلى

الأشياء من حولها، وقد فقدت حتى الأشياء لون العيد. أخذت حقيبتها وقالت "أراك لاحقاً يا جدتي...". طبعت قبلة وغادرت، وكأنها في حالة فرار.

لم يكن ما فعلته غرسة من إظهار الفرح سوى نفحة عطر صغيرة، تحاول أن تزيل بها عطن حزن طال بقاؤه. عندما نزلت إلى الأسفل، كانت العتمة قد بدأت تنتشر، ما شجّعها على الخروج شبه حاسرة الرأس، رغم الأرجل الكثيرة التي تدبّ في الحي في تلك الساعة.

سارت في الأزقة الضيقة وهي تسمع صرخاتها مع أطفال الحي في ليالي العيد. كان تنادي على أحمد وسعيد وليلى وسلمى... وسلومي. كلهم كانوا معاً، وها قد عادوا تلك اللحظة. ولولا أعين فضولية، لتوقفت، ولعبت بالتراب القذر الذي يكسو الشارع كما كانت تفعل.

واصلت سيرها، حتى انتهى بها الطريق إلى الشارع الكبير الذي يطل من أحد جوانبه على المقبرة. في البعيد، من الناحية الأخرى، تنتشر مجموعة مطاعم وبضعة متاجر خلف المبنى المهيب لوزارة الخارجية بلونه الأبيض، عكس كل ما يحيط به. ما كان لها شيء تفعله هناك، إلا إن أرادت أن ترى خالد الذي ربّى سلومي، والذي يقع متجره في تلك الجهة المقابلة. ثم تنبّهت إلى أنها، فوق ذلك، حاسرة الرأس تقريباً. عادت واقتربت من حائط المقبرة، ثم اتخذت مساراً من الجهة الأقرب إلى حيث يجلس سلومي. نظرت إلى ضوء عمود يسقط في جزء منه داخل السور،

وجزء منه عليها. تمنت لو كانت هي الضوء. ثم فكرت لو أنها تسلقت العمود، فهل لها أن ترى ما يفعل العاشق عن قرب أكثر؟!

مضت حتى الباب الرئيسي للمقبرة. توقفت أمامه وقد كان مواربًا. تنحّت قليلاً إلى زاوية معتمة. ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء. لا تعرف لمَ شعرت بأن سلومي قد يغادر للصلاة. فقد كان يفعل قبل الحادثة. كان يصلي كل فروضه في المسجد. لكنه هنا ما عاد يصلي حتى جالساً مكانه. "لقد جعلته فجيعة سلمى هشاً".

بقيت متسمّرة مكانها تنتظر خروجه وكأنها تخاطبه من بعيد أن "كفاك نحيباً وانهض".

مع أنها بدأت مساءها متحدية سيطرة الحزن على ليلة العيد كما أرادت، إلا أنها وجدت نفسها تغرس شوكة ألم في خاصرتها، بوقفتها هنا. مع هذا بقيت نصف ساعة كاملة، في ناحية معتمة لا يراها أحد، تراقب الباب الأخضر الكبير. لم يظهر منه سوى بعض العاملين، يروحون ويجيئون، وكأن المقبرة عمارة مليئة بالسكان.

دخلت إلى دكان قريب واشترت بعض الحلوى، تشبه ما كان يشتريه سلومي لها ولسلمى. عادت تقف في الزاوية المعتمة والحلوى في قبضتها. ثم توجهت إلى حيث وقفت أسفل عمود النور، وألقت بما في يدها إلى داخل المقبرة، تماماً حيث يجلس، وانصرفت إلى السوق.

من مال صغير ادّخرته، اشترت عباءة لجدتها وأخرى لأم عتيق، وفستاناً لم تلبسه قط، وثوباً رجالياً ناصع البياض بتطريز على الرقبة

والصدر. كان هذا من أجل سلومي. قالت في سرّها وهي تشتريه "ليكن هدية لقيانا إن حدث اللقاء".

تحبه، تكرهه، تعشقه وتبغضه، تريد أن تحيا معه وأن يموت. مشاعر متطايرة كشظايا تثقب رأسها وهي تفكر فيه جاثماً على القبر. بدا لها وهي تراقبه من نافذة أم عتيق تلك الليلة، بعد عودتها من السوق، أن جسده القوي يتصدع؛ فبنيته التي كانت شبه ممتلئة، هزلت كثيراً. لقد ضمر. فكرت في أنه يحاول أن يموت هو الآخر، وأن ما يفعله ببقائه الطويل هناك، إن هو إلا أيام احتضاره. وفي سرّها رددت "لن يناسبه الثوب الجديد حتى ككفن له".

ليلة العيد، الثوب ينتظر والفستان الجديد ينتظر، وهي واقفة لا تعرف ما تفعل. فكرت في أن تعطي الثوب لأحد العاملين في المقبرة ليوصله إليه، لكنها خافت إن رفضه أن يقطع كل أمل لها. ثم فكرت في أن تتصل بالشخص الوحيد الذي يزوره بين حين وآخر ليعطيه المال... خالد. لكن كيف تتواصل معه وهو الذي نادراً ما حادثته؟

"ليكن ما يكون"، قالت وقررت أن تزوره في متجره. لم يكن قد بقي على انتصاف الليل أكثر من نصف ساعة. مدة كافية لتصل إلى المتجر غير البعيد عن الحي، في الشارع الرئيسي مباشرة، بجوار المطاعم المتراصّة في الجهة المقابلة من المقبرة. كان قلبها يخفق كلما تقدمت خطوة تجاه المتجر. لكنها لم تتردد، فما من شيء تخسره. سؤال واحد كان يخطر لها: "ماذا ستقول للرجل؟".

للمتجر واجهة زجاجية لم تغسل منذ زمن. دلفت إلى الداخل. عندما وقفت أمامه أنكر تلك الملفعة بالسواد قائمة على رأسه. قبل أن يسألها من تكون، عرّفته بنفسها بصوت متكسّر.

كانت مسحة حزن عميق تكسو وجهه. تراءى لها أن الرجل قد كبر عشرين عاماً على آخر مرة رأته فيها.

رحّب بها بمودّة بالغة. وطلب أن يحضروا لها كرسياً، وكأس ماء. بعد أن هدأ بعض ارتباكها سألته عن سلّومي.

"إنها إرادة الله أن أخسر ابنتي وابني في وقت واحد"، قال في حزن.

"أراه من مكان بعيد جالساً على القبر لا يبرحه. لقد هزل وأخشى أن يموت". قالت وقد استرجعت ثقتها "أنت وحدك من يستطيع أن يقنعه بالخروج".

"حاولت... لكنه يأبى الخروج. حتى الطعام قد أنفه. بعض الحلوى هي كل ما يبقه حياً".

"وهل ستتركه هكذا... وإلى متى؟".

"لا أعلم إلى متى..."، قال الرجل وهو يقطّب جبينه في انكسار، ثم أضاف "لن تتوقف محاولتي يا ابنتي، فما يفعله لا يجوز. إنه يعذب نفسه، ويعذبها ويعذبنا كلنا".

"هل تعتقد أنه سيخرج مما هو فيه قريباً... فأنت أدرى الناس به؟".

"واثق بأنه سيفعل. فهو شاب قوي مؤمن، ولن يترك نفسه للشيطان. الحزن هو المنتصر في داخله الآن. لكن الواقع في

النهاية هو من سينتصر".

"مضت عدة أشهر أيها العم خالد، وأخشى إن انتظرت أكثر أن يفوت الأوان. فإما يفقد روحه، أو يفقد عقله".

"لا أملك اليوم سوى الدعاء بأن يثوب إلى عقله ويعود إلى منزله". صمت الرجل قليلاً، ثم سألها "لكن، من أين ترينه يا غرسة؟".

ارتبكت قليلاً "من بيت قريبة لي تسكن بجوار المقبرة".

دنا منها وقال برفق "أنت جارة لنا، وقد كنت تلعبين معه طفلة، وربما استطعت إقناعه".

"كيف لي أن أدخل المقبرة؟ كما أنه يرفض رؤية أحد. من أجل هذا قصدتك".

ردّ خالد بابتسامة رقيقة وبصوت خفيض لا يسمعه من في المتجر "الحب الذي ساق سلومي إلى حيث يجلس الآن، هو وحده القادر على إخراجه من هناك".

ابتسمت وهي تنظر إلى عيني الرجل الممتلئ حناناً. كان يعرف إذاً بقصة حبّها. للحظة، خطر لغرسة أن تسأله عن سبب وفاة سلمى، لكنها أحجمت عن سؤال غبيّ كهذا، فليس مهماً ما حدث، بل ما سوف يحدث.

أدركت وهي تغادر المتجر مع ارتفاع أذان العشاء أن أحداً على الأرض لن يستطيع إقناع سلومي بمغادرة مكانه إلا بمعجزة، أو بحب، أو أن يموت مكانه. لم تعطِ الثوب لخالد. أربكتها محادثتها السريعة معه. ولعلها آثرت أن تحتفظ بالثوب لتقدمه

لسلومي بنفسها. بدت أكثر يقيناً، لسبب ما، أن ذلك سيحدث قريباً.

عادت تسلك طريقها إلى بيت أم عتيق. لكنها استدارت حول المقبرة من شمالها، ثم غرباً إلى ميدان البيعة، ومنه انعطفت باتجاه المنطقة التاريخية في المدينة القديمة. بدت كمن تقوم بطواف مقدس من أجل الحبيب الساكن في الداخل. سارت بثبات العارف إلى وجهة لا مقصد فيها. شيء يحركها للسير إلى القلب العتيق للمدينة غير البعيد عن المقبرة. تجاوزت الباب الحجري الذي بني مكان البوابة العتيقة المطل على ميدان البيعة. ومن هناك مضت باتجاه الأزقة الداخلية التي تحفظها عن ظهر قلب. فهي نفس الطريق التي اعتادت أن تسير فيها يوم كانت تبيع في السوق. على الجانبين بيوت من الطين والقش يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من خمسة أدوار. أحدثها هنا تتخطى مئة عام، وبعضها يتجاوز أربعمئة عام. أنهك الزمن أكثرها فاتكأ بعضها على بعض، حتى بدت كراقصة أمالت جسدها في دلال، وتوقف الزمن.

المشربيات الخشبية أكثر الصامدين رغم تكسر أغلبها. كانت ستر النساء. يجلسن خلفها يراقبن الشارع من دون أن يراهن الرجال. تخال المشربيات بقايا جسد شاهد على قصص الحب التي عاشت خلفها، أو ماتت.أزقة المدينة بالكاد تتسع لرجلين في بعض انحناءاتها. لا تعرف إن بنيت هكذا، أم هي البيوت يقترب بعضها من بعض كل يوم. المشربيات في الأعلى

تتقابل على مستوى كل بيت. لا يفصلها سوى تلك الأزقة. تبدو من بعيد كشفتي عاشقين ينشدان الالتحام رغم أنف كل عابر تحتهما.

تبدو الحوائط كأنها تهمس. حتى الخشب المبنية منه أسقف المنازل، ومشربياتها، تسمع صوتاً له إن أصخت. سيخبرك ألف قصة عن أثرياء المدينة الذين سكنوا هنا ذات يوم، قبل أن ينتقلوا إلى الأحياء الجديدة، تاركين وراءهم ذكريات البدايات الصعبة، وعمالة هي خليط من الهندية والبنغالية والأفريقية، سكنت مكانهم.

هذه المنطقة التاريخية، كما يطلق عليها، هي تاريخ بالفعل. لكن يصعب القول إنها منطقة ذات حدود معلومة. فقد تداخل وسطها وامتداد بعض أزقتها مع الأبنية الحديثة. فعلى زقاق ضيق تصطف عليه عشرات البيوت العتيقة، يفاجئك مبنى حديث تزيد من قبحه ألواح الزجاج البراقة على واجهته. هذا التداخل بين القديم والحديث يشبه الأصابع المتشابكة. بعضها قذر متسخ، وبعضها نظيف وناصع.

واصلت غرسة سيرها مخترقة الأزقة حتى أدركت "بيت نصيف" على امتداد شارع "قابل" التجاري القديم. تتراءى لها الدار دوماً كرجل محنط. يحتفظ بكل أبهة الماضي، لكن بلا روح، بعدما طالته يد التجاهل والكسل، حتى عن تنظيف القمامة التي تتناوب عليها فئران بحجم القطط.

للأماكن العتيقة مهابة تليق بها، وهي هنا مدنسة بالإهمال.

مياه صرف آسنة تختلط بالقاذورات، وحجارة على الأرض كأن أحدهم تعمّد وضعها ليذكّر كل عابر بأنه في جدة. كل بيت قديم، هو جزء من ذاكرة المدينة. وكل حجر ما زال يحمل رائحة عرق من حمله إلى مكانه. لكن لو كان الأمر بأيدي الحجارة، لرشقت العابرين بفيض منها. فقد تحولت كرامة التاريخ في هذا القلب العتيق للمدينة إلى مقلب زبالة، ومحطة تبول فيها الكلاب والبشر.

صمدت المدينة أمام غزو الأسمنت، قدر ما استطاعت على الأقل. كان يمكن للمدينة القديمة أن تندثر أمام الزحف الأسمنتي، لولا أن شفعت لها بعض ذكرياتها، وفسحة من الزمن، وقليل من العقلاء.

وفي محاولة هشة لإنقاذ كرامة المكان، فقد شهدت المنطقة بعض أعمال الترميم. فتزيّنت وأضيئت بعض طرقاتها، ورصفت بعض شوارعها بالحجارة، إرضاءً لليونسكو كي تسجل كإرث إنساني. لكن هل تستطيع اليونسكو أن تضيء عقول الساكنين هنا التي لا تعرف سوى العبث؟

كان الوقت متأخراً عندما أحسّت غرسة وهي تسير وسط المدينة العتيقة بأن أحداً يتبعها. تخيّل لها أن أحدهم يتحرش بها. نظرت خلفها فما وجدت غير أناس منصرفين كلّ إلى غايته. عادت تسير من جديد من دون أن يفارقها الإحساس. مضت حتى وصلت إلى ساحة كبيرة تشرف على المدينة القديمة من أقصى جنوبها الشرقي. كانت مدرسة الفلاح أمامها. تجاوزتها، ودلفت باتجاه السوق الضاج بالحركة ليلة العيد. أبطأت وهي تنظر إلى

امرأة بقامة ثابتة تتجاوزها وهي تمسك بيد طفل صغير جميل المظهر رغم إهمال نظافته. في سحنته سمرة جميلة، وشعره طويل أشقر، وعيناه زرقاوان كالبحر. ابتسم لها فيما المرأة تمضي به. لحقت به بضع خطوات قبل أن يختفيا في زحمة السوق. كانت نظرته إليها غريبة غامضة. لا تذكر أنها قد رأته من قبل، ولا هو من ساكني الحي أيضاً.

أكملت جولتها حتى انتصف الليل، فسلكت طريقها عائدة إلى أم عتيق ثانية، تطمئن عليها قبل أن تعود إلى جدتها. اتخذت المسار ذاته الذي أتت منه، متجاوزة البيوت العتيقة المائلة على إيقاع رقصة جمّدها الزمن. قبل أن تصل إلى حديقة صغيرة، سمعت ضحكة طفل من الجهة اليمنى. نظرت فوجدت الطفل الصغير الذي رأته مع السيدة يقف أمام باب أحد البيوت القديمة. كان ينظر إليها مبتسماً. سارت إليه حتى وقفت أمامه. بقي ينظر إليها وكأنه يعرفها. قبل أن تتقدم خطوة أخرى، ركض إلى زقاق جانبي واختفى بين صبية آخرين لم يلبثوا أن تراكضوا كلهم نحو زقاق بعيد. حاولت أن تتبعهم، لكنهم كانوا أسرع منها.

تساءلت في سرّها من يكون، ثم خطر لها أن ما رأته وهم.

من تراه بدأ يتصدع؟ هي، الممشوقة القوية، أم سلومي الواهن روحاً وجسداً؟

في بيت أم عتيق أخبرتها العجوز بما تطلّب من غرسة وقتاً لتستوعبه.

قالت "نظرت إلى حيث تنظرين، فلم يكن مكانه"!

غير مصدقة ما تسمع، سألت غرسة وهي تمسك بساعد أم عتيق "وأين كان؟".

"لست واثقة يا ابنتي، لكن أعتقد أني رأيته يقف عند الباب الكبير للمقبرة، وإن لم يخنّي نظري فقد كان يحادث طفلاً!".

أغسطس/آب

انضم ضيف جديد إلى سلومي. قط صغير في عينه إصابة من عراك قططي غير عادل. ظل يموء طوال أيام قبل أن يراه. كيف للقط أن يعرف بأن من يستجديه يحتاج هو نفسه إلى من ينجده؟

اشتمّ القط قطعة حلوى ملقاة بجواره، لعقها مرتين، ثم أنف منها وغادر.

ثلاثة أشهر قد مضت، ولم تفتر عزيمة سلومي من جلسته تلك. بدت المشكلة أعظم من هذا النحيب الصامت. ذلك أن أحداً، ولا سلومي نفسه، يعرف ما يريد الوصول إليه تحت الشمس اللاهبة والذباب الذي كاد يأكل وجهه. في بعض لحظات يأسه تمنى من الله أن يموت ويدفن بجوار حبيبته أو معها.

العاملون في المقبرة باتوا ينظرون إليه كشاهد قبر لا بد من وجوده. وما عاد يعنيهم بقاؤه جالساً هناك سوى ما يدفعه لهم من حين لآخر. وإن كان من شيء يهتمون به، فهو زيارة الرجل الوحيد الذي يأتيه، إذ يعلمون أن المال قد حضر.

في شهر أغسطس، يغتسل كل إنسان بعرقه. تصل درجة الحرار إلى أكثر من ٤٥ درجة مئوية في الظل، فكيف بها في الشمس؟ لو كان سلومي بيضة، لسلق. لو كان قطعة لحم مكشوفة، لتقدّد.

السماء صافية في النهار والليل. النوافذ على المقبرة مغلقة، إذ من يجرؤ على استضافة اللهيب في بيته؟ أم عتيق وحدها تفعل، كرمى لغرسة التي أبقت نصف النافذة مشرعة تجاهه. في المساء، تكتسي أسطح الأشياء برطوبة قوية، وكأن ماءً قد صبّ عليها، بما في ذلك سلومي نفسه. إرادته في البقاء تحدّت إرادة شمس أغسطس. كان عمله انتحاراً بطيئاً.

أم عتيق تقسم أنه إن لم يصب هذا الرجل بضربة شمس بسبب بقائه الطويل تحت القائظة، فمعنى هذا أنه قد أصبح ميتاً. غرسة تؤكد من ناحيتها أن الحب في داخله أقوى من الموت نفسه. مع هذا فكرت في أن تشتري له مظلة تقيه لهيب الشمس، لكن كحال كل شيء تمنّت أن تهبه إياه، كيف لها أن توصله؟

عامل في المقبرة، في مشيته عرج خفيف، كان هو وحده من يقترب من سلومي بين حين وآخر. يترك بجواره بعض الماء، أو يعطيه الحلوى التي يشتريها كلما طلب. لم يغادر سؤال عقل غرسة طوال الأيام الماضية: من كان الطفل الذي قالت أم عتيق إنها رأته يحادثه؟ وهل هو نفسه الذي رأته في السوق؟ وما علاقته بسلومي؟ وهل من سرّ في حياته لا تعرفه؟ لكن أي سرّ أمام الموت الذي هو فيه؟

ذات يوم، رأت أحدهم وقد أحضر ما يبدو أنه قدر طعام. كان يحادثه من دون أن يعيره سلومي اهتماماً. ترك القدر بجواره وانصرف. كان ذلك أحد ساكني البيوت التي تطل على المقبرة. هل اكتشفوه للتوّ فقط، أم رثوا لحاله تحت اللهيب؟ لم تكن وحدها إذاً من تراقبه.

في اليوم التالي، عاد الرجل ذاته، ووضع غطاءً فوق سلومي. لم يتحرك ولم يبدِ أيّ ردّ فعل. تمنت لو كانت هي من وضع الغطاء عليه. لكنه ألقاه بعيداً عنه، فأعاده الرجل عليه، ورفع غطاء قدر أمس فوجده لم يمس. أخذه وقفل عائداً. في المساء، اقترب منه عامل المقبرة، لملم بعض بقايا الحلوى، ثم جلس بقرب سلومي ووضع يده فوق كتفه، وحادثه. رأت اهتزازة رأس خفيفة من رأسه قبل أن يرحل الرجل.

مع المغيب نهض من مكانه فقفز قلبها. ألقى بالغطاء عنه، وشرع يصلي واقفاً على القبر. بدت لحيته بطول أصابعه. ورغم سنه الصغيرة، إلا أن بعض الخصلات البيضاء بدت واضحة فيها، حتى من هذا البعد. كان قد هزل كثيراً. ما عاد هو سلومي، القوي البنية، الوسيم، المتأنق، الذي كانت رائحة عطره تسبقه وتتبعه.

الآن، هو صامت فوق القبر. ضعيف عاجز، لا يكاد يشبه الإنسان إلا في حزنه. طوال الأيام الماضية، والأشهر، أثبتت غرسة أنها أكثر صلابة منه. فلم تكفّ عن مراقبته، ولا غادرها أمل بأنه سيعود كما كان.

تسكن بهجة عابرة فؤادها كلما فكرت بقرب عودته، لكنها لا تلبث أن تسأل نفسها، أين ستكون منه عندما يعود؟ تتأمله لساعات، لا تفكر سوى بمتى يخرج وماذا سيحدث؟ تتناوب الفكرتان على رأسها وكأنهما شمعة تخبو وتضيء.

"هل عرفت شيئاً عن الطفل؟".

"لا".

"ألا يوجد له أصدقاء يسألون عنه؟"، سألتها أم عتيق ذات مرة.

التفتت إليها غرسة وقد أسندت يديها إلى حافة النافذة وراء ظهرها، "من أين سيكون له أصدقاء وحياته كانت إما في المتجر أو هائماً في سلمى؟ أصدقاء الطفولة كانوا يغارون منها لأنه يبدّيها عنهم، وكم نبذوه لهذا السبب. لكنهم بقوا أصدقاء حتى كبروا، وانصرف كل في طريق. فأي مستقبل ينتظر الإنسان في حي كهذا... حتى سلومي يا خالتي أم عتيق... ما ظننت أن يبقى في الحي إلى الأبد، لولا سلمى".

إن كان لسلومي أصدقاء مضوا في سبيلهم، فما كان لغرسة من صداقة الفتيات نصيب، خاصة فتيات الحي. فإن كرهتها الأمهات، فما حال بناتهن؟

لكنّ سؤال أم عتيق في مكانه: أين هم أصدقاؤه، ولو كانوا واحداً؟ ألم يسمع بمأساته أحد فيواسيه؟

لقد كان آخر عهده بهم في اليوم الثالث من عزاء سلمى. في اليومين الأولين لم يظهر. في اليوم الثالث لم يكن أحد ليعرف أين على سلومي أن يقف، في صف المعزين، أم في صف أهل سلمى الذين يتلقون العزاء؟ وفيما خالد كان يقف كمنارة يراها الجميع، بدا سلومي كفحمة خامدة.

تلك الدقائق التي ظهر فيها لم يكن في صف أحد. وقف يتأمل الحضور بثوبه الأبيض. لم يكن يبكي، ولم يتحدث. والغريب، أن أحداً من الحضور، وهم معظمهم أهل الحي ذاته، لم يقترب منه أو يسلم عليه. وكأن لعنة تعلن عن نفسها فوق رأسه. اختفى

بعد ذلك حتى ظهر في المقبرة. سمعت غرسة أن معظم أهل الحي قد حاولوا التسلل إلى داخل المقبرة ليروه جاثماً فوق قبر سلمى. لكنّ أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه، وهي على أي حال رواية غير موثّقة.

كانت سعيدة ببقاء سلومي بعيداً عن الحي. فماذا يمكن أن تتوقع من أبناء "الساقطات"، كما كان يحلو لها أن تصفهن. أضف إلى ذلك أن وحدته هناك قد تدفعه، بمعجزة ما، تجاهها. وهي التي لا تؤمن بالمعجزات، باتت اليوم تنتظر معجزة كهذه.

لم تكن الأيام كلها تأملاً وصمتاً في دار أم عتيق. ولم تخلُ الأحاديث من سلومي بأي حال. وهي في المجمل تثير من الأسئلة أكثر مما تقدم من أجوبة. وهي في المجمل أيضاً، بأسئلتها وأجوبتها، لا تحرك سلومي من مكانه.

في ساعات تأملها الطويل، تمنّت ألف مرة لو كانت رجلاً لتدخل إليه.

"لماذا لا يسمح للنساء بدخول المقابر، أم أن الموتى لا يستقبلون سوى الرجال فقط؟"، سألت غرسة رفيقتها أم عتيق التي أجابتها "حتى لا يبكين الميت فيتعذب في قبره... هكذا يقولون".

"لو صدق ذلك، فإن سلومي يذيق سلمى الآن ألواناً من العذاب".

تنهّدت أم عتيق ولم تعلق.

"حتى في الموت، نحن أقل درجة. انظري إليه يا خالتي،

والله إني أقوى منه ومن كل الرجال مثله". صمتت الفتاة قليلاً ثم ردّدت في صوت غمره القنوط "فيمَ تفكر أيها الجالس هناك؟ فيمَ تفكر...؟".

في طريقها مساءً إلى منزلها، وقفت أمام باب المقبرة الأخضر. رأت حافلة تقل عدداً من الزائرين الذين رفض عمال المقبرة السماح لهم بالدخول. قالوا إن الوقت مساء وعليهم أن يعودوا في الصباح إن أرادوا زيارة "أمنا حواء" التي لا يعرف أحد أي قبر هو لها، هذا إن كانت هنا بالفعل. فكرت غرسة لو تنكرت كأحد الزائرين، علّها تستطيع الدخول معهم في الصباح. لكنها تساءلت إن هي فعلت، فهل تستطيع الاقتراب منه ومحادثته؟

* * *

"ألا يهزّ الله مملكته...؟ ألا يهزّها...؟".

قالت غرسة في حنق وهي تنظر من نافذة أم عتيق إليه صبيحة أحد الأيام.

"ماذا ينتظر...؟ أن يأكله الذباب؟".

"سيحدث أمر ما..."، قالت أم عتيق، "لن يبقى هناك إلى الأبد. أنا أعرف الرجال جيداً. هم لا ينتظرون الأحياء فما بال الموتى؟".

"ثلاثة أشهر... بل أكثر، وهو لا يغادر المكان. لقد أصبح هكيلاً جافاً".

"للأحزان آجال قصيرة"، أجابتها العجوز.

"لكن حزنه بات طويلاً".

"هو لا يساعد نفسه على شيء. بقاؤه هناك سيذكّره بها كل لحظة. لو ابتعد، فسينسى، ولكن...".

"لكن ماذا يا خالتي؟".

"سينساك أنت أيضاً".

قالت غرسة وهي تعضّ شفتيها "أفكر أحياناً لو كانت ستنهض من سباتها، ماذا ستقول له؟ هل تراها كانت تفعل الشيء نفسه لو مات هو؟".

"لا تظهر النساء أحزانهن كما يفعل الرجال. كذلك فإن إرادة الرجال عليهن تجبرهن على النسيان. فهل تعتقدين أن أهلها كانوا سيرضون لها حزناً أبدياً عليه أو على غيره؟".

"أفكر أحياناً أن أقتحم المقبرة و... وأطعنه في صدره".

"تحلّي بالصبر. وإن شئت النصيحة مني، فأغلقي النافذة وتوقفي عن مراقبته. سيكون في ذلك علاجك. أما هو فاتركيه للشمس، علّها تخرجه من عتهه أو تقتله".

"أتركه...؟ وما الذي سيبقى لي؟".

"سيبقى لك حب عظيم يجب أن تمنحيه لمن يستحق، لا لهذا الأخرق. لقد اختار هو طريقه، فاختاري طريقك. لماذا تربطين قدرك به؟ يوماً ما سيتوقف هذا الحب".

"إن توقف حبه لها، فحبّي لن يتوقف. أريد أن أخبره بذلك يا جدتي. أريد أن أشتم رائحة عطره. أريده وأحبه"، وأجهشت في

البكاء. "لقد ماتت... ماتت"، أضافت غرسة بصوت مخنوق.

"لست واثقة إن كان الأمر هو حباً حقيقياً يكنّه لسلمى، أم هي الوحدة التي خلّفها ضياع الحب"، تنهّدت أم عتيق واسترسلت كأنها تدفع بغرسة بعيداً عن آلامها، "والأمر ذاته قد يسري عليك يا ابنتي".

نظرت غرسة بعينين جحظتا من البكاء وقالت بنبرة معاتبة "لماذا تقولين هذا يا خالتي؟ هذا هو سلومي كما ترين، هل رأيت عاشقاً مثله؟ هل جرّبت العشق يا خالتي؟ هل جرّبته بالله عليك لتقولي ذلك؟".

"نعم... جرّبته"، أجابتها أم عتيق "وقد خبرت كيف هم الرجال يحبون، ومتى يجفّ الحب في عروقهم".

أدارت غرسة ظهرها، وعادت تنظر من النافذة وهي تمسح بقايا دمعها، والعجوز من ورائها تكمل حديثها "لقد أحببت رجلاً أكثر مما تحبين أنت سلومي. كان رجلاً شديد الأنفة. تزوجته وأنا فتاة صغيرة. عشت سنواتي الأولى والسعادة تملأ بيتي. أنجبنا ابناً واحداً هو عتيق. تزوج من إحدى قريباتنا وانتقل ليعيش في الرياض. هو يعمل الآن أستاذاً في مدرسة متوسطة. لا شيء يضاهي محبة الابن. لكنّ فراق الزوج مؤلم هو الآخر. إنه يترك فراغاً كبيراً في داخلك، رغم كل ما فعله بي. لست أعلم، إن كان ما عشته من فراغ بعد موت أبي عتيق سببه اعتيادي عليه، أم لأني ما عرفت أحداً من الرجال سواه؟". تنهدت ومضت تقول وقد جذبت انتباه غرسة إلى قصتها "كان رجلاً يُحب بحق. لكن يبدو أن الملل

غزا قلبه، أو لعله الولع بالإثارة التي يحتاج إليها الرجل من حين إلى حين. ذات صباح اعترف لي بذلك. لم أصدق أول الأمر. ولم ألحظ في تصرفاته ما يشي بذلك. قال لي وكأنه يخاطب حائطاً"، تصنّعت أم عتيق صوتاً خشناً "سأذهب إلى امرأة أخرى كنت أحبها. أردت الزواج بها قبلك، لكن والدها رفضني. لم أحب امرأة مثلها، وقد أخبرني أحدهم أنها مريضة ووحيدة اليوم. سأبقى بقربها، وإن استطعت الزواج بها فسأفعل. يا الله، كم هم الرجال مخلصون في خياناتهم. تخيّلي رجلاً يقول ذلك لزوجته التي عاشت معه مرّ الأيام وأنجبت له ابناً جميلاً، من دون أن يطرف له جفن. ثم، وبكل بشاعة الدنيا، قال معتقداً أن في ذلك عزاءً لي: إن لم أوفّق فسأعود. كان يعلم أن لا مكان لي سواه. إن لم أوّفق فسأعود، وكأني مجرد مقعد في حياته. يلقي بجسده وهمومه عليه ثم يرحل. هه... يذهب إلى أخرى...! تصوري قسوته. لا أعلم لمَ تحوّل هكذا. لكنه الحب يا غرسة. ولولا الخوف من الله، لقلت إنه إله يميت ويحيي".

"وماذا فعلت يا خالتي...؟".

"طعنتني كلماته، وتركت ندبة على قلبي يمكن أن أتحسسها حتى اللحظة. قدّرت بعد حين صراحته. لكن... أما كان له أن يكون أكثر لطفاً؟ ليته كذب. نعم... ليته كذب، وتركني أدّعي اكتشاف كذبه أو أغمض عيني حفاظاً على ما بقي لي من كرامة. أخيراً، تزوج بها. طلبت أن يطلقني فرفض. كان يقضي معي وقتاً، ووقته الأكثر لها. لماذا كان يأتي إليّ...؟ لا أعلم. أحياناً يكون

الرجال كالأطفال، لا تفسير لتصرفاتهم. أخبرني، وكأنه يحادث صديقاً له، أنه بحث عنها فوجدها تنتظره كما لو كانت تعلم أنه عائد إليها. بعد ذلك اختفى عامين متصلين لم أسمع منه شيئاً. كل ما يصلني منه بعض المال كي أدبّر أمر معيشتي مع ابني الذي كان حينها في عامه السابع. ذات صباح استيقظت على صوته يقرع الباب. بدا معتلّاً. عندما دخل احتضن ابنه وبدأ يبكي. أخبرني أنه قد جاء لوداعي. وليته ما فعل. اعتقدت أنه مات في قلبي. لكنني وقد رأيته أمامي، معتلّاً، يحضن ابنه، لم أملك سوى أن أمزق كفن حبه في قلبي،علّه يعود إلينا. فسألته، لماذا تودعني؟ لم يجبني، وبقي يحضن ابنه. أدركت بالفعل أنها لحظة وداع. ثم أخرج مالاً كثيراً من جيبه. وضعه في يدي ورحل. لم أره بعدها أبداً".

"هل مات؟".

"لا أعلم... لكن أقول الصدق يا ابنتي، إني شعرت بفراغ عظيم. انتظرت أن يعود. لم أفقد الأمل بعودته، فبحثت عنه واستقصيت لدى بعض أصدقائه. قال لي أحدهم إنه سافر إلى مكان بعيد. كان البحث عنه مضيعة وقت. أخيراً، وقف على بابي أحد أقربائه. وضع في يدي كمية مال أكثر مما ترك زوجي آخر مرة. قال لي: هذا مال أبي عتيق، أقرضني إياه منذ وقت، وها أنا أعيده. زاد الأمر غموضاً. فهل لا يزال أبو عتيق على قيد الحياة؟ سألته فقال إنه لا يعلم أين يكون. هل لا يزال مسافراً، أم هو ميت؟ لست أعلم. تمنيت لو لم يزرني ذاك الصباح ليودعني كما قال. تمنيت لو لم أسأل عنه بعض أصدقائه. تمنيت لو لم يحضر قريبه

المال. كان كل ذلك يعذبني ويجعلني أسال نفسي كل يوم هل هو على قيد الحياة، وأين؟ هل هو معها، أم مع غيرها؟ كنت أقف على النافذة التي تقفين عليها أنت، وأتأمل المقبرة وأتساءل هل تراه يكون هناك؟".

"وماذا أخبرت عتيق عندما كان يسأل عن والده؟".

"لم أقل له حينها سوى إن أباه مسافر في مكان بعيد، وهو يعمل من أجله. عندما أصبح عتيق شاباً أخبرته بكل ما أخبرتك به الآن. هو لا يذكر شيئاً، فقد كان لا يزال طفلاً عندما رأى والده آخر مرة. وكل ما بقي منه الآن هو صورة قديمة". وفتحت العجوز صندوقاً بجوارها وأخرجت ربطة بها بضع أوراق وصور قديمة، وقدمت واحدة إلى غرسة "هذه صورته".

تأملت الصورة. كانت مهترئة تآكل بعض أطرافها. رجل خشن الملامح، شديد السمرة، له شارب ضخم خطّه البياض، يرتفع طرفاه كقرني ثور... إنه ثور بالفعل في صورة رجل. عينان جاحظتان مليئتان ثقة وقوة، وكأن دوي مدفعية يخرج منهما. لا يمكن لرجل كهذا أن يموت في صمت.

أعادت الصورة إلى أم عتيق وهي تسأل إن كان ابنها قد أخذ بعض ملامح أبيه.

"نعم... فيه بعض ملامحه، باستثناء عينيه. فقد سكنهما حزن لم يكن في عيني والده".

"إنه حزن اليتم، وثلاثتنا أيتام، أنا، وسلومي، وعتيق"، قالت غرسة.

"... وأنا أيضاً" أضافت أم عتيق، "نعم... أنا أيضاً. فليس اليتيم من مات أبوه أو أمه يا فتاة... بل من فقد الحبيب".

"أنا ثلاثية اليتم إذاً... أب وأم وحبيب".

"لست وحدك يا ابنتي... لست وحدك".

سبتمبر/أيلول

عندما هزّ الله مملكته وتحرك الرجل من مكانه في أحد صباحات الشهر الرابع، لم تكن غرسة هناك لتراه. لم يتحرك من تلقاء ذاته لولا أن جاءه خالد، الرجل الذي عُني بتربيته. وقف ينظر إليه من بعيد، ثم سار إليه وجلس بقربه وكأنه يجلس إلى طفل تائه على قارعة طريق.

"يا بني... أنت لا تعذب نفسك فقط، بل تعذبها هي رحمها الله. قم معي... هيا".

وكأن سلومي كان ينتظر هذه الكلمات ليفرغ ما تجمّع في صدره من حزن، فأجهش بالبكاء مرتمياً على صدر خالد، كما لو هي سلمى قد ماتت البارحة فقط.

"لا حول ولا قوة إلا بالله. قم معي... هيا يا بني. الحزن في قلبي أكبر من حزنك. لكنها إرادة الله".

ويستمر النشيج مختلطاً مع مواء القطة الصغيرة القابعة بجوارهما.

"هيا معي... أريدك إلى جانبي. قم وعد إلى حياتك، وادعُ لها حيث هي بالمغفرة".

"لا... هي لم تمت. هي حية إن بقيت هنا".

"ستبقى حية في نفوسنا كلنا، لكن من دون أن نسكن هنا"، قال خالد وهو يجاهد في حمله "لندعها نائمة في هدوء ورعاية الله".

"إن غادرت..."، قال سلومي وهو يقاوم، ثم صمت وعاد لنشيجه.

ربت خالد ظهره بحنوّ أب حقيقي، وقال "إن غادرت أو بقيت يا بني، لن تغيّر من إرادة الله".

"إن غادرت... ستموت"، وأمال رأسه إلى صدر خالد يكمل نحيبه.

ضمّه إلى صدره بقوة، وطبع قبلة على رأسه المغبرّ "ادعو لها بالرحمة فتبقى حية في نفوسنا".

"إنها حية... وتنتظرني".

"أستغفر الله يا بني، فللروح مالكها، وهو وحده يقرر المصائر".

"ولماذا..."، صرخ عالياً، "لماذا أخذها مني؟".

"لا تردد هذا القول. أنت تكفر بذلك. لله حكمة في ما أراد... والحمد لله على ما قدر"، قال الرجل وهو يرفع رأسه في الهواء من دون أن يبتعد سلومي عن صدره. بدت رنّة حزينة في صوت خالد وهو يردد عبارته الأخيرة. ثم نهض ثانية محاولاً رفع سلومي من ألمه.

نهض متثاقلاً، فاقد السيطرة على ساقين ضمرتا.

"هيا بنا... هيا يرحمك الله"، قال خالد.

القطة تموء وكأنها تودعه. تبعتهما وهما يسيران، وقد أسند

العاشق كامل جسده إلى خالد.

عندما تجاوزا نصف الطريق إلى الباب، اقترب أحد العاملين وهو يحمل معولاً. قال "هل ستتركنا أخيراً أيها الرجل الطيب؟"، وكأن جرساً قد رنّ في أذنه.

لم يردّ أيّ من الرجلين، فيما القطة تتبعهما وتموء. مضى الرجل إلى سبيله متجاوزاً إياهما على عجل.

توقف سلومي ونظر وراءه. أخذ يراقب الرجل يسير حتى آخر خط المقبرة، متجاوزاً قبر سلمى، ثم انعطف يميناً، وسار حتى بلغ السور الشمالي، وشرع يفتح قبراً لساكن جديد.

بقي يتأمله لحظة وهو لا يزال مستنداً إلى خالد. ثم عادا يكملان سيرهما. لكن قبل أن يصلا إلى الباب الرئيسي، سقط سلومي أرضاً. حاول خالد أن يرفعه، وهرع اثنان من العاملين في المكان لمساعدته. حملوه برفق إلى الظلة المسقوفة، في رواق المعزين، حيث صف الكراسي الطويل. أجلسوه هناك، وأحضروا له بعض الماء. قال أحدهم إنه الإعياء. وقال آخر إنها بقايا الحزن عندما يغادر الجسد. وقال ثالث إن الرجل مريض و"من الأفضل أن تأخذوه إلى المستشفى...".

اكتفى خالد بترديد بعض الأدعية. ثم أخذ قليلاً من الماء ومسحه على وجه سلومي. لم يكن الإعياء هو ما أوقعه، ولا الحزن، ولا المرض، بل الخوف من مغادرة ما اعتاد البقاء قربه، وخوفه مما ينتظره خارج المكان. لقد آمن في لحظات استكانته وجنونه تلك، بأنها لن تموت إن بقي بقربها. كان إيمانه بذلك جنوناً ما عرف

أحد في المقبرة مثله من قبل. بقي رأسه على صدر خالد بضع دقائق. وعندما حاول الأخير أن يأخذ بيده ويمضي به ثانية تجاه الباب الأخضر، رفض سلومي أن يتحرك.

"أتوسل إليك يا أبي... اتركني هنا"، قال وهو يمسح دمعه.

"ألا يكفيك أن أكون أنا معك؟ ألا تريد صحبتي؟ ألا تريد أن تساعدني في عملي؟ ألست أنت من جعله كبيراً كما هو؟ إنه لك يا بني، فما بقي لي سواك. إنها إرادة الله أن يحدث ما قد حدث. وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً عظيماً".

من يقول إن خالد يقول هذا وهو المكلوم أكثر من سلومي؟

لكن، أليس هو الحب ألماً يتكرر؟

"هي كل ما تبقى لي..."، قال في انكسار.

"لقد رحلت... رحلت إلى الأبد"، قال الأب وشرع بدوره يبكي.

نظر إليه سلومي وقد علته ابتسامة وادعة، وكأنه هو من يهدّئ الآن من روع الأب، ثم قال "لقد رأيتها"!

لم يجبه خالد الذي غرس إبهامه وسبابته في عينيه المحتقنتين.

مرة أخرى كررها "لقد رأيتها"!

رفع خالد رأسه "رأيت من...؟".

"سلمى... أنا أراها كل ليلة".

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

"صدقني... أراها كل ليلة".

"في منامك أم صحوك؟".

"أراها كما أراك"، ثم مضى بحماسة طفل يروي قصة من خيال جامح "كما أنها تحدثني أيضاً. نعم... فأنا أسمع صوتها كل ليلة... إنها تحدثني".

"إنا لله وإنا إليه راجعون. والله لو كنت أعلم أنك تحبها بهذا القدر، لما..."، صمت خالد قليلاً ثم أضاف "إنها مشيئة الله يا بني. إنها مشيئة الله". مسح على رأس الفتى وقال "إن بقيت هنا لحظة أخرى، فلن تعود معي إلى البيت بل إلى مستشفى المجانين في الطائف".

كان منظر الرجلين يثير شفقة من حولهما. ولا يملكون التعليق أو الاقتراب. واحد من العاملين فقط اقترب وقال "دعه أيها العم ولا تخف عليه. سنهتم به".

نظر خالد إلى الرجل، ثم إلى سلومي وقال "إن كانت هذه إرادتك يا بني، فابقَ ما شئت. هذا هو الباب أمامك، لا يفصلك عنه سوى أمتار. عندما تقرر الخروج منه، سأكون في انتظارك. وستعود كما كنت بأمر الله ومشيئته".

طبع قبلة على رأس ابنه وهمّ بالانصراف. قبل أن يغادر قال للعامل الواقف قربهما "اهتم به. ليأكل جيداً، وليأخذ حماماً إن أمكن، وسأرسل له بعض الثياب النظيفة والطعام"، ودسّ في يده مبلغاً من المال، ومبلغاً آخر في جيب سلومي وانصرف.

فور أن غادر الأب المكلوم، نهض سلومي من مكانه وهرول إلى حيث كان العامل يحفر بمعوله في آخر سور المقبرة الشمالي. وقف يتأمله وهو يحفر قبل أن ينضم إليه عامل آخر. دار بينهما

حوار على عجل، وانصرفا يكملان الحفر.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يقوم فيها عامل المقبرة بفتح قبر قديم وتهيئته لزائر جديد. فهو عمله هنا منذ اليوم الأول. أدرك سلومي أن الموت والحياة بالنسبة إلى العاملين في المقبرة ليسا أكثر من رقم. ثم لفت شيء انتباهه. فور أن انصرف عاملا المقبرة عمّا كانا يعملانه، اقترب سلومي من الحفرة التي أعدّها الرجلان لاستقبال ساكنها الجديد. لأول مرة يقترب إلى هذا الحد من حفرة جديدة. هي لم تكن جديدة، بل فتحت من جديد. تسارعت ضربات قلبه، وهبّ واقفاً كسارية علم. جال بنظره في المكان الصامت من حوله، والفضاء الواسع إلا من الشواهد. نظر ثانية إلى القبر أمامه، فكان يحمل الرقم ١٣٧٠. شرع يعدّ الأرقام التي تلي، ثم التي تلي، وهكذا حتى وصل إلى الطرف الآخر من المقبرة. عاد إلى المكان الأول، ثم سار إلى النهاية. كان العاملون يراقبونه عن بعد، من دون أن يسألوه عمّا يفعل. وإن فعل وسألوا، فلن يحصلوا على جواب من رجل فقد عقله. وإن بقي له شيء من هذا العقل، فما صبرهم عليه سوى كرمى لحزنه، وللشيخ الذي يزوره... خالد.

حدث ذلك في يوم واحد. لم تكن غرسة هناك لترى. ولا أم عتيق رأت شيئاً. ولو قدّر للعاشقة أن ترى حبيبها وقد تحرك من مكانه، ولو داخل الأسوار فقط، لتغيّر شيء من انتظارها الطويل. لكن ما فاتتها رؤيته، سترى ما هو أكثر منه عجباً في القريب.

أكتوبر/تشرين الأول

"إن شئت أرسلت لك سماً يقتلك، فتموت فوق قبرها".

كانت هذه هي الرسالة التي كتبتها غرسة لسلومي ذاك المساء، وأوصلتها عن طريق الطفل صاحب العينين الزرقاوين. لم تتردد في ما كتبت، متيقنة أنه سيتسلم رسالتها الآن. فطوافه الذي بات كثيراً داخل أسوار المقبرة يعني أن الصنم الآن بات أكثر إدراكاً لما يدور حوله.

كثيراً ما أحست بأنها تنتظر وهماً. وإن كان الوهم حقيقة، فسيكون ألماً آخر تضيفه إلى تاريخها العامر به. لكن حتى هذا الوهم المؤلم، مشوّق في انتظاره.

الأسبوع الذي سبق إرسال الرسالة، حدثت أمور كثيرة. فقد مرضت الجدة، ومرضت غرسة نفسها. ربو قديم عاودها. وزاد في الطين بلة شائعة سرت في الحي بأن سلومي هو من قتل سلمى.

منذ اليوم الأول، تداول الحي شائعة أنه كان السبب في قتلها، لكن الشائعة تطورت اليوم ليكون هو من قتلها، واستند من قال ذلك إلى بقائه كل هذا الوقت على قبرها. سمعت غرسة ذلك من سيدات عند جدتها المريضة.

مما سمعته، وقد كان جديداً هذه المرة، أن علاقة نشأت بين

سلمى وسلومي، وأنها ربما كانت حاملاً منه. سيدة في الحي قالت إنها رأت سلمى وهي تتكئ على خاصرتها، كامرأة حامل. سيدة أخرى قالت إنها رأت سلومي يغادر منزل العائلة ذات ظهيرة وقد تلطخ بعض ثوبه بالدماء. سيدة ثالثة أقسمت أنها رأتهما يتبادلان القبل ويعصر بيديه رمّانتي سلمى، ثم اختلى بها في غرفته خلف الدار! لكن أين هي تلك الغرفة؟ وكيف رأين سلومي؟ وكيف رأين سلمى تقبّله وأين كانت أمها؟ كل ذلك لم يقلنه. لكن بماذا تفسّر ألسن، لم تعرف الحب يوماً، بقاءه الطويل فوق قبرها؟

غرسة ما كانت لتصدق أي امرأة هنا. وما وصفها لهن بالساقطات سوى حسنة اعتقدت أنها اكتسبتها وأكدت عمق معرفتها بالحي وساكنيه. ولولا أن هؤلاء النسوة صديقات جدتها، لما كلفت نفسها عناء النظر إليهن.

لم تتوقف الشائعات عند سلمى وسلومي، بل طالت خالد الذي قالوا عنه إنه والد سلومي الحقيقي من علاقة قد لا تكون شرعية مع امرأة يمنية قدمت لزيارة بعض قريباتها، أو قد تكون شرعية لكن خالد أخفى الأمر عن زوجته أم سلمى، ومن أجل ذلك كان يعامله كابن له، وسلمه شؤون تجارته ومتجره وحساباته، ومن أجل ذلك أيضاً كانت زوجته لا تحب سلومي، ولا تسمح له بالاقتراب من ابنتها. وعندما فعل، كادت الأم تقتله، لكنها قتلت خطأً ابنتها. لكن، كيف يفسّرن أن يحب الأخ أخته حب عاشق لو كان هو ابناً لخالد، وأي سفاح ذاك الذي لا يتوقف في رؤوسهن؟ ثم كانت هناك الشائعة الثالثة التي لم تسلم منها أم سلمى نفسها. قالوا إنها

تعلم كيف ماتت ابنتها غيلة، وسكتت لسبب مجهول على من غدر بها. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تسري شائعة وريثة سابقتها، لكن أعظم هولاً، تقول إن زوجة خالد، أم سلمى، كانت تغار من محبة سلومي لابنتها، فقد كانت تؤثره لنفسها وأنها قد عاشرته أكثر من مرة.

من يلوم النساء في حي كل رجاله أنكى من النساء مرارة؟ فما عرف أحد هنا أن إنساناً يملك هذه الدرجة من الحب كما هو سلومي. من كان يصدق أن رجلاً ينذر نفسه من أجل فتاة أحبها؟ كان الإخلاص في قاموس نساء الحي هو الشائعة الحقيقية عن الرجال؟

المعرفة أصل الحب والكره على السواء. بلا معرفة، لا يتحقق أي منهما. ومن هنا كان حب غرسة قوياً لأساسه. ولولا ذلك ما بقيت تراقب سلومي حتى في لحظات عدمه تلك. لم تكن جاهلة أن الشائعات التي طالت حبيبها ستطالها هي عمّا قريب، وأن مراقبتها اليومية له من منزل أم عتيق هي سرّ لن يطول كتمانه.

هل كانت غرسة لتهتم؟

كان آخر ما تفكر فيه أن تلوك النساء سيرتها. فقد فعلن من قبل. حتى ما كان يصل إلى جدتها، ما عادت الجدة نفسها تهتم به. إما لأنها لا تسمع جيداً، أو تدعي ذلك، أو لإيمانها بنقاء حفيدتها. وهي في مرضها وعجزها لا تملك سوى أن تدعو في صمت لكل الألسنة الطويلة في الحي بالهداية. هي تماماً بعكس غرسة التي ما كان يردعها أن تجاهر بصادق دعائها وعميق أمنياتها لنساء الحي بالموت.

لم تتوقف الشائعات. لذلك كانت الفترة التي تلت وفاة سلمى كافية لتصبح عائلة خالد وجبة شهية للحي طوال أشهر!

قبل ظهر اليوم الذي أرسلت في مسائه برسالتها المحمّلة بأمنية أن يموت، سارت باتجاه المدينة القديمة مدفوعة برغبة في الاختلاء بنفسها. أحسّت باختناق في بيت جدتها. من الزائرات الغريبات، ومن رائحة العطن الذي خلّفته ألسنتهن في الدار. سارت بنفس الطريق المتعرج بين البيوت القديمة المائل بعضها على بعض، تاركة المقبرة وراءها. كانت تكشف، كعادتها، كل وجهها وجزءاً من شعرها ونصف جسمها. مضت غير عابئة بأحد. كان يأس قد سكنها من كل شيء. أرادت أن تهرب، لكن إلى أين؟ عند أم عتيق ربما، لكن ألمها ينزف من جديد كلما أطلت من نافذتها. أرادت أن تفكر بمصيرها، بغرسة، وخطوتها القادمة.

هناك... لمحت من بعيد الطفل ذا العينين الزرقاوين، الذي رأته في آخر زيارة لها إلى هنا، والذي، ربما، هو من قالت أم عتيق إنها رأت سلومي يحادثه على بوابة المقبرة. مشت إليه وهو يلهو مع جملة أطفال. بعد أن أصبحت على خطوات منه، نظر إليها أحد الصبية، وأطلق رجليه للريح وتبعه البقية. لكن بقي الطفل ذو العينين الزرقاوين مكانه ينظر إليها. ثم علت ابتسامة غريبة محيّاه. اقتربت منه حتى وقفت قبالته. وضعت يدها على رأسه وربتته بحنان. سألته عن اسمه فقال "علي". أمسكت بيده وقالت "هيا يا علي سأشتري لك قطعة شوكولاتة". ومن أقرب دكان ابتاعت له لوحاً. جلسا على حافة حجرية تحت بيت قديم. كانت كمن

تجلس إلى صديق تعرفه، في مثل عمرها. لا تعرف لِمَ أحست وكأنها تجلس إلى سلومي في طفولته. لم ينطق الطفل بأكثر من اسمه، منصرفاً إلى حلواه. سمات النباهة واضحة عليه. إن كان الصبي على علاقة بسلومي، كما زعمت أم عتيق أنها رأت، فلماذا كان يتبعها عندما زارت هذا المكان في المرة الأولى؟ هل كان يعرف أنها تراقبه؟

أشعلت تلك الفكرة شيئاً في صدرها المتعب من الربو. وفي لحظة تاه فيها العقل، التقطت من حقيبتها الصغيرة قلم حواجب، وفتحت ورقة الشوكولاتة التي اشترتها، وكتبت بضع كلمات. وضعتها في يد الطفل وقالت له بصوت هامس، سأشتري لك قطعة أخرى إن أوصلت رسالتي هذه إلى من أريد. وأطبقت الرسالة في يمينه.

بقي الطفل يأكل بيسراه من دون أن ينطق. جلست غرسة تنتظره حتى يتم، وتفكر في الوقت ذاته كيف لطفل مثله أن يدخل إلى المقبرة، وهل سيسمح العاملون له بأن يسلم ما في يده إلى سلومي؟

قبل أن تفرغ من أسئلتها نهض الصبي من مكانه، مطبقاً بيمينه على الرسالة، ومضى كإنسان آلي صغير ولطيف إلى حيث المقبرة، وكأنه معدّ لفعل ذلك، قبل حتى أن تخبره إلى من يذهب بالرسالة. تبعته في ذهول، ثم أخذ يهرول، ثم يركض بين الأزقة حتى اختفى عنها. بحثت عنه من زقاق إلى آخر، ولم تجده، فقدّرت أن الصبي قد خدعها أو خاف منها، ومضت عائدة يائسة إلى منزل أم عتيق. قبل أن تنعطف في آخر منحنى يواجه المقبرة، رأت الصبي مقبلاً

عليها. توقف أمامها وفتح يده اليمنى فارغة وكأنه يقول "أوصلت الرسالة"!

* * *

فيما انصرف الحي يجتر شائعاته، وغرسة مشغولة بمرض جدتها والعناية بها، عاد خالد، ضحى أحد الأيام إلى سلومي في منفى الآخرة الذي يقيم فيه. في معيته رجل دين اسمه عابد. هو إمام مسجد في الحي القديم، غير بعيد عن المقبرة. كان متوسط القامة، داكن البشرة، ذا لحية خفيفة. يلبس ثوباً أبيض قصيراً حتى كاحليه. على رأسه شماغ أحمر ينسدل على الجانبين. محيّاه أبعد ما يكون عن رجال الدين الذين عرفوا بصرامة القسمات. كان بشوشاً، شبه صامت إلا من أدعية يتمتمها. وهو فوق ذلك يبدو بعمر سلومي.

قال خالد "أحضرت لك هذا الشيخ الجليل ليسلم عليك".

لم يرفع رأسه.

"انظر إليّ يا بني. هذا الشيخ عابد. إمام مسجد الحي المجاور. التقيته في صلاة عشاء يوم أمس. أعرفه منذ وقت. أخبرته بحالك وحالي، فطلب أن يأتي لرؤيتك، خاصة أنه قد سمع بقصتك كثيراً".

لم يرفع رأسه.

"أخالك تحتاج إلى من يدلك على الطريق الصحيح. ولعل الله

يحدث معجزته على يد هذا الشيخ".

ثم نظر إلى الشيخ وقال "إنه على هذه الحال منذ وفاتها رحمها الله. صامت لا يتكلم. وها أنت ترى كم هزل جسمه. إنه لا يأكل. ما بقي بينه وبين الموت شيء. أخبرني العاملون هنا أن الحلوى وطبطاب الجنة هما كل زاده".

"طبطاب الجنة؟"، قال الشيخ مستغرباً، وابتسامة لطيفة على شفتيه. أخذ مكانه قبالة سلومي، فاصلاً بينه وبين القبر. عندما أراد خالد أن يواصل حديثه، أشار الشيخ أن "انتظر"، ثم وضع يمناه على رأس سلومي وبدأ يتلو صلواته. قبل أن يتمها أبعد سلومي رأسه.

عاد الشيخ يضع يده ويتمتم. أبعد رأسه ثانية. بدت عيناه تدمعان، فمسح الشيخ دمعة بالكاد ظهرت. نظر إليه سلومي مستغرباً ولزم صمته. جلس خالد إلى جوار الشيخ، وهو يعيد وضع يده على رأسه للمرة الثالثة. بعد أن أتمّ الشيخ، نظر إلى خالد وقال بصوت رخيم "ما به مسّ".

أغمض عينيه متحاشياً النظر إلى الشيخ. كان ردّ الفعل ذلك بداية تحوّل يشهده الفتى العاشق.

نهض الشيخ ومعه خالد. حادثه همساً، ثم عاد يجلس مكانه، موجّهاً حديثه إلى سلومي "إن شئت أن تطيل البقاء هنا فافعل. وإن شئت أن تبقى للأبد أيضاً... فافعل". كانت كلمات الشيخ واضحة وصلبة. استغرب خالد حديثه الجاف خلاف ما يوحي مظهره. لكنه لم يتدخل وتركه يكمل "إن كان العقل يؤلم، فلعل

الشفاء يأتي من الجنون. ابقَ هنا يا فتى ولا تبرح مكانك. وإن فكرت في المغادرة، فاعلم أن ما ينتظرك هناك، خارج ذاك الباب الكبير، عالم أكثر قساوة".

زاد استغراب خالد من الشيخ ثانية، إذ بدا مشجّعاً لسلومي على عته ما يقوم به، وهو غير ما اتفقا عليه قبل أن يحضرا معاً.

بصوت هامس قال خالد يحدثه "أردتك أن تردّ له عقله".

"ليمسخني الله قرداً إن كان هذا الشاب مجنوناً"، أجاب الشيخ بابتسامة راضية وكأنه قد شفى الفتى العليل بحبه.

"كيف لا يكون مجنوناً وهو يسكن فوق هذا القبر لا يأكل ولا يتحدث؟"، قال خالد بحدة.

"هي ماتت أول مرة بالفعل، لكنها لا تزال حية بالنسبة إليه... فلماذا ندعها تموت ثانية؟".

زاد انفعال خالد "هل تريدني أن أنتظره حتى يموت هو الآخر؟".

"إن حدث ذلك... فسيموت نقياً، كما ولدته أمه"!

"وهل حبّ الميت يعدّ حبّاً؟ إنه مسّ أصاب الفتى".

نظر خالد إلى سلومي في أسى، ثم قال بصوت خفيض للشيخ "يقول إنه يراها. كل ليلة يراها".

"لعله يفعل ذلك حقاً!".

"وهل رأيت ميتاً يعود إلى الحياة يا شيخ عابد؟ أتيت بك لتساعدني على إخراجه من عبث ما يفعل، فإذا بك تشجعه وتصدق ما يهذر به".

”قد يرى ما لا نراه نحن. هكذا هم العاشقون“.

ما عرف خالد كيف يرد، لكنه تيقن أن جنون ما يفعله سلومي، لن ينجو منه على يد مجنون آخر اسمه عابد.

قبل أن ينصرف الرجلان، سأل خالد فتاه المكلوم إن كان يريد أن يحضر له شيئاً.. ثياباً أو طعاماً.

فجاءه الجواب من الشيخ عابد وقد علته ابتسامة هادئة ”ربما المزيد من الطبطاب“.

عندما انصرف الرجلان، فكّر سلومي كيف أن هذا الشيخ مختلف عن غيره. فهو لم يحدثه كعادة الشيوخ، ولا حاول أن يثنيه عمّا هو فيه، وكل ما فعله أن وضع يده على رأسه ثم قال ما قال. حنون، وصادم في الوقت ذاته. تفكير كهذا، دلالة أخرى على أن موت سلمى ما عاد الشيء الوحيد الذي يفكر فيه. وإن لم يعنِ أنه قد تجاوز حداده الطويل، وأن وقت المغادرة قد حان.

أدخل يده في جيبه وأخرج ورقة الشوكولاتة التي تحملها رسالة غرسة.

عندما مدّ الطفل الصغير يده مفتوحة أمامها، يخبرها صامتاً أنه أوصل الرسالة إليه، تأكدت غرسة أن هناك علاقة تربط سلومي بالطفل. وفي لحظة خطر ببالها أن بعض شائعات الحي ربما كانت هي الحقيقة، وأن الطفل قد يكون ابناً لسلومي. وبخيال مغالٍ في خصوبته، تساءلت عما إذا كان هو ثمرة علاقة مع سلمى. لكنها ما لبثت أن طردت الفكرة من رأسها موقنة أن حبيبها ما كان ليرتكب حماقة كتلك، خاصة في حق رجل هو بمثابة الأب له.

كذلك فإن الطفل، رغم صغر سنه، أكبر من أن يكون ابناً لسلمى التي لم تتجاوز عند وفاتها ربيعها الخامس عشر.

بعد أن مدّ الطفل يده الفارغة إليها، انطلقت غرسة إلى بيت أم عتيق. أرادت أن تعرف ما سيفعله عندما يقرأ ما كتبته له من أمنية مميتة. أرادت أن تقرأ ردّ فعله. أن تحرك المياه الآسنة التي بات غارقاً فيها. أرادت أن تتحرش به. كانت تلك الرسالة اتصالها الأول به بعد الحادثة. تعثرت، ثم نهضت وهرولت حتى وصلت إلى مقصدها. قبل أن تسلم على أم عتيق شرّعت النافذة على مصراعيها، فدخلت هبّة ساخنة، وجلست تنظر إليه.

بالنسبة إلى سلومي، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يقرأ فيها رسالتها، بعد أن كرر رفض تسلّم أي شيء منها أو من غيرها. لكن ما قرأه لم يحرك فيه شيئاً، رغم أنه أبقى يده مطبقة على الورقة، مواصلاً من جديد اعتكافه الصامت. من هذا البعد، ما كان لغرسة أن ترى إن كان قد تسلّم الورقة بالفعل وإن كانت لا تزال هناك أم مزّقها. تخيّلت أن الطفل ربما كذب عليها، أو أنه رفض تسلّمها. جلست تنظر إليه حتى ارتفع أذان العصر. عندها بدأت تلحظ شيئاً ما كان لأحد أن يلحظه سواها.

أصاخ السمع جيداً لأذان العصر. كان الصوت يأتيه من عدة مساجد تحيط بالمقبرة. يتلفت إلى حيث يصعد أعلى صوت، ثم يدير رأسه باتجاه أذان آخر. بعد أن انتهت المساجد كلها، عاد إلى جموده. عندما حانت إقامة الصلاة، أصاخ السمع مجدداً. الأصوات تأتيه من كل مسجد من الزوايا الأربع، أعلاها من مسجد

الجفالي غير البعيد عنه. كان يبحث عن صوت محدد... صوت الشيخ عابد، إمام المسجد القديم في الحي، الذي كان قبل قليل هنا في معية خالد. لم يستطع تمييز نبرته وسط صخب الصلاة، رغم أنه حُفر عميقاً في صدره.

كانت غرسة تراقب كل حركة منه. أدركت أنه يبحث عن شيء من التفاتاته. اعتقدت للحظة أنه أثر الرسالة ربما. فهل قرأها إذاً؟ هل أغضبته؟ تساءلت ولم تتيقن من مصير رسالتها. بعد انتهاء الصلاة وانقطاع أصوات المساجد، نهض من مكانه فوثب قلبها. "إنّ الله يهزّ مملكته بالفعل". نظرت وكأن لا شيء في الكون سواه. سار من جديد باتجاه الطرف الشمالي من المقبرة، حيث حفر أحد العاملين قبراً جديداً. وقف أمامه وقد بدا مطموراً على ساكن جديد. نظر إلى الرقم ١٣٧٠ الذي يحمله القبر، وأخذ يرسم أشياء في الهواء.

"هل فقد عقله؟"، تساءلت.

جمد مكانه بضع دقائق، ثم راح يذرع المكان وهو يعدّ الشواهد، ويقف عند بعضها ثانية وثالثة. كان قلب غرسة يقفز مع كل خطوة له. تمنّت لو تقرأ ما يدور في رأسه. وعادت أسئلة كثيرة ترتطم برأسها كشهب حارقة.

سار بمحاذاة صف طويل من القبور المطمورة، وهو يقرأ تسلسل الأرقام، حتى توقف أمام قبور مفتوحة بعضها وراء بعض. كانت تتهيّأ لاستقبال ساكنين جدد في رحلة اللاعودة. أرقامها تبتعد ٣٠ رقماً قياساً على الرقم الذي وقف أمامه منذ أيام. "٣٠

إنساناً هم إذاً من دفن هنا... في خمسة أيام، أم تراها كانت ستة؟"، تساءل سلومي في سرّه "أي خمسة أشخاص في المتوسط، أو أربعة في اليوم الواحد"، قال وهو يرسم أرقامه في الهواء.

فكّر سلومي كيف باستطاعة هذا المكان استيعاب هذا العدد من الموتى. رفع رأسه ونظر أمامه، فوجد الحفر المفتوحة تنتهي عند سور المقبرة الشرقي، وتساءل أين سيدفن من سيأتي بعد ذلك إذا اكتمل عدد الساكنين هنا؟ وشرع يعدّ ما تبقى من قبور حتى النهاية. بعد لحظات، راح يعدّ القبور كلها. من أول قبر على مسار الباب الأخضر حتى الأخير، فأحصى ٢١٧٠ قبراً هي جملتها في هذا المكان.

حيث كان يقف، طافت الهرة الصغيرة التي ظهرت فجأة، بين قدميه وهي تموء. لم يشعر بها وعاد ينظر ويحسب. ثم وقف أمام ستة قبور قديمة قد فتحت وهي متهيّئة لسكانها الجدد. تساءل في سرّه "متى كان آخر من سكنها، ومن تراه يكون؟". نظر إلى الصف الطويل الممتد لقبور لا تزال مغلقة على من فيها، وتساءل ثانية "متى ستفتح؟ لا بد أن يحدث ذلك عندما يكتمل العدد، أي بعد الرقم ٢١٧٠، ليبدأوا الكرّة من جديد: ١ و٢ و٣ هكذا حتى... حتى..."، جمد قليلاً ثم همهم "لا... مستحيل". علا صوته أكثر "لا... لا... مستحيل"، وأخذ يتلفت كثور هائج يميناً ويساراً. هرول، ثم ركض باتجاه عبدالله، العامل في المقبرة. عندما رأى سلومي يهرول تجاهه، وقف مكانه ينتظره وهو يتّكئ على معوله.

"ما الذي يحدث يا خالتي؟"، سألت غرسة من دون أن تغادره نظراتها. نهضت أم عتيق ووقفت بجوارها.

رأتاه يحادث العامل، ويشير بيديه إلى حيث القبور المفتوحة ومن ورائها الصف الطويل الذي ينتهي عند السور الشرقي في البعيد.

"ماذا تظنينه يفعل يا خالتي؟"، سألت غرسة بذهول.

"نظري ليس مثل نظرك يا ابنتي، لكن توقعي أيّ شيء من رجل يسكن فوق حب ميت".

من مكانهما أتتهما بقايا صرخة أطلقها سلومي، قبل أن يطبق بيديه على وجهه وينهار على ركبتيه أمام العامل وهو يقول بصوت متهدج "لن أسمح بذلك... لن أسمح بذلك"!

جلست القطة الصغيرة شبه العمياء على قائمتيها الخلفيتين تنظر إليه وتموء.

* * *

كيف كان للأمر أن يغيب عنه؟

كيف له الآن، والآن فقط، أن يدرك المشهد الذي تكرر أمامه مئات المرات؟

كل شيء واضح منذ اليوم الأول، منذ بدء الخليقة، وتحديداً هنا في السعودية، حيث لا يكون القبر خاصاً بإنسان واحد إلى الأبد. إنه يفتح مرة إثر مرة إثر مرة.

تلك الحقيقة التي يعرفها الجميع هنا، ما كان لسلومي أن يدركها وهو منغلق على حزنه. قبر سلمى لن يكون لها وحدها. قريباً سيشاركها فيه ساكن آخر. لكنّ أحداً لا يعلم متى. حتى عقله الذي أبدع يوماً في الحساب، ما كان له أن يحسب شيئاً بعد صفعة الحقيقة التي علمها للتو.

"طبعاً... هذا ما نفعله هنا"، قال خليل، مدير المقبرة الذي نادراً ما يراه أحد، عندما سأله سلومي بأنفاس لاهثة إن كان سيأتي يوم ويفتح فيه قبر سلمى. لم يقنعه كلام عبدالله الحفّار عندما قال له الشيء ذاته.

"وهل تعتقد أن المقبرة تكفي الموتى كلهم؟ لو لم نفعل ذلك فأين سندفن أنت وأنا؟".

"لكن... كيف تنبشون قبر ميت؟".

"بعد بضعة أشهر، ربما بعد عام على الأكثر، لا يعود هناك شيء".

"ماذا تقصد بشيء؟".

"أقصد... أن الجسد يتحلل، فلا يبقى شيء. أحياناً، وهو أمر نادر، قد تجد بقايا عظام فقط، نجمعها ونلقي بها في البئر هناك"، وأشار خليل إلى مكان قصيّ قرب السور.

أخذ سلومي يتحدث وكأنه يهذي بكلام غير مفهوم، ثم شرع يصرخ "كيف...؟ أخبرني كيف...؟ أنتم مجرمون... هذا لا يجوز"!

"اهدأ أيها الشاب... إنه ما تقوم به المقابر كلها لا نحن فقط.

وغداً عندما تموت وتدفن سيتكرر الأمر ذاته".

"هل معنى هذا... هل معناه... لا يا إلهي... لا يمكن"، قال وهو يتخبط في حديثه وحركاته "لا... لن أسمح بذلك... لا يمكن". وخرج من غرفة خليل مهرولاً، وألقى نفسه على تراب سلمى وكأنه يحميها من معاول الحفر عندما يأتي دورها "لن أسمح لهم... هل تسمعينني...؟ سأحميك منهم. سأبقى ولن أدعهم يفتحون قبرك... سأقتلهم إن فعلوا... سأقتلهم".

غرسة ترى كل ذلك وقد أصابها الذهول مع أم عتيق التي بالكاد ترى شيئاً مع عتمة المساء. كانتا تنظران إلى فيلم قديم صامت من مكانهما البعيد.

رأت السيدتان اثنين من العاملين يقتربان من سلومي ويرفعانه عن التراب، لكنه رفض محاولتهما. وبدلاً من ذلك ألقى عليهما ببعض التراب من قبضته وتفوّه بأشياء بالكاد تصل مسامعهما.

ازدادت حيرة غرسة وأخذ قلبها يخفق. ثم بدأت ترتعش وكأن حمى قد أصابتها. لم تكمل المنظر أمامها، فما كان لها أن تقف مكتوفة اليدين. التقطت عباءتها، وغادرت مسرعة "ماذا يفعلون به...؟ ماذا يفعلون؟".

قبل أن تضع العباءة على كامل جسمها، هرولت بمحاذاة سور المقبرة، وهي تنظر إليها وكأنها تتلمس قدرة الرؤية خلال الجدار لتعرف ما يحدث وراءه. سارت حتى وقفت أمام الباب الرئيسي. كان نصف مفتوح. طرقت الباب وهي تهمّ بالدخول، قبل أن يسرع باتجاهها أحد العاملين ويردعها. سألته وهي تصرخ "ماذا

تفعلون به...؟ ماذا تفعلون به؟". وقبل أن يجيبها العامل، أتتها من الداخل أصوات أنين رجل وكأنه يتعرض للتكبيل. زاد ذلك من جنونها، ودفعت العامل على صدره وخطت إلى الداخل. حاولت أن ترى ما يحدث بعد أن أسدل المساء عتمته، فما رأت سوى بعضهم كأشباح وهم يحاولون تهدئة سلومي. عندما حاولت أن تقترب، تجمّع ثلاثة آخرون حولها ودفعوها باتجاه الخارج وهم يقولون "حرام عليك أن تكوني هنا يا امرأة". حاولت أن تقاوم، لكنهم كانوا أقوى منها. صرخت حتى تجمّع بعض المارة أمام الباب. ما عنى لها تجمعهم، بل صفعتهم ببضع كلمات وألقت حصيات عليهم وهي تمضي بعيداً. أدركت أنها لن تستطيع أن تفعل شيئاً سوى اللجوء إلى خالد.

سارت إلى متجره فوجدته مغلقاً للصلاة. أحسّت بقنوط يسكن صدرها، وبأن كل ما في الكون يعمل ضدها. تمنّت لو كانت رجلاً، لا لشيء سوى للدخول إلى هناك.

مرّ وقت الانتظار بطيئاً والغضب في صدرها يكبر كفقاعة مليئة باللعنات... لا بد أن يكون هناك رجل تلجأ إليه.

"ماذا لو لم يكن هناك خالد؟ ماذا لو لم يكن هناك رجل؟".

لو انتظرت غرسة أكثر، وسط غيظها وخوفها على ما يحدث خلف السور هناك، فستنفجر كإصبع ديناميت. توجهت على عجل إلى أقرب مسجد رأته، على أمل أن خالد يصلي مغربه فيه. عتبات ضخمة تقود باتجاه صاعد إلى المسجد. وقفت أسفلها تنظر إلى المصلين يغادرون. بعد لحظات ظهر خالد، فاندفعت

باتجاهه غير عابئة بالأعين التي تنظر باستهجان إلى امرأة تكاد تدخل المسجد وتمسك بثوب الرجل قبل أن ينتعل حذاءه. عرّفته بنفسها، فهدّأ من روعها وهو يدفعها بعيداً، ثم سار معها باتجاه المقبرة، من دون أن يفهم نصف ما قالته، حيث هي نفسها لم تكن تفهم ما يحدث. أخذ يتمتم بأدعيته حتى وصلا، وهناك طلب منها أن تبقى خارجاً أو تعود إلى دارها. آثرت الانتظار رغم تأخر عودتها إلى جدتها، ووقفت بعيداً عن الباب الرئيسي الأخضر بضعة أمتار. كان الليل قد أرخى ثيابه تماماً، وعمّت الظلمة المكان إلا من عمود ضوء بائس.

في وقفتها تلك، تحولت إلى لوحة باهتة، كما الأشياء التي تحيط بها. شعرت بالاختناق وبضيق في تنفسها. كادت تبكي عجزها عن فعل شيء. بقيت واقفة ربع ساعة وهي تحاول أن تطل كل حين من فجوة في الباب كلما فتحه أحدهم. ثم تقترب من السور حيث يفترض أن سلومي غير بعيد عنه من الجهة المقابلة. تصيخ السمع، وتلصق أذنها بالجدار. عدا أصوات أبواق السيارات البعيدة، كان الصوت الوحيد الذي تسمعه هو خفقان قلبها. تعود وتقف من جديد أمام الباب.

أطلّ أحد العاملين فجأة. توجه إلى الدكان القريب، فتعقبته، وأخرجت نقوداً من حقيبتها الصغيرة ودسّتها في يده "حلفتك بالله أخبرني ما يحدث لسلومي في الداخل". سألته بصوت يتوسل.

استغرب الرجل من هذه المداهمة. تراجع قليلاً إلى الوراء

وسألها مرتبكاً وقد شدّ يده إليه "من سلومي؟".

"إنه الرجل الذي يجلس على القبر منذ بضعة أشهر... ألا تعرفه؟".

"أنا لا أعلم شيئاً"، وحاول أن يعيد المال إليها.

"إنه لك... أرجوك... أخبرني ماذا يحدث؟"، وكذبت غرسة "إنه قريب لي، ابن خالتي، وأنا خائفة عليه".

هدأت ملامح الرجل، ثم قال وهو يدسّ المال في جيبه "تقصدين العاشق ؟".

"نعم... العاشق... العاشق... ما الذي يحدث معه، لقد رأيتهم يمسكون به".

"صامولة في رأسه خرجت من مكانها"، قال الرجل مستظرفاً، وأضاف "عايز البلد كلها تكون مقبرة".

لم تفهم ما قصد الرجل، وعلمت أنها لن تعلم منه شيئاً، وعليها الانتظار إن كانت تطيق.

أبطأ خالد نصف ساعة وهي تنزّ ألماً وحيرة. تقترب من السور وتصيخ السمع، ثم تعود إلى الباب الرئيسي. تمنّت لو تعود إلى نافذة أم عتيق، علّها ترى شيئاً من هناك. لكنها خافت لو فعلت أن يخرج خالد وينصرف من دون أن تعرف شيئاً. آثرت البقاء حيث هي. كان قلبها يقفز خارج جسدها كلما فتح أحدهم الباب.

لم تدرك غرسة أن عيني طفل صغير كانتا تراقبانها. يقف في أحد الأزقة شبه متوار في الظلمة. في انتظارها الطويل ذاك، أحسّت بشيء يدفعها إلى النظر خلفها، فرأته. استغربت وجوده،

ومن وقفته ينظر إليها. أشارت إليه بيدها أن يأتي إليها. لكنه بقي مبتسماً مكانه، فاقتربت هي منه. وقبل أن تصبح على بعد خطوة واحدة، سمعت صوت الباب الكبير يفتح ويظهر خالد.

* * *

بعد أن أعدّت عشاءً متأخراً لجدتها، انزوت في ركن من حجرتها الصغيرة، تفكر في ما أخبرها به خالد.

"لقد جنّ سلومي ولا شك. حتى أنا لا أريدهم أن يلمسوا قبرها... لكن ما عساي أفعل؟".

"وهل عليهم أن يدفنوا أحداً مكانها؟".

"لا يمكن أن يبقى القبر مغلقاً على إنسان واحد إلى الأبد. هذا بلد إسلامي. وهكذا هو النظام هنا. نحن لسنا في أوروبا. القبور هناك تبقى مغلقة على أصحابها إلى الأبد. هؤلاء كفرة، ما لنا ولهم. ماذا يعتقد سلومي... بالله عليك ماذا يعتقد؟".

أكان على غرسة أن تبتهج لو سجّي أحد مكان سلمى فيخرج سلومي من حزنه وجنونه، أم كان عليها أن تخاف أن يختفي عن ناظريها إن حدث ما لا بد من حدوثه؟

حائرة لا تعلم ما تفعل. قضت ليلتها ساهرة تفكر في قدرها الذي دفعها إلى عشق عاشق متيّم بغيرها، حتى في موتها. شعرت بغصّة في حلقها، واختناق في صدرها. فشرّعت نافذة حجرتها كاملة لأول مرة منذ حادثة سلمى. نسمة رطبة داعبت خصلة من

شعرها. أخذت موضعها قبالة النافذة تنظر إلى حيث كان سلومي يروح ويأتي. خنقتها الرطوبة، فألقت بنفسها على السرير، حتى أخذها الإعياء إلى أحلام بعيدة.

رأته، يلبس الثوب الأبيض الذي اشترته من أجله ليلة العيد. كان يحرث أرضاً في صحراء لا حياة فيها سوى شجرة جافة. بقربها خيمة تنتصب وسط اللاشيء. من داخلها صدح صوت غناء. اقتربت ووقفت أمام بابها وشمس قوية تلفح سلومي وهو يحرث. رأت قطرات العرق تتصبّب من جبينه. حاولت أن تنادي باسمه، فما كان الصوت يخرج من فمها. صفعها لهيب الشمس، فاحتمت بالخيمة. في الداخل، أشعّ ضوء قوي. ثم رأت بعض نساء الحي يحملن دفوفاً مثقوبة ويغنين بصوت قبيح. بحثت عن جدتها فما وجدتها، لكنها رأت زوجة خالد تجلس في زاوية الخيمة، ورأت شيئاً صغيراً يتحرك خلفها. كانت واجمة. ولولا صوت الدفوف لبدى المكان مجلس عزاء. اقتربت منها قبل أن تسمع صوت سلومي ينادي عليها من خارج الخيمة. عندما خرجت أخبرها أنه وجد بعض الماء، وفجأة استحالت الشجرة الجافة إلى عريشة خضراء تلعب الريح بأوراقها. ثم رأته يجلس على الأرض يغرف ماءً بيده. قال لها وهو يمد يده بغرفة لها، إنه وجد دموعه مدفونة هنا. في لحظة تحولت العريشة إلى ما يشبه سلمى. فزعت غرسة وتراجعت خطوة إلى الوراء، ثم صرخت "لي أم لها... لي أم لها؟". وأخذت الشجرة تتمايل أمامها، فيما أفرعها تزداد طولاً، حتى إذا ما اقتربت منها قرصتها في نهدها

الأيمن وهي تقول "بل هو لي أنا". قفزت مذعورة خارج حلمها، فوجدت نفسها فوق سريرها. كانت أنفاسها تتسارع. وضعت يدها على نهدها الأيمن فأحسّت وكأن قرصة سلمى قد تركت أثرها. أزاحت حمالة الصدر وبحثت عن أثر فما وجدت. لكنها تشعر ببعض الألم. تباطأت أنفاسها قليلاً، ثم وضعت دثاراً فوقها واقتربت من نافذتها المشرّعة من جديد. اعتقدت أنها قد غفت لبضع دقائق فقط. لكنها أدركت أنها نامت بضع ساعات مع سماع أذان الفجر. عادت تتمدد فوق سريرها تجاهد في تجاهل حلمها. لكن شاءت أو أبت، كان الحلم يُخرج شيئاً من داخلها.

"من هي الشجرة الجافة؟ هل هي سلمى تعود إلى الحياة؟ أم هي لا تزال على قيد الحياة وكل ما يحدث وهم؟ ولماذا كانت النساء يضربن دفوفاً مثقوبة؟ ماذا يعني ذلك؟ وأي رسالة من عالم الموتى تريد سلمى أن توصلها لغرسة عندما قرصتها، ولماذا نهدها الأيمن؟".

كان عليها أن تقضي ساعات الصباح تفسر حلمها، حتى تيقنت من أنه ليس سوى جزء من ألم تعيشه كل يوم. وأخذت تفكر في حديث خالد المقتضب معها، ذاك المساء، بعد أن خرج من الباب الأخضر للمقبرة. أرادت أن تستفسر منه عن أشياء كثيرة. بعدما قال لها ما رآه في الداخل، سألها "ما رأيك في ما يحدث؟". لم تجبه، ولم يكرر سؤاله. وانتهى حديثهما بأن طلب منها العودة إلى جدتها، ومضى هو إلى متجره. لم يبدُ خالد متأثراً بقدر ما كان مرتبكاً. ومع أنه حاول إخفاء ذلك، فقد استطاعت رؤية يده

ترتجف، كذلك بدت ركبتاه وهو يمضى بعيداً وكأنهما تصطكان. لم تعلم إن كان قد أخفى عنها شيئاً، أو كان لا يعلم شيئاً. لكن أي شيء هو أكثر جللاً مما قال عن التراب الذي يحثّه على رأسه؟

تمددت غرسة على ظهرها متأملة سقف حجرتها. تمنّت لو كانت مفتوحة على السماء. ثم جمدت عيناها على السقف للحظة، وأحست برعشة خفيفة تسري في جسدها... "الطفل... إنه الطفل". اعتدلت وجلست على طرف السرير وجعل قلبها يخفق بقوة.

ما رأته في منامها... ذاك الشيء الصغير الذي كان يتحرك خلف زوجة خالد داخل الخيمة، هو الطفل الذي كان يراقبها وهي خارج باب المقبرة الكبير. الطفل ذاته الذي رأته أول يوم يحدق إليها في الحي القديم، والطفل ذاته الذي حمل رسالتها إلى سلومي.

لم يرعبها كل ما حدث معها، قدر ما أرعبها وجود الطفل في المنام، مختبئاً خلف أم سلمى، ووجوده في الواقع وكأنه رسول بينها وبين سلومي، وتساءلت للمرة العاشرة "من يكون الطفل؟".

قررت أن تتحدث إليه عندما تراه في المرة القادمة، وهي على يقين من أنها ستراه، على الأقل ما بقي سلومي هناك. لكنها لم تعرف ماذا ستقول له ولا ما سيخبرها به هو. ثم هل سيدعها تفعل؟ والأهم من ذلك، أي دور سيلعبه الطفل أمام عذابات حبها لسلومي المتجاهل لها؟

فور أن أشرقت الشمس، أعدّت إفطار جدتها، غطّته بملاءة

على الطاولة الخشبية مقابل مقعدها المعتاد، ومضت هي إلى بيت أم عتيق. سارت بمحاذاة السور العالي. لم تكن واثقة من أنه لا يزال مكانه. فقد اعتبرت أن ما حدث معه أخيراً، إن صدق ما أخبرها به خالد وهي لا تشك في صدقه، سيكون منعطفاً قوياً في حياته، لكن في أي اتجاه؟

استغربت أم عتيق زيارة غرسة المبكرة عن موعدها. ومن دون أن تشرح لها شيئاً، تقدمت نحو النافذة وشرّعتها.

هبّت نسمة لطيفة مع انحسار الصيف. الصورة القديمة ذاتها تتكرر، لقد كان يجلس مكانه ينظر إلى القبر أمامه. سردت على أم عتيق ما كان من أمر سلومي وخالد. لم تكن قصتها طويلة، لكن غرسة أعطتها بعداً أعمق. روت بعقل لا يتوقف عن التفكير وطرح الأسئلة. تصمت أحياناً وتذهب إلى النافذة، تنظر منها ثم تعود إلى مكانها وتواصل حديثها. ما عاد وجوده يشغل بالها الآن، بل خوفها ممّا سيحدث بعد الآن.

اكتفت أم عتيق بالاستماع وهزّ رأسها. كل ما قالته "للرجال ذاكرة من رماد، لا نفع منها".

فكرت في أن تخبر العجوز عن حلمها، لكنها أحجمت. لم ترَ جدوى من تفسير قد يجرحها، كما أنها رأت أن الحلم يفسر نفسه. وارتضت به أياً كان. فكرت أيضاً في أن تخبرها بشأن الصبي، وأحجمت ثانية.

سادت لحظة صمت حتى قالت غرسة وهي تشرد إلى البعيد "... أحسست بمهانة عظيمة بعد أن منعوني من الدخول إليه

البارحة، وكأن الأنوثة جرم. حتى المقابر محرمة علينا زيارتها. لماذا يدفنوننا فيها إذاً؟ ليلقوا بنا إلى الكلاب ما دمنا نعيش مثلها، وإن كان من شيء نستحقه بعدها، فمزبلة حقيرة ندفن فيها".

"إنه حكم الشرع لا حكم البشر"، قالت أم عتيق.

"بل هو حكم الرجال. لو فرض عليهم ما يفرض علينا، لأحدثوا ثورة. انظري يا خالتي إلى مقبرة أمنا حواء التي أمامك"، قالت غرسة بنبرة شديدة التهكم، "إنها أكبر بكثير من أن تحيطها تلك الأسوار المهترئة".

لم تفهم أم عتيق ما قصدته غرسة. وقبل أن تستفسر منها أضافت الفتاة وقد انكسر صوتها فجأة "المدينة كلها مقبرة حواء... بل البلد بأكمله!".

تمتمت العجوز بكلمات مبعثرة لا تعرف بما تجيب، حتى قالت "لسانك هذا يبعد الرجال عنك".

أجابت غرسة بنبرة متأففة "من قال إني أرجو اقترابهم مني؟ ومن قال إن لسان المرأة أو عقلها يقرب الرجال أو يبعدهم؟ إنه الجسد وحده ما يختصر المسافات معهم. أما لساني هذا فهو كل ما تبقى من حريتي"!

تنهدت أم عتيق، ثم قالت بلطف "من تعتقدينه سوف يرضى بامرأة تتحدث عن الحرية؟ حتى سلومي هذا الذي تعشقينه، هل تعتقدين أنه سيحبك وأنت تتحدثين عن هذه الحرية؟ لقد رأيت أفضل الرجال خلقاً وهم يضعون ثيابهم في أفواههم ويهربون من امرأة تقول إنها حرة".

"سلومي مختلف...".
"بل لا يختلف عن غيره سوى أنك تحبينه. ولو قدّر الله أن أراك ترتبطين به، أو بغيره، فسأنتظر ما يحدث عندما تخبرينه عن حريتك. أنت لا تعرفين ما حدث لوالدتك التي كانت تتحدث مثلك تماماً. ولا أريد لك نفس المصير الذي لاقته".
سرحت غرسة قليلاً وهي تفكر في حكم أم عتيق القاسي، وإن كان واقعياً. فسلومي ما كان ليختلف، وكما نفر بعضهم من جرأتها واستقلالية شخصيتها، فعل هو عندما قدمت له نفسها. لكن ما أرادت غرسة الاعتراف بذلك، مقدمة حبها الجارف على حريتها التي ما بقي منها سوى طلاقة لسانها. ولتخرج من حديث أم عتيق عن الرجال، نهضت ووقفت أمام النافذة تنظر إلى سلومي المنكمش على نفسه، ثم سألت:
"ماذا تتوقعين أن يحدث يا خالتي؟".
"سينتهي كل شيء قريباً".
"تكررين الشيء ذاته كل يوم... ولا يحدث شيء".
"سينتهي... وسترين".
"هل تعتقدين أنه قد يختفي؟".
"ما يحدث الآن سينتهي..."، قالت العجوز في ضجر، "لكني لا أعلم إن كان سيختفي إلى الأبد أو سيموت أو يعود ذات يوم. لكن اسمعي يا ابنتي، قد لا ألومك على ما تفعلينه".
أشعلت غرسة سيجارة وسارت بالحديث إلى اتجاه آخر وهي تقول "لقد تنبّأت بموتها، أو لنقل إني تمنيته لها وليغفر لي ربي.

لكن ها هو الآن يموت أمامي ولا أملك ما أفعل من أجله".

"ليتك يا ابنتي إذاً تكونين قادرة على التنبّؤ بمستقبلك"!

"يقولون إن كل شيء قسمة ونصيب".

"لا أؤمن بما يقولون"، قالت العجوز، "الحب ربما كان كذلك. لأن النصيب أو الصدفة هي ما قادت سلومي إلى طريقك. أما الارتباط بمن نحب فقدر نصنعه بأيدينا. من أجل ذلك يا ابنتي، تفهّمت جنونك أنت أيضاً بما تفعلين، لكن دعي العقل يقودك ولو قليلاً. ثم... لا تقولي إنه يختلف عن باقي الرجال".

علت ابتسامة خفيفة وجه غرسة المتعب، ثم سرحت تنظر إلى البعيد حيث تجمعت بعض غيوم آخر أكتوبر فوق سماء المدينة.

"ستمطر...".

"أبكر شتاؤنا، فليس هو أوان المطر".

"هل أبعث إليه بما يقيه المطر؟".

"لِمَ تستعجلين الأمور؟ دعي المطر يأتي أولاً ثم افعلي ما شئت. وأعتقد أنهم سيتكفلون بالأمر على أيّ حال".

"خالتي..."، قالت في صوت متودّد، "هل تعتقدين أنه قد قرأ رسالتي؟".

"وما الفرق؟".

"أعني... هل تعتقدين بأنه يدرك وجودي هنا، بقربه، أنظر إليه كل يوم؟".

"سأقول لك نعم... لكنه يملك من الغباء ما يكفي ليظهر خلاف ذلك!".

نوفمبر/ تشرين الثاني

استيقظت غرسة على نقر مطر على نافذتها. بدأ صباحها مختلفاً عندما وجدت أثر احمرار على نهدها الأيمن. إنه الموضع ذاته الذي كان في الحلم. وضعت إصبعها على المكان وأحست بألم. خفق قلبها وهي تفكر إن كان هناك من شيء ينتقم منها حتى في منامها! وتساءلت لَمَ الألم يتكرر؟ تساءلت أيضاً... لَمَ هو مؤلم؟ ومن جديد تعود تسترجع تفاصيل حلمها حتى ضجرت منه.

سألتها جدتها وهما تفطران "لماذا لا تشترين آلة خياطة جديدة تعملين عليها كما كنت من قبل؟ لا تبيعي شيئاً في السوق إن شئت، بل لنساء الحي وفتياته. أليس ذلك أفضل من قضاء وقتك في بيت أم عتيق؟".

أجابتها غرسة بأنها في حالة مزاجية لا تسمح لها بعمل شيء الآن، "ولو عدت إلى الخياطة والتفصيل، فما كنت لأصنع لنساء الحي شيئاً. فأذواقهن تشبه بعر الجمال"!

غرسة المسيطرة على عقلها حتى في الشدائد، كانت شبه تائهة كلما فكرت في ما سيحدث مع سلومي. بل باتت تائهة بما يحدث معها هي نفسها. لقد صدقت جدتها عندما قالت إنها باتت مدفونة في بيت أم عتيق... "فماذا بعد؟".

لم يكن أمامها الكثير لتختار. عليها فقط أن تنتظر خطوة سلومي القادمة. إنه كل ما يمكن أن تفعل الآن. لكن زياراتها لأم عتيق لن تتغير. غاية غرسة هي سلومي نفسه، وغاية أم عتيق بعض الإثارة في حياتها الرتيبة. حتى من مكانه ذاك، وجموده، كان تأثيره في السيدتين عظيماً. فقد باتتا أقرب، إحداهما إلى الأخرى، كل يوم، كصديقتي طفولة من العمر نفسه، لا فتاة يافعة وسيدة تخطّت سبعين عاماً. كانت أم عتيق، التي لم تعش مراهقة ولا حباً ولا زواجاً مكتملاً، تعيش كل ذلك من جديد، ولو بمجرد المراقبة والحديث.

الأرض مبتلة ورائحتها جميلة بعد المطر، لكن الحي أصبح أكثر إحباطاً بسبب اختلاط أوحاله بقمامته. رفعت عباءتها حتى كشفت عن كاحليها غير عابئة بمن ينظر إليها، وأخذت تقفز بين المياه الراكدة، حتى بلغت دار صديقتها العجوز، متجاوزة سور المقبرة.

قفز قلبها عندما لم تجده جالساً مكانه. سألت أم عتيق بلهفة وكأنها حارسة المنارة، وكررت سؤالها إن كانت قد رأت أين ذهب، وماذا حدث؟

"أقفلت النوافذ بسبب المطر، فلم أرَ شيئاً. لعله يعود بعد قليل، فلننتظر".

خافت غرسة ألا يعود. كانت متيقنة من أن ما حدث مع سلومي أخيراً، وصراخه، وتشبّثه بقبر سلمى، ورفضه أن يفتح ولو بعد حين، لن تكون بلا صدى، لكن إلى أي مدى سيصل الصدى؟

من العاشرة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر لم تغادر النافذة ولا جلست حتى رأته يدخل من الباب الرئيسي ويأخذ مكانه المعتاد.

ازدادت زخات المطر. يقولون هنا إن للمطر رائحة الجنة على الأرض، وإنها تغسل النفوس. لكنه في المقبرة لم يغسل شيئاً، بل ترك أثر طين وتراب على الثوب الأبيض لسلومي، وشماغه الذي يتدثر به كلما شعر بوخزة البرد. إن كان من الجنون بقاؤه جالساً على قبر حبيبته تحت لهيب الشمس في الصيف، فإن بقاءه بالوضعية ذاتها تحت المطر المنهمر هو عته كامل.

آلم غرسة أن تراه متكوّماً على نفسه تحت رحمة الماء. بعد أن انقشعت الغيوم، اتّضحت الرؤية أكثر. لم يكن الإعياء بادياً عليه. بل بدا نظيف المظهر، بثوب جديد، وكأن المطر قد غسله، وغسل ثوبه معه. الشيء المفرح والمخيف في آن واحد، أنه بدأ يتحرك من مكانه. يغادر ويعود كما لو أن المقبرة قد أصبحت بيته. وربما كان يحتفظ بمفتاح لبابها الرئيسي أيضاً!

لم يطل بقاؤه، فقد نهض بعد نصف ساعة، وتوجه إلى ما يشبه فوهة بئر في الطرف القصيّ من المقبرة. وقف هناك، وحاول إزاحة غطاء حديدي صدئ،علته بقايا لون أزرق. كان ثقيلاً. اقترب منه أحد العاملين وسأله عمّا يفعل، فأخبره بأنه يريد أن يرى البئر. قال العامل إنه لا شيء يراه سوى بقايا لا تكاد ترى. جادله سلومي مصرّاً على فتح الغطاء. كانت الحركة في الجوار شبه هادئة. تلفّت العامل يمنة ويسرة خائفاً من أن يراه أحد، ثم أزاح الغطاء بحركة متمرس وهو يردّد "هذا حرام... هذا حرام". انبعثت رائحة خفيفة

من البئر، لم تردع سلومي عن أن يطل ليرى قاعها. كانت عميقة، حتى ليصعب رؤية ما بداخلها. أحسّ بأن رأسه سينفجر وهو يفكر في أن سلمى قد تنتهي إلى كومة هناك بين البقايا. تمتم بلاءات كثيرة بصمت وهو شارد في وقفته تلك. أعاد العامل الغطاء إلى مكانه، وسط رفض سلومي الغاضب والمستجدي في آن واحد.

"إنها حرمة الموتى"، قال العامل وأحكم وضع الغطاء.

كل ذلك تراه العاشقة العاجزة عن تفسير ما تراه. ثم رأته يطوف في المكان، كما كان يفعل قبل أيام، لكن بهمّة أكبر، وقطته الصغيرة تبدو من بعيد كنقطة سوداء تقفز وراءه.

ثم رأته يخرج ما بدا دفتراً صغيراً وشرع يخطّ على صفحاته شيئاً. ثم مضى قليلاً إلى الجهة الأخرى ويعود يكتب شيئاً آخر. ثم يخطو ثم يكتب. من لا يعرفه سيقول إنه عامل مساحة في البلدية. بقي على حالته تلك أكثر من ساعة وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً، يكتب ويخطّ صفحة وراء أخرى.

غرسة تراقب في ذهول، وتتمتم "ما الذي يفعله؟".

أخبرتها العجوز بما تعرفه عن أمر البئر، بحكم مجاورتها المكان ومعرفة تفاصيل يومه، لكنها أعجز من أن تفسّر لغرسة ما يفعله سلومي الآن.

لا توحي تصرفاته بالجنون. فأيّ مجنون هو الذي يقيس ويحسب؟

"شيء ما يدور هناك. بل أكثر من شيء"، قالت لأم عتيق. أحسّت في وقفتها تلك بألم نهدها الأيمن ثانية. وضعت يدها

حيث الموضع وسرحت تفكر في معنى لكل ما يحدث معها. قصة الحلم، الطفل الغريب، وسلومي نفسه. شيء يربط بين كل ذلك. شيء لا تشرحه كلمات ولو فاض بها الفم. هناك شيء لا تراه. ولولا أنها لا تؤمن بالسحرة والمشعوذين، لاستشارت أحدهم في ما يحدث معها. فكرت إن كان الوقت قد حان لمعاودة التواصل معه. لم تكن هي متيقنة من أنه قد بدأ الخروج من محنته أو أنه يغوص فيها أكثر. لكن ما يخيفها فعلاً أن مغادرته المكان، وعودته بثياب نظيفة، حدثا بعدما أخبروه بأن قبر سلمى سيفتح في يوم ما، حسبما قال خالد، وأن ما يقوم به سلومي الآن هو شيء يرتبط بذلك. لكن أي شيء هو؟

عاد يجلس مكانه، بكيفية أخرى غير التي اعتادها. بدا منهمكاً، مفرط الحماسة وهو يخطّ على أوراقه. ثم حدث أمر آخر... تمدّد ونام. كان في ما مضى ينام جالساً لا تعرف كيف. لكنه الآن تمدّد ونام. مرحلة جديدة يجتازها. ويبدو أن حالته ما عادت بالسوء الذي كان يعيشه. هو هنا يبدو متعايشاً مع واقعه، أو يخطط لواقع آخر يعيش فيه. "شيء ما سيحدث، وقد يكون وشيكاً"، قالت غرسة.

انقضى اليوم بلا جديد آخر. عادت إلى منزلها وعشرات الأسئلة تقرع في رأسها كجرس كنيسة. ولولا جدتها المريضة ما عادت إليها، وتحديداً تلك الليلة.

في الصباح التالي، وقبل أن تصل إلى دار أم عتيق، عرّجت على الباب الرئيسي الأخضر. وقفت قليلاً في فسحة لا تبعد كثيراً عنه، وقد أسبلت كامل غطائها. لم تكن تتوقع سلومي، بل أرادت

أحد العاملين هناك، وقد جهزت لذلك خمسين ريالاً أخفتها في يدها. لم يظهر لها سوى رجال يدخلون ويخرجون، وساكن جديد محمول على الأكتاف.

مضت إلى بيت أم عتيق مطبقة على النقود في يدها بضيق شديد. فجأة سألت نفسها إن كانت قد لمحت في وقفتها الصباحية تلك وجه الطفل الصغير.

وكأن ذاكرتها قد فارقتها، ما عادت تستطيع أن تركز إن رأته أو لا. استرجعت بعض الصور منذ لحظة خروجها من منزلها إلى عتبة باب أم عتيق، فكانت كل صورة مبعثرة في زاوية مختلفة من رأسها.

"كان هناك ولا بد. تذكرت أنها رأته يسير خلف بعض الرجال وينظر إليها. لا... لم يكن هو... بل كان هو. أو لربما كان هو ولكن ليس اليوم. ربما في يوم سابق. أو لعله لم يكن هو لا في الأمس ولا اليوم. بل وقد لا يكون له وجود". تكمن أهمية الطفل في أن وجوده يعني أن رسالتها وصلت إلى سلومي يقيناً. وتكمن أهمية أي رسالة في قبول تواصله معها.

من نافذة صديقتها العجوز، لم تره فوق قبر سلمى ذاك الصباح. بل كان يجلس في الصف الطويل من الكراسي في رواق المعزّين. لا يفعل شيئاً سوى النظر إلى الشواهد، والدفتر ذاته بيده. تحوّل جديد لم تعهده غرسة فيه. بعد قليل، رأته يحادث بعض العاملين، ويأخذ بيده إلى أن وقفا أمام قبر سلمى، ثم سارا إلى الطرف الآخر من السور.

خطر لها ما أرجف أطرافها. حيث الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفسر فعل سلومي الغريب هذا، هو سعيه إلى نقل القبر من مكانه، خشية أن يعاد فتحه. لكن هذا تصرف المجانين إن كان يخطط له. وهو ما أكدته لها أيضا أم عتيق، "فهم سيفتحون القبر ثانية أياً كان مكانه، ما لم يأخذه إلى مكان مجهول بعيد عن هنا!".

التفتت غرسة إلى أم عتيق بعينين مستفسرتين "هل تعتقدين أنه قد يفعل ذلك؟ أعني أن ينقلها إلى مقبرة أخرى؟ لا يفكر في ذلك سوى أحمق؟".

"نعم هي حماقة لو فكر في ذلك يا ابنتي، لكنها، وقد قلتها من قبل، لن تكون أقل من حماقة بقائه طوال الأشهر الماضية يبكي فوق قبرها!".

* * *

في ليلة رأس السنة، كان "العالم بأسره يحتفل بعام جديد. لكن هنا، كل شيء مقبرة... هادئ وميت!"، حدثت غرسة جدتها، وهي تنظر عبر التلفاز معها إلى العالم يحتفل بليلة العام الجديد. غضبت جدتها أول الأمر لابتهاج الحفيدة في مناسبة هي للكفار. لكن لما كان "الله مرهون في حضوره وغيابه بملذاتنا"، كما قالت غرسة، فقد عدلت الجدة من رأيها في مسألة الكفر تلك أمام صخب الألوان والألعاب النارية التي يطلقها العالم ابتهاجاً وأملاً بسنة جديدة أفضل.

كانت الألعاب النارية على التلفاز تطلق في صخب ألوانها ألواناً أخرى من الأسئلة في عقل غرسة. يفرقع بعضها في داخلها المنهك، ثم يخبو. اعتقدت، في تخيلاتها تلك، أن أسوأ مخاوفها تتحقق. ما علمت أن ما هو أخطر قادم في الطريق، وأن المزيد من المفرقعات لم تنطلق بعد.

إن اقتنعت برأي أم عتيق، بشأن حمق سلومي، وعدم جدوى نقل سلمى إلى مكان قصيّ في المقبرة، أو إلى مقبرة أخرى ربما، فإن التفسير الوحيد، والمخيف، أن ما يفعله العاشق المجنون هو نية لا شك فيها لنقل سلمى إلى مكان مجهول بعيد عن هنا، وقد لا يكون مقبرة بالضرورة، ثم يختفي كلاهما!

من يرَ حال سلومي في الأشهر الماضية وهو جالس على القبر يرثي من فقد، ويجعل ألف عين أخرى ترثي لحاله هو، فلن تكون فكرة أن يختفي في القبر شيئاً مستبعداً. بل لعلها تكون خاتمة الانتظار الطويل.

ما عجزت غرسة عن تفسيره هو أن توقّعها لو صدق، فما الذي يجعل سلومي يحوم هنا، ويسجل قياسات وأرقاماً داخل المكان ذاته؟ إذ حريّ به والحال هذه أن يفعل ذلك في المكان الذي ينوي أن يأخذ القبر إليه. ومعنى هذا أنه عمّا قريب، وقريب جداً، سيختفي هو وهي. وما تخطيطه ورسمه وتحركاته تلك سوى ذرّ رماد في العيون، "فمن قال إن الحمقى لا يملكون عبقرية العشق"!

عندما أخبرت خالتها أم عتيق بما تفكر فيه، ردّت العجوز

وقالت "والله لو تزوجها، ثم ماتت هي، لتزوج بامرأة أخرى قبل أن يبرد جسمها".

سألتها غرسة ثانية إن كان ما اعتقدته قد يحدث بالفعل، فأجابت "ربما يفعلها... فالمجانين يفعلون أي شيء".

ثم سألتها إن كان عليها أن تمنع شيئاً كهذا من الحدوث، فنصحتها العجوز "إما أن تتحدثي مع سلومي نفسه، وهو ما يبدو صعباً، أو عليك بخالد والد سلمى، فهو قطعاً لن يرضى بشيء كهذا مهما بلغ عطفه على الفتى". لكن العجوز حذرتها من أن إقدامها على الخيار الثاني يعني نهاية كل أمل لها معه. وفي يأس أجابتها غرسة "وأي أمل سأجنيه إن اختفى معها؟".

لم تذهب ذاك المساء إلى بيتها حتى لبس الظلام حلّته. بقيت تنظر إلى سلومي كبقعة بيضاء بثوبه الأبيض جالساً في رواق المعزين حتى غادر المقبرة. أخذت عباءتها وانطلقت. هرولت على أمل أن تبلغه عند الباب قبل أن يغادر. كان بعض الماء الراكد يقطر من أطراف ثوبها عندما وصلت إلى الباب. لم يكن هناك. بقيت تتلفت حولها وتسأل نفسها في أي اتجاه مضى، فقد كانت أزقة عدة تنطلق من هناك إلى داخل الأحياء القديمة.

رأت أحد العاملين في المقبرة وهو يخرج من الباب على استعجال. استوقفته ونقدته الخمسون ريالاً التي تكرمش بعضها على بعض وسألته عن سلومي: "أين ذهب؟".

"إنه بخير"، أجاب الرجل، وكأن من تسأل عنه فرد من عائلته.

"لقد خرج الآن... فهل تعلم أين يذهب؟".

”لا أعلم أنه خرج. لكنّ هذا خبر جيد“، قال وابتعد عنها وهو يدسّ المال في جيبه.

لم تدرِ ماذا تفعل، فهل تذهب إلى منزلها أم تنتظر عودته؟

في حيرتها تلك، أحسّت بشيء يجذب عباءتها إلى الأسفل. نظرت، إذا به الطفل ذاته، بابتسامته الهادئة. يلبس ثوباً نظيفاً بدا مكوياً للتو. قرفصت أمامه حتى التقت عيناها بعينيه.

”أنت تعرف أين ذهب؟ صحيح... هيا خذني إليه“. لم يتحرك الطفل ولم يتكلم. لكنه أشار بيده إلى زقاق صغير معتم يتفرع من الفسحة التي تقف وسطها أمام باب المقبرة. نظرت إلى حيث أشار الطفل، ودون إبطاء دخلته. بدا أكثر ظلمة كلما توغلت أكثر، ثم أوقفها الخوف، وسألت نفسها ما دهاها كي تصدق طفلاً غرّاً؟! عادت إلى حيث كانت. لكن الطفل قد اختفى. بدت على وشك الجنون، وندمت على أن تركت الصبي واندفعت إلى الزقاق دون أن تسأله عن اسمه، أو أن تأخذ بيده على الأقل إلى حيث أشار. والآن... هل تعود إلى منزلها أم تنتظر سلومي؟

ما كان لها أن تقف الليل كله تنتظر، فيما جدتها هي أيضاً تنتظرها، فقفلت عائدة.

في الطريق فكرت إن كان عليها أن تخبر خالد بما عزم عليه سلومي. هي كما قالت لأم عتيق ستفقده في الحالتين، ولعل فقدانه ينهي عذاب ما تحيا فيه. لكن هل تستطيع أن تفعل؟

عندما فكرت في شأن الطفل، أحسّت بأنه لم يأت صدفة. وتيقّنت، من دون دليل، أن شيئاً يربطه بسلومي، وبها هي ربما!

أحيت الفكرة أملاً شبه مندثر في نفسها، بأن القصة لن تنتهي هنا، ولا هكذا، بل لعلها بداية جديدة لشيء ما. خطر لها أن تبعث برسالة إليه، تخبره أنها علمت بما ينوي، وأنها ستكون إلى جانبه في كل ما يتخذ من قرار. ثم بدا لها أن تصرّفاً كهذا سيشبه فعل المسلسلات أكثر منه فعل العقل، كما أن سلومي كتوم بطبعه، وهو إن رفض الحديث مع أي إنسان، باستثناء خالد، فلن يطلع على سرّه أحداً، بما في ذلك خالد، بل وتحديداً خالد.

بعد أن أكملت غرسة طقوسها الليلية، وهجعت إلى مخدعها، تقلّبت ساعة من دون أن يغمض لها جفن. مع منتصف الليل، سمعت من وراء نافذتها المغلقة أمام البرد والمطر أحاديث ثملة من بعض شباب الحي القابعين تحت نافذتها يشمون الغراء. ثم أتاها نباح كلاب تتخاطب في ما بينها. بدت لها الأصوات مجتمعة وكأنها جوقة تعزف خيباتها. نامت تلك الليلة بلا عمق، وغصّة في حلقها تروح وتجيء، وألف سؤال ينغرس كل منها كشوكة في لحمها. في الصباح الباكر، وبعد أن أتمّت واجبات جدتها، خرجت قبل العاشرة بقليل. قالت إنها ستقضي بعض حاجاتها، وربما اشترت بعض القماش والدواء.

كانت تكذب، فكل ما أرادته هو الخروج باكراً، والسير في ذاك الزقاق الذي أشار إليه الصبي. كان شبه معتم حتى في النهار، لكن شجعتها حركة المارة على مواصلة سيرها بين الحوائط المتهالكة والأوحال. توقعت أن تلتقي بالصبي في أي لحظة. لكنها لم تره، ولا وجدت ما قد يخبرها إن كان سلومي بالفعل قد سلك هذا

الدرب ولا أين كان مقصده.

ينتهي الزقاق بما تنتهي إليه باقي الأزقة، وسط الحي القديم من المدينة العتيقة، الذي تعرفه ولا تعرفه. لفت انتباهها على بعد خطوات في نهاية الزقاق، وقبالة فسحة كبيرة تتوسطها شجرة سدر كبيرة، مبنى صغير بدا وكأن نيزكاً قد حطّ على سقفه وخسف به الأرض. ولولا قطعة خشبية ألصقت على باب صغير عليه، لما عرفت أن هذا مسجد.

باغتتها نسمة باردة، فمضت إلى بيت أم عتيق وقد عاد صخب الأسئلة إلى رأسها كفراشات تحوم حول مصباح مضيء.

ما كان لها أن تجهد ليلتها وصباحها بالأسئلة، ذلك أنها بمجرد أن دخلت إلى شقة أم عتيق بادرتها العجوز قائلة "لن تصدقي ما حدث... لقد كان ينظر، منذ ساعة أو أكثر، إلى النافذة التي تقفين عليها!".

يناير/كانون الأول

يزداد عصف الحزن بسلومي، كلما تذكر حديثه مع خليل مدير المقبرة. بالنسبة إليه، كانت الأمور تسير عكس أي منطق إنساني. غرسة الخائفة من هيام سلومي العبثي وخططه المجنونة، ما كانت تملك سوى التخمين وهي تنظر إليه يتحرك ويحسب ويكتب في دفتره.

"لا يمكن تجاوز القبر إن جاء دورها"، كلمات خليل القاسية، كلما استعادها، تبدو كدفق طلقات تسكن صدره.

"هل تستطيع، إن حان الوقت، أن تؤجّل الأمر؟". كان هذا سؤال سلومي الأخير له. وجاءه الجواب ثانية باستحالة ذلك. فهو ليس بقرار شخصي، بل نظام من البلدية. فلكل قبر رقم. وجميع الأرقام موثقة. وإن تم تجاوز رقم لسبب ما، فقد يترتب على ذلك عواقب وخيمة، كل من في المقبرة غني عنها. "أنا أب لخمسة أولاد وابنة واحدة. لا يعيلهم سوى راتب بسيط لا يتجاوز أربعة الآف ريال شهرياً". من أجل ذلك، ولتأمين ما يكفي لعائلته الكبيرة، كان يعمل سائق تاكسي أيضاً، وهو ما يفسّر غيابه شبه الدائم عن المقبرة. فهي وظيفة حكومية مضمونة. ثم إن الموتى لا ينتظرون حضوره أو غيابه كي يدخلوا مسكنهم الأخير. كذلك فإن

العاملين هنا ما كانوا ليجرؤون على تجاهل أوامره التي يصدرها عبر هاتفه الجوال وكأنه واقف بينهم.

قبر سلمى يحمل الرقم ٢١٥. وعدد القبور هنا، كما أحصاها سلومي، ٢١٧٠. والرقم الذي بلغوه حتى الآن هو ١٥٨٠. ويعني هذا أن قرابة ٥٦٠ قبراً تفصلهم عن الوصول إلى سلمى. ويعني هذا أيضاً أن أكثر من ١٣٥٠ شخصاً قد دفنوا هنا على مدى ثمانية أشهر تقريباً، منذ وفاة سلمى، أي بمعدل ٥ أشخاص ونصف في اليوم الواحد. وباستمرار هذا المعدل، فإن قبر سلمى سوف يفتح بعد ما يقارب ١٠٠ يوم من الآن.

هذه الحسبة المبالغ في بساطتها وغرائبيتها، كما أجراها سلومي، هي ما كادت فعلاً تأخذ بعقله أكثر من وفاة سلمى نفسها. هل سينتظر حتى يأتي ذاك اليوم الأغبر ليأخذوها، كما هي نائمة، ويلقوا ببقاياها في البئر؟ من أجل ذلك هو يقيس ويحسب الأرقام ذاتها كل يوم. كان بقاؤه التائه فوق القبر طوال الأشهر الماضية، غائباً عن إدراك ما يحدث من حوله، يخفي قصة أخرى ما تصور أنه سيعيش فصولها من جديد، بل وسيكون بطلها.

عندما عرض مالاً على خليل كي يبذل جهده لتخطّي سلمى عندما يحين الموعد، قال إنه حتى لو استطاع ذلك، فماذا سيحدث عندما يحين الدور ثانية، بعد عام، أقل أو أكثر؟!

لهذا السبب اتخذ سلومي قراره الغريب. لو عرفت به غرسة لصعقت. فقد كان أبعد من كل تصوراتها مهما جنحت. لكنه، وليستطيع تحقيق ذلك، وجب عليه أن يجد من هو موضع ثقته

كي يساعده. ولعل ذلك يفسّر أيضاً خروجه من المقبرة إلى الزقاق الطويل الذي أشار الطفل الصغير، ذاك اليوم، إلى غرسة بأنه سار فيه. فقد حدث ذلك حقاً. وكان المقصد الذي طلبه سلومي هو المسجد الذي بدا مخسوفا في الأرض، حيث وقفت قبالته غير مدركة أن حبيبها الذي تبحث عنه لم يكن بعيداً عنها. إنه المكان الذي يعمل فيه الشيخ عابد الذي أحضره خالد ذات يوم إلى سلومي.

"ولماذا تريد أن تفعل ذلك؟"، سأله عابد وقد تربّع بجواره في المسجد.

"لأن هذا كل ما تبقّى لي فعله في هذه الحياة".

عبث الشيخ عابد بلحيته قليلاً ثم قال "أعرف ما تشعر به. لقد قال أحدهم يوماً إن الرغبة في الموت هي بداية فهم الحياة!"[١].

نظر إليه سلومي من دون أن يعي مقصده. لكن كلمة "رغبة الموت" أثارته قليلاً، وسأل الشيخ "هل فكرت في الموت يوماً؟".

"كل يوم".

"وهل... تخاف منه؟".

"لا".

"أنا لا أخاف منه أيضاً... بل ماض إليه بإرادتي. فهل تساعدني؟".

"لست أخاف الموت... لكني أحب الحياة" قال الشيخ عابد.

بصوت متهدل أقرب إلى البكاء قال سلومي "الحياة بالنسبة

---

١ عبارة للكاتب التشيكي فرانس كافكا (١٨٨٣–١٩٢٤).

إلي..."، صمت قليلاً، "الحياة بالنسبة إليّ كانت سلمى. لا شيء بعدها، ولا سبب، يدعوني للبقاء!".

"من يسمع ما تقول يعتقد أنها قد ماتت أمس فقط. أقسم إن والديها ما عادا يبكيانها كما تفعل أنت".

"هل تساعدني؟".

"طلبك عجيب... عجيب جداً، وهو صعب عليّ. ولا أعلم بما أجيب عنادك"، أجابه الشيخ وأضاف "دعني أخبرك شيئاً... الموت، وإن كان مصيبة كما ذكر القرآن، فهو حدث متكرر. ولأنه كذلك، فقد اعتاده الناس. يحزنون، يبكون، ثم يمضون في حياتهم". نظرعابد إلى سلومي منصتاً له، وختم حديثه قائلاً "الحزن هشّ جداً، والموت كذلك".

"إن كان هشّاً، فقد أخذ كل ما عندي".

"لم يأخذ شيئاً من باب العبث، هو يؤدي عمله فقط. الموت لا يملك وقتاً كي يعبث معنا. إنه مثلنا، كائن حي يؤدي عمله. لكن بقدر قسوة عمله هذا، هو يترك حزناً هشّاً. لولا ذلك ما استمرت الحياة. أنت اليوم يا سليمان، تريد أن تغيّر ذلك".

"إن كان الوضع كما تقول أيها الشيخ، فأنا جاهز منذ اللحظة له. كل ما أريده الآن هو أن أكون معها".

"حسناً... وكيف لي أن أساعدك؟ تعلم أن هذا حرام ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً".

"بل يجوز... أليس هناك قتل رحيم؟ ليكن كذلك إذاً".

"أنت تريد أن تموت وتدفن في قبرها. فأين الرحمة في ذلك؟

هذا حرااااام. هل تريد أن تذهب إلى الجحيم بقدميك؟".

"جحيم السماء هو أكثر رأفة من هذا المكان".

"هل تعتقد ذلك حقاً...؟"، سأل عابد مبتسماً، "هل تعتقده بالفعل؟ والله ما فكرت في الأمر هكذا"، وأطلق ضحكة خفيفة، ثم أضاف "قد يكون صحيحاً بعض ما تقول، لكن دع الآخرة لأهلها، إن خلاصك من جحيم هنا كما تقول هو في إيمانك وعقلك، لا في موتك. من سيستفيد إن مت؟".

"ليس الموت غايتي... بل أن أدفن معها... أن أكون معها".

"ومن قال إنك ستكون معها إن مت؟".

"ومن سيخسر أيها الشيخ إن كان هذا ما أريد؟ ليس من أتركه بعدي، مال أو ولد، وليس من حياة أخرى أتمناها. لن يحزن أحد عليّ، ولا أبالي. فهل لك أن تساعدني أم لا؟".

"بأن تموت وتدفن معها؟".

"نعم".

"أي أن تنتحر؟!".

"نعم".

"وأن أساعدك أنا؟!".

"نعم... نعم".

"لن أساعدك... ولن أمنعك. ولتكن مشيئة الله".

انكمش سلومي على نفسه وكأن عاصفة صعقته. قام إليه عابد، وربت ظهره وقد أحس بلهيب نار تحرق صدر الفتى. كان وقت العشاء قد حان، فأذّن الشيخ. وفيما بدأ المصلون يتوافدون على

المسجد، بقي سلومي منزوياً في ركنه كقطة صغيرة. أشفق عليه الشيخ، وبدلاً من أن يؤمّ الناس في الصلاة، أخذ بيده وانطلقا خارج المسجد. استغرب سلومي كيف يترك هذا الرجل المصلين وراءه. أليس هو الإمام؟ قبل أن يسأل، جاءه جواب الشيخ وكأنه عرف ما يدور في رأسه، "الأئمة أكثر من المصلين في هذه البلاد". قال ذلك وهو يتبسم بلطف ويمضي به إلى عمق المدينة العتيقة.

أدركا الساحة التي تقوم مدرسة الفلاح التاريخية في وسطها. تخطّياها مروراً بسوق صغير لباعة خضر اصطفت عرباتهم الخشبية بعضها قرب بعض، ثم انعطفا إلى سوق التمور قبل أن يصعدا إلى مبنى قديم من طابق واحد. كان ذاك أقدم مقهى شعبي في المدينة. ارتصفت بانتظام بعض الكراسي الخشبية على جوانبه. تحت سقيفة من الزنك القديم، وفي ركن شبه معتم، جلس الشيخ عابد في ما بدا أنه مكان مخصص له وحده. كانت المساجد تصدح بصلوات العشاء. من دون أن يطلب شيئاً، أحضر أحدهم إبريقاً خزفياً من الشاي، ونرجيلة.

استغرب سلومي المنكسر على نفسه ما يفعله الشيخ هنا، لكنه لزم الصمت.

"لا يغرّنك مظهري. فلم أكن يوماً إمام مسجد. فالأئمة هنا يجب أن يكونوا سعوديين فقط. حتى الصلوات الصاعدة إلى السماء تمر هنا عبر إدارة الجوازات. الإمام الحقيقي يتسلّم راتباً من وزارة الأوقاف ليؤمّ الناس، لكنه لا يفعل. يعطيني ألف ريال في الشهر، وغرفة بجوار المسجد، كي أقوم بعمله. أما هو فمنصرف

إلى تجارة الأسهم والعقارات وأربع زوجات".

سحب نفساً من نرجيلته وواصل حديثه وهو ينفث الدخان "ولدت هنا، في هذا الحي. والداي من الحبشة. مهاجران قدما إلى هنا طلباً لجوار بيت الله منذ أكثر من ٣٠ عاماً. توفيا ولم تكن لهما إقامة نظامية، فورثت عنهما تلك الكارثة. إنسان بلا هوية. لا أملك اليوم سوى القراءة، ووظيفتي في المسجد، وهذه النرجيلة".

أرعدت السماء في تلك اللحظة، وساقت نسيماً عليلاً أطرب الشيخ. في لحظة تجلّيه تلك، قال "تبذل الطبيعة جهداً لإسعادنا. لكن عبثاً تحاول في هذا المكان". من دون توقع، كشف عن مسجّل يعمل بالأسطوانات المدمجة قابع على منضدة خشبية بجواره، مغطى بعناية مثل طفل في مهده. أداره فانطلق صوت أم كلثوم "الحب وحده إنت غالي عليّا...".

"اسمع... وسبّح الله. هذا الملاك... آآآآه..."، وشرع يتمايل مع اللحن، وسأل في غمرة نشوته "هل هناك قصبجي في الجنة...؟ أم كلثوم، السنباطي، بليغ حمدي، أين سيذهب كل هؤلاء بعد موتهم؟ لا مناص أنهم سيقومون بالعمل ذاته في السماء. من أجل ذلك فهناك، ولا شك، جنة!".

بقي سلومي صامتاً ينظر إلى الشيخ منتشياً. فكّر أنه ربما أخطأ باللجوء إليه ليساعده في تنفيذ ما عزم عليه. فمن يعشق الحياة مثله، كيف له أن يساعد على الموت؟ ومن لا يملك هوية وطنية، مثله أيضاً، هو نصف إنسان في هذه البلاد، بل هو لا شيء. وانصرف

عقله يبحث عن بديل يساعده.

هل يقرأ عابد هذا الأفكار؟ فقد قطع فكر سلومي وهو يقول له "أحياناً... تتساوى الحياة مع الموت. يحدث ذلك عندما لا يعود لنا هدف نحيا من أجله، كما هي حالك الآن. ما يجعلنا نخشى الموت هو أن أحداً لم يعد منه. لكني... وأقول ذلك عن اقتناع، أعتقد أنه شيء جميل كما هي الحياة نفسها. هل تعرف لماذا؟". استغرب سلومي مما يسمع، وقبل أن يجيب مضى عابد يجيب نفسه "لأن الروح ليست سوى كتلة طاقة أكبر من كتلة الجسد. إنها كالمصباح تماماً. ترى الضوء، الذي هو الجسد، لكنك لا ترى الكهرباء التي هي الطاقة... التي هي الروح. عندما نموت، تتحرر هذه الطاقة من سجنها الصغير، من المصباح الذي هو نحن. قد لا يأتي انفصال الروح عن الجسد مصحوباً بالورود، لكن في المحصلة النهائية، ستكون الروح سعيدة إن تحررت من ضيق المكان الذي تسكنه، الذي هو أجسادنا".

لم يفهم سلومي الكثير ممّا قال الشيخ الذي استمر في حديثه وكأنه معلم يحادث تلميذاً له "الحب يا سليمان... يشبه الموت تماماً. كلاهما انعتاق من الجسد الضيق، من هنا تأتي لذته".

"إن كان الحب يشبه الموت، فإذاً لا يفصلني عن هذا الموت سوى خروج روحي من جسدها. فأنا لن أستطيع أن أعيد روح سلمى، لكني أستطيع أن أحرر روحي فنلتقي معاً في السماء، أنا وهي، بعيداً عن والدتها وعن الحي".

"عندما تتحدث عن الروح، وجب أن تعلم أنها لا تولد جريئة

أو جبانة، بل ضعيفة. الروح دوماً تولد ضعيفة لا إرادة لها، لكنها تكتسب صفاتها من الجسد الذي تسكنه. إنها بلا عقل أيضاً، لكن تجارب الحياة تمنحها خبراتها. وهذه هي حال الحب، إنه روح، ولأنه كذلك فهو عنصر نقي يولد بلا إرادة، ثم يكبر بتجاربه التي يعيشها جسدنا المادي". سحب عابد نفساً من نرجيلته ثم أضاف "الحب والروح هما صورتان مختلفتان لشيء واحد... إنه الموت. روح سلمى قد تحررت الآن، وأنا على يقين من أنها سعيدة بانعتاقها من الجسد الضيق. أنت أيضاً تريد بحبك أن تتحرر من الجسد والمكان...". أطلق عابد تنهيدة عميقة "آه... وتحديداً هذا المكان الذي لا يعترف سوى بمن يملك هوية وطنية. أرواحنا سجينة أجسادنا، ونحن هنا نعيش إلى جانب هذا السجن الصغير، في سجن أكبر. لذلك أفكر... أيّ حياة هي تلك التي نخشى عليها من الموت؟ كما تقول أنت تماماً". نظر بعمق إلى عيني سلومي وأضاف "لكن ذلك لا يغيّر من حقيقية أن الانتحار حرام ولا شك... وإذا فكرت في ما قلت عن الروح والحب، وفي ما قلت عن الحرام والحلال، فستجد أن أفضل ما أردّ به على طلبك هو أني لن أساعدك ولن أمنعك، وافعل ما أنت مؤمن به".

الحب والروح كلمتان أعادتا سلومي إلى واقعه أمام الرجل الجالس أمامه ينفث دخان نرجيلته وينطق بأشياء لم يفهم نصفها، لكنه بقي منصتاً له وهو يتابع حديثه "الروح تحب ما يحقق سعادة الجسد الذي تعيش فيه، وسعادتها هي بذاتها. قد تكون

هذه السعادة في قطعة حلوى أو كنز عظيم من الجواهر. أياً كان ما يحقق سعادتك فامض به".

كان الرجل أمامه، الإمام الزائف عابد، ينطق بما لا يمكن لرجل دين أن ينطق به. عبارات مليئة بالأمل المأساوي والغرائبي في آن واحد، لكنها عميقة حتى بدا وكأنه يشارك سلومي عذاباته؛ هو في الحب الضائع والآخر في اللاوطن. هذا الجالس أمامه، عابد، الذي جعل الدنيا سجناً كبيراً وآخر صغيراً، قد كشف لسلومي سجناً ثالثاً هو المقبرة. المكان الوحيد الذي بات يجمعه مع سلمى التي هي ربما قد تحررت الآن من كل سجونها. ولعلها في هذه اللحظة تحديداً تراه وتسمعه، ولعل روحها المنعتقة من جسدها، ومن المكان، تنتظره، بل هي تنتظره ولا شك.

قبل أن ينهي اللقاء، سأله سلومي "هل لحيّ أن يتصل بميت؟".

ابتسم عابد ورفع صوت الغناء يشدو ويردد معه "وهو وحده الحب شوية..."، ثم التفت إلى سلومي وسأله "هل تعتقد أنت بذلك... أعني أن يتصل ميت بحي؟". ثم خفض الصوت قليلاً وقال في جدية "لقد أخبرتني بأنك ترى سلمى بالفعل... فهل رأيتها حقاً؟".

"نعم... وحدثتها أيضاً"، أجاب في ثقة.

صمت عابد لحظة ثم قال "يا أخي... وكأنه باب يفتتح بين الاثنين. وأفكر، أهو ما قاله الله تعالى (بينهما برزخ لا يبغيان)؟ أيكون ذاك البرزخ هو الباب؟ دعني أخبرك بقصة غريبة. ربما تؤكد ما تزعم، أو تدحضه. فقد مرضت أمي فجأة، وقد كانت

كبيرة في العمر بأي حال. في لحظاتها الأخيرة حضنتها بين ذراعي. كانت نسوة الحي يتجمعن من حولنا. رأيتها تسلم الروح أمام ناظري. كنت ألقّنها الشهادة، لكنها لم تكن قادرة على النطق سوى بعبارات قليلة. فهمت منها أنها ترى والدها الميت منذ زمن، وشقيقها الذي توفي هو الآخر منذ عامين. قالت أيضاً، إنهما يخاطبانها ويمدان أيديهما إليها، وكل ما سمعتها تقوله بوهن وهي تبتسم للمرة الأخيرة: أنا قادمة. وأسلمت الروح. هل ترى؟ أعتقد أنها وهي بين ذراعي، كانت رغم نطقها بهذه الكلمات وسماعنا لها، قد دخلت عالمهم، أو أن يكونوا هم قد دخلوا عالمنا لوقت قصير... لا أعلم. لكن التواصل قد حدث بأي حال".

عمّت لحظة هدوء لا يسمع فيها سوى صوت ماء النرجيلة يتقلب في زجاجتها، ثم أضاف عابد شيئاً أخرج سلومي عن صمته "يحدث أيضاً أن نتواصل معهم في نومنا. فهو نوع آخر من الموت. نوع من التحرر المؤقت للروح من ضيق الجسد".

"لكني لم أرها في المنام"، أجاب سلومي وكأنه اقترف ذنباً.

"أعتقد أنك قد نمت فوق قبرها بما يكفي أن تراك هي"، أجاب عابد وقد علته ابتسامة رقيقة.

اختلطت أحاديث تلك الجسلة مع الأرقام التي عادت تدور في رأسه. إن كانت قد أتته في المنام أو لم تفعل، وإن كانت قد رأته هي أو لم تره، فلا يغيّر ذلك مما هو مقبل عليه. بل لعله بات أكثر يقيناً بحتمية أن يكون.

قبل أن ينصرف قال له عابد "لا أظنك ستقتل نفسك كي تدفن

معها... ليس لأنه حرام فقط، بل أقول إنك لن تستطيع. روحك المسجونة في جسدك خائفة من حريتها".

تماماً، فقد سلومي كل أمل له في الشيخ، ومضى عائداً إلى المقبرة، وكأنها بيته الوحيد في الدنيا.

سار من طريق أبعد قليلاً بمحاذاة شارع الذهب، حيث الحدود الغربية للمنطقة التاريخية. كل ما خرج به من ذلك اللقاء زاد من ضياعه، لكنه أراد أن يثبت لنفسه أنه أكثر صلابة مما اعتقد الشيخ، وأن روحه ليست خائفة من حريتها. سيعاود البحث عن مساعدة أخرى. من أجل ذلك كان ينظر إلى النافذة المشرعة لبيت أم عتيق، يبحث عن غرسة التي أمست هي أمله الأخير.

اقترب من ميدان البيعة، ثم دلف شرقاً باتجاه المقبرة، متجاوزاً البوابة الحجرية القديمة. كان جمع من الرجال يفترشون الأرض أسفل البوابة. قلة منهم يسكنون هنا أو بالقرب منه، وأكثرهم أتوا بدافع الحنين، وجميعهم قد سمع بقصة الرجل الذي يجثم فوق القبر. يلعبون الورق من المساء حتى منتصف الليل. ينمّون على هذا وذاك. ينتقدون الحكومة، ويمجّدونها. يتحدثون عن الله والدين، ومشاكل الحي والنساء. يتمازحون، يتشاتمون، ويتصالحون ثانية. وبين مفاصل الدقائق والساعات، يسأل أحدهم عن ذاك المجنون، المسكين، الممسوس الجاثم فوق القبر، والذي هو الآن يمر بجوارهم من دون أن يفطنوا إليه!

تجاوز كومة الرجال وعقله لا يكفّ عن التفكير بغرسة إن كانت ستساعده أم هي مثل عابد.

غرسة التي فوجئت عندما أخبرتها أم عتيق، في الصباح التالي، بأن سلومي كان ينظر إلى نافذتها، لم تصدق ما سمعته. بلهفة سارت نحو النافذة وهي تفكر أن الأمر ربما اختلط على سيدة تخطّت السبعين من العمر. نظرت، وبأنفاس لاهثة ألقت بجسمها على كرسي بجوار أم عتيق، وقالت "ليس هناك!".

فبراير/شباط

يحدث ذلك كثيراً. فعندما نفكر في من نحب، من دون أن نراه، يختصر الزمن وقته. يصبح العام شهراً، والشهر يوماً. وعندما يصهر الحب في زمن مختصر، تكون حلاوته أعظم من ألمه.

وكأن كل شيء حدث البارحة فقط. فلا تعب سلومي من حزنه، ولا هي أعياها انتظار فاقد الأمل.

ومع أنها فكرت في أن ما أخبرتها به أم عتيق عن نظر سلومي باتجاه النافذة قد لا يكون صحيحاً، إلا أن صوتاً في داخلها كان يقول "وماذا لو كان الأمر كما قالت؟". وحتى لا تندم على فرصة ولو ضئيلة، قضت نهارات ثلاثة أيام كاملة وهي تنتظر أن تراه. كان أطول غياب له عن المقبرة. أم عتيق هدّأت من روع غرسة التي كانت أكثر ما تخشاه أن لا تراه ثانية. قالت العجوز "إن رأس سلومي صلب كالثور". وإذا أضافت إلى ذلك حمقه، فهو قطعاً سيظهر في أي لحظة.

سمّرت ناظريها باتجاه قبر سلمى، وكأنها تخشى أن تجد ذات لحظة وقد فتح غطاء مرقدها. إن حدث ذلك، فسيكون قد فعلها، وأخذ سلمى واختفى ولن تراه. لم تكن تعلم بعد ما عزم عليه. طال انتظارها حتى باتت رؤيتها لجدتها تنحصر في لحظات الصباح

والمساء القصيرة. كانت متيقنة من أن شيئاً سيحدث، فالمسافة تقصر كل يوم بين القبور المفتوحة وقبر سلمى، وسلومي غائب بنحو غامض، وهي عاجزة عن فعل أي شيء.

كان شفق عظيم يغطي السماء في تلك اللحظة التي مدّت فيها يداً تحمل عشرين ريالاً باتجاه أحد العاملين، وتسأله عن سلومي.

"لم أره في اليومين الماضيين، أو ربما في الأيام الثلاثة الماضية".

"هل يكون قد اختفى نهائياً؟ وهل انتصر الواقع أخيراً؟"، سألت نفسها.

إن عاد إليه صوابه وبعض اتزانه، فلن يعود ثانية، لا إلى هنا، ولا إلى بيت خالد. هكذا فكرت. وإن غلبه جنونه، فسيختفي بسلمى. وكمن أصيبت هي بالجنون عوضاً عنه، أخذت تحدث نفسها إن كان قد قام على حين غفلة منها، ومن أم عتيق، ومن كل عامل في المقبرة، بنقل سلمى، أم أنها لا تزال هناك؟

إن كانت غير قادرة على دخول المكان، فكيف لها أن تعرف؟ وهل من المنطقي أن تسأل أحدهم؟ ماذا ستقول له؟ وماذا إن كانوا يعرفون الأمر ويخفونه عنها وعن البلدية؟

قدماها المرتعشتان، أكثر من عقلها، دفعتاها باتجاه الزقاق الضيق الذي سلكته قبل بضعة أيام باتجاه وسط المدينة القديمة، حيث المسجد الذي يعمل فيه الشيخ عابد. لماذا حضرت إلى هنا ثانية؟ حتى هي لا تعرف جواباً. لكنها وقفت تتأمل الباب الخشبي. ثم انطلق أذان المغرب. تنبّهت إلى أنها تقف أمام مسجد

وهي نصف حاسرة الرأس. فأعادت غطاء وجهها، وابتعدت قليلاً من دون أن تفارق عيناها الباب. بدأ المصلون يتوافدون. من بينهم رجل مربوع يميل إلى السمرة، بدا لها من هيئته ولباسه أنه الإمام. قبل أن يدخل، وقف لحظة ونظر إليها، ثم اختفى داخل المسجد. هل يعرف هذا الرجل سلومي؟ ولماذا هو؟ وأي حدس يخبرها بذلك؟

كان الوقت متأخراً لتعود إلى بيت أم عتيق، فمضت إلى منزلها. فور أن دخلت الحي المعتم، أحسّت به أنه كان هنا. تريّثت في خطوها، وهي تتلفّت وكأنها تبحث عنه. لم تكن واثقة مما تفعل، ولا هي واثقة من أن هذياناً ألمّ بها أم إحساس حقيقي هو كل ما تبقى لها من طريق إليه.

بعد أن طبعت قبلة على جبين جدتها، جلست بجوارها، فباغتتها الجدة بسؤال:

"ماذا تفعلين في المقبرة كل يوم"؟.

استغربت غرسة السؤال،

"لقد وصلني الخبر... هل تعتقدين أن شيئاً يمكن إخفاؤه هنا؟"، قالت الجدة وواصلت حديثها بنبرة حادة، "أهل الحي يتحدثون عنك. لقد أخبروني بأن العاملين هناك يعرفونك كلهم، وبأنك... وبأنك والعياذ بالله، تحادثينهم وتخالطينهم".

"لم يبقَ سوى أن أغوي الموتى"، قالت في تهكّم.

"هل تسخرين...؟ حسناً... لقد قالوا أكثر من ذلك. ماذا كنت تفعلين أمام المسجد في المدينة القديمة؟!".

من أخبر الجدة بقصة عمال المقبرة والمسجد؟ لزمت الصمت وهي تسمع جدتها الغاضبة تضيف بحزم "لم يعد لك بقاء هكذا. غداً... غداً وليس بعده ستتزوجين شئت أو أبيت. وسأختار لك أنا الرجل الذي يستطيع أن يربيك كطفلة متمردة".

أخبروها بكل هؤلاء، ولم يخبروها بسلومي. فكرت غرسة وهي تبتسم من بؤس ما تعيش فيه نسوة الحي. هنّ يكرهنها لأنها الجميلة، ولأنها أقوى من انهياراتهن أمام أزواج لا شفقة في قلوبهم. هن المصابات القبيحات، وهي الجميلة الراسخة.

"ليمتن في غيظهن... إن طرف ثوبي المتسخ هذا أنقى منهن". قالت غرسة ونهضت إلى غرفتها من دون أن تنتظر جواباً من جدتها الغاضبة.

من وراء باب حجرتها الذي صفقته وراءها، جاءها صوت جدتها المتوعّد ثانية "غداً ستتزوجين".

أحست بأن وراء بابها المغلق ألف باب إلى الحرية. لكن إن كانت قوية حتى الآن، فأبواب الحي المهترئة التي تصدّ الناس عنها قد تسقط في أي لحظة، فأي حرية ترتجي بعدها؟

تأكدت من إحكام إغلاق نافذتها فلا تشتم خيبات الحي، وعطن ألسنته. جلست على سريرها لا تعلم هل تبكي أم تدع الليلة تمر هادئة على أحزانها. نهضت بهدوء وسحبت من رف في خزانتها كيساً بلاستيكياً أخرجت منه الثوب الأبيض الذي اشترته لسلومي قبل عيد الفطر الأخير. قرّبته من أنفها وكأنها تشتم فيه رائحته وهو الذي ما لبسه قط. تمدّدت على سريرها والثوب على

صدرها. أغمضت عينيها ونامت.

الحلم الذي رأته قبل أسابيع عاودها ثانية بكل تفاصيله. كأنه نسخة من فيلم مرعب يعاد تدويرها. والثوب الأبيض الذي ظهر سلومي يرتديه في الحلم الأول كان هناك. حتى القرصة على نهدها الأيمن، أحسّت بألمها عندما استيقظت مع الفجر. إحساسها بوجود سلومي وصراخ جدتها يمتزجان في خليط غريب داخل رأسها.

عندما فتحت باب غرفتها بعدما استفاقت، وجدت جدتها تصلي الفجر. جلست تنظر إليها وهي لا تزال بثياب البارحة. بعد أن فرغت، طبعت قبلة على جبينها، وجلست بجوارها. لم تكن غضبة الجدة جارفة لتعيش حتى الفجر. نظرت بحنان إلى عيني حفيدتها، وقالت "دعوت الله أن يرزقك بزوج صالح". وضعت يدها على يد جدتها الناتئة العروق وأجابتها "تمنّي لي السعادة فقط".

"لن تأتيك السعادة بلا زوج".

لم تجب غرسة.

"هل صليت؟".

"نعم"، قالت ولم تفعل. عقلها يفكر في سلومي فقط، وقد عزمت على أمر ما. بعد إفطار الجدة، والاهتمام بشؤون المنزل، بدّلت ثيابها وهمّت بالانصراف.

استوقفتها جدتها وطلبت منها ألا تتأخر هذا المساء.

"حسناً"، قالت وانطلقت بعد العاشرة. سارت باتجاه أم

عتيق. أخبرتها صديقتها العجوز بأنها لم تره طوال أمس، ولا هذا الصباح.

"سأعود بعد قليل"، قالت غرسة ومضت متلفعة بعباءتها. أخذت طريقها نحو متجر خالد. كان الوقت ينفد، وإن لم يكن سلومي قد قام بنقل سلمى من مكانها، فإنه سيفعل في أي لحظة. ليس من خيار أمامها سوى أن تخبر والد سلمى بالأمر.

تجاوزت الشارع المؤدي إلى المتجر. عندما همّت بدخول بابه الزجاجي، جمدت مكانها. فقد رأت صورة الصبي الصغير معكوسة على الزجاج. كان وراءها مباشرة. تلفّتت إليه، فابتسم، ومدّ يده بورقة. فتحتها فكانت ورقة الحلوى ذاتها التي أعطته إياها سابقاً. تحت كلماتها التي كتبتها لسلومي حينها، وجدت رسالة أخرى مذيّلة باسمه: "أريد أن أراك. اتبعي الصبي".

* * *

كعصفور بلّله المطر، وقفت غرسة أمامه ترتعش.

لم تكن تصدق أنها تقف أمامه بجوار المسجد المتهالك، حيث قادها الصبي.

"أسدلي غطاءك واتبعيني"، قال بصوت جاف.

غطّت كامل وجهها، وهي لا تزال ترتعش وسارت وراءه. قادها إلى زقاق صغير بجوار المسجد. كان الطريق شبه خال هذا الوقت من الصباح. توقف أمام باب صغير اختفى نصفه في

الأرض. فتحه وانحنى كي لا يرتطم رأسه ودلف، تبعته غرسة غير مصدقة ما يحدث معها، حتى إنها تساءلت إن كان هذا سلومي بالفعل.

كان الظلام شبه دامس في الداخل. غرفة رثّة بما يفوق الكرامة الإنسانية. رائحة هواء راكد، وسرير متواضع مرتّب على عجل، وخزانة ثياب قديمة، مخلوع أحد أبوابها، وكتب تراصّت على الأرض بعضها فوق بعض بلا انتظام، وفوضى في ما تبقى من فسحة صغيرة بين السرير والخزانة. كشفت غطاء رأسها وهي تقلّب بصرها في المكان. من تحت كومة ثياب ألقيت عليه، التقط سلومي كرسياً خشبياً وضعه قبالة السرير وطلب منها أن تجلس أمامه.

بدا ثابتاً، وقوياً، رغم الأوقات المضنية التي أمضاها فوق القبر. ومرة ثانية تساءلت إن كان هذا سلومي نفسه!

غادرتها آخر رعشة اضطراب وهو يجلس قبالتها ينظر إلى عينيها. لم ترَ فيهما غضباً، ولم ترَ فيهما اطمئناناً. لم ترَ فيهما شيئاً... كانتا من زجاج. بدا مع الظلام المسيطر على المكان كأنه لوحة عتيقة متشققة. لكنها شعرت بهدوء أنفاسه المنتظمة، كما لو أعدّ نفسه جيداً لهذه اللحظة.

في رأسها ألف سؤال تريد أن تطرحه وهي في طريقها إلى هنا خلف الصبي. لكنها عندما جلست قبالته، بحثت عن سؤال واحد فما وجدت غير تعليق نطقت به وهي تنظر إلى الأرض هرباً من ضعفها أمامه.

"يبدو أن طبطاب الجنة يناسبك".

وكأنه لم يفهم ما تقصد، أخرج من جيبه لوحاً من حلوى الطبطاب وقدمه لها فرفضته بأدب ظاهري واشمئزاز داخلي. إنها سلمى تحضر خلوتهما في هيئة اللوح المغلف بورقته الممدود إليها.

وضع اللوح على طرف السرير، وعاد ينظر إليها، وقال: "أحتاج إلى مساعدتك".

رفعت رأسها، وباستغراب سألته: "أنا...؟ تحتاج إلى مساعدتي؟ من أجل ماذا، ومن أجل من؟".

"من أجل سلمى"، قال بثقة.

انتفض داخلها وهي تسمع اسمها. لكنها تماسكت وبقيت صامتة تهرب ثانية بنظرها.

"هل تساعدينني؟"، سألها بصوت بدا أكثر عطفاً.

فكرت سريعاً أن الأمر يتعلق بالقبر... لعنتها الكبيرة، وسألته ثانية عن نوع المساعدة التي يطلبها.

"سأخبرك إن وعدتني بكتمان الأمر".

"ولماذا أنا؟".

"أسباب كثيرة تجيب عن ذلك. أنت تعرفين قصتي. أعلم أنك كنت دوماً هناك... عند تلك النافذة". خفض نبرة صوته قليلاً "تعرفين معنى الحب، أليس كذلك؟".

حاولت من جديد أن تهرب بنظرها ودمعة تكاد تنساب على وجنتيها.

"أعرف ما تفكرين فيه. لكنها مشيئة الله. الحب ليس قراراً نتخذه، إنه قدر".

بقيت صامتة... لكن هذه المرة جعلت تحدّق في عينيه حتى بدت أكثر ثباتاً منه، وكأنها قرأت بعض ما يفكر فيه.

"كل ما أريده منك... خدمة بسيطة، ووحيدة".

"أن أساعدك في نقل رفاتها من هنا. أليس كذلك؟". سألته مستبقة ما سيقول.

فوجئ بردّها. جمد لحظة يحدق فيها قبل أن يسأل "رفات من؟".

"رفات سلمى. تريد أن تنقلها من مكانها"، ردّت وكأنها تطلق ناراً من صدرها.

"لا... من قال ذلك؟ لماذا أنقل رفاتها؟".

"لا تريد نقل رفاتها...؟"، سألته، "لماذا إذاً كنت تجوب المقابر وتقيس وتحسب إن لم يكن هذا ما تنوي القيام به؟".

"حسناً... مراقبتك كانت دقيقة جداً، لكن تقديرك خاطئ"، قال وهو يدفع بجسمه إلى الوراء، "أنت تعلمين أن المقابر تكشف من جديد بعد مدة معينة. أحياناً قد لا تكمل العام". صمت قليلاً، "ونحن نقترب من العام، وهم يقتربون بالمثل من قبرها".

"وهل سيفتحون القبر؟".

"نعم... وإن بقي فيه شيء..."، صمت وقد تحشرج قليلاً ووقف قبالة نافذة مشبكة بحديد صدئ مولياً ظهره إلى غرسة.

"وما الذي تنوي عمله إن لم يكن نقل رفاتها؟".

من دون أن يلتفت قال "أريد أن أدفن معها!".

لم تستوعب غرسة ما قال، فنهضت بدورها ووقفت وراءه

والاستغراب يملأها "وكيف ستدفن معها؟".

"هذا تحديداً ما أطلب مساعدتك فيه". وبرفق التفت إليها وأمسك يديها وقادها حتى عادت مكانها وهو قبالتها "اسمعيني جيداً... في تقديري، إن قبر سلمى سيفتح بعد شهرين من الآن أو أكثر بقليل. وسيدفن شخص آخر مكانها. أريد أن أكون هذا الشخص".

بقيت غرسة صامتة تفكر في صدق ما تسمعه. إن كان لها أن تتقبل حكاية نقل الرفات، فكيف لها أن تصدق دفنه هو مع الرفات؟ إنها قصة تفوق أقصى اتساع خيالاتها.

بقيت صامتة لا تدري بما تجيب. ثم قالت بنبرة مترددة "هل تريد أن تموت. أعني... ؟".

"لِمَ تسمّينه موتاً؟ هو رحيل".

انتفضت واقفة "سأسمّيه غباءً"، وعلا صوت غاضب "سأسمّيه جنوناً".

بهدوء أجاب "هل موتنا من أجل من نحب هو جنون في رأيك؟".

أخذت أنفاسها تضطرب، وصدرها يعلو ويهبط. سألته "ألهذه الدرجة تحبها...؟ أن تموت من أجلها؟".

"عندما تخلو الحياة من الحب، يصبح الموت شيئاً جميلاً"، أجاب.

أطرقت محاولة استدراك ما يقول، ثم قالت مستفسرة، من دون أن يفارقها ذهولها "إن حدث ومت، أو انتحرت، أو سمّ فعلك

الجنوني ما شئت، فكيف تضمن أن تدفن أنت تحديداً، لا شخص آخر، في قبرها؟".

"هذا ما أريدك من أجله"!

"كيف؟". ثم وفي تهكّم أضافت "انتظرت طويلاً كي تخرج ممّا أنت فيه. وها أنت تريدني الآن أن أساعدك كي تموت وتدفن معها. ادفع لأحدهم خمسين ريالاً وسيدفنك في البئر حيث ترمى البقايا كلها، هكذا تكون معها ومع غيرها".

"غرسة..."، قال وهو يمسك بيدها ثانية، "إن كنت تحبينني بالفعل، ساعديني إذاً".

"أساعدك على أن تموت...؟ أن تدفن معها؟".

صمت قليلاً ثم قال بنبرة طفل وديع "هل ستعيشين إلى الأبد؟".

لم تجبه وهي تجاهد لاستيعاب حقيقة ما سمعته.

وطرح السؤال ثانية "هل ستعيشين إلى الأبد؟".

أشاحت بوجهها.

تحجّرت عيناه في تحدّ وهو ينظر إليها "كلنا سيموت في نهاية الأمر. ليكن موتي إذاً طقس الحرية الوحيد الذي أمارسه منذ ولادتي".

انتصبت حتى بدت قامتها أكثر طولاً بجواره "هل تعتقد أنها كانت تحبك بقدر حبك لها؟". سألت في ثقة ومن دون خوف من ردّ فعله.

"الحب لا ينتظر مقابلاً".

"بل ينتظر"، قالت بصوت يشبه ضربة سيف في الفضاء.

"لماذا؟ أخبريني لماذا تحبينني إذاً؟".

احتارت في ما عليها أن تجيب، هدأت قليلاً ثم سألته وغصة في حلقها "وماذا أستفيد من حبك عندما تموت؟ هل تريد أن أعيش فوق قبرك كما كنت تفعل أنت على قبرها؟".

"فكري في الأمر... لا أثق بأحد سواك!"، أجاب مستعطفاً.

"هل تعتقد أنها كانت ستفعل الشيء ذاته لو أنك أنت من مات؟".

تعلقت عيناه، وقد اغرورقتا، بسقف الغرفة وصدرت منه تنهيدة ألم.

كانت غرسة الواقفة أمامه بثبات تخفي غرسة أخرى تبكي بلا صوت.

رأته منكسراً أمامها للمرة الأولى. وللمرة الألف تشعر في داخلها بالانكسار.

أسدلت غطاءها على عجل، ثم فتحت الباب وانصرفت. كان نحيب صامت يلحق بها، وكأن كومة أحزان قد علقت بها داخل تلك الحجرة العطنة. سارت على غير هدى لا تعرف أين مقصدها. أخاديد وأنفاق وقعقعة سلاح وصيحات مجانين وسكارى تضج في رأسها، حتى تدلّى ألمها كظفيرة ثالثة بين ظفيرتين.

بدل أن تدلف إلى الشارع المؤدي إلى بيتها، أو إلى بيت أم عتيق، وجدت نفسها تسير في الحي القديم للمدينة. لم تدرِ أنها تسير من دون أن تسبل الغطاء على وجهها حتى رأت رجلاً ذا لحية كثّة يشير إليها بيديه أن تسدله. شتمته في سرّها، ومضت غير عابئة بأحد.

ثم لم تلبث أن شرعت تشتم سلمى مع كل خطوة لها، حتى امتلأ صدرها فطفح شيء من السباب على لسانها من دون أن تدري. في ركن ما، جلست، وأطبقت كفيها على وجهها وراحت تبكي. خرج مع بكائها بعض حزنها، فنهضت وعادت تسير باتجاه أم عتيق.

عندما رأتها، ألقت نفسها في حضنها، وأفرغت كمية أخرى من الألم.

أخبرت العجوز بما حصل معها. لم تعلق بشيء، واكتفت بمواساتها قائلة "ربما تلك هي أفضل نهاية له. ما نفع حياته إن بقي جالساً على قبرها؟ سيموت كقطط الشوارع".

بقيت غرسة في بيت أم عتيق حتى المساء. دخّنت خلالها بضع سجائر. لم تقف أمام النافذة سوى لحظة واحدة، نظرت خلالها إلى حيث قبر سلمى وكأنها تخاطبها من هذا البعد. وكأنها تقول لها "أخذته مني في حياتك، وستأخذينه في مماتك". وكأنها تقول لها "محظوظة أنت". وكأنها تقول أيضاً "ملعونة أنت"!

مع أذان المغرب، دخلت دارها. اشتمّت رائحة بخور قوية، ثم رأت جدتها تلبس ثياباً نظيفة وأنيقة، كانت غرسة قد خاطتها لها منذ زمن. بدا أنها تنتظر زائراً.

علا شحوب وجه غرسة. ولو لم ترَ جدتها على تلك الحالة من التهيّؤ في ملابسها النظيفة، ما كانت لتجد ما يكفي من الجهد لتسألها عن سبب البخور والثياب.

"حسناً فعلت أن عدت الآن. أريدك أن تستحمي وتلبسي أحسن ثيابك، فهناك ضيوف سيأتون إلينا بعد صلاة العشاء".

"ومن يكونون؟".

"ستعرفين عندما يأتون".

دخلت إلى غرفتها، ونزعت ثيابها، وعلى السرير ألقت بنفسها وكأنها ثملة. أفكار ضبابية تملأ رأسها وكأنها عبق دخان سجائرها تنسل داخلها، وهي تفكر في سلومي وحديثه، وسلمى التي يريد أن ينضمّ إليها. وتساءلت إن كان قد عاد الآن إلى مكانه فوق قبرها ينتظر ميتته. وردّدت في سرّها "ليته يموت... ليته يموت".

ظلت مستلقية على سريرها نصف ساعة حتى سمعت جدتها تستعجلها في لبس ثيابها والاستعداد لاستقبال الضيوف.

قامت إلى خزانة ثيابها من دون أن يفارقها إعياؤها. وفيما هي تنتقي ما ستلبسه بتثاقل، رأت الثوب الأبيض الذي اشترته لسلومي. خطر لها أن تمزقه، أو تبصق عليه. لكنها تركته في مكانه. صرفت تفكيرها التماساً للنجاة من لهيب صدرها، وراحت تسأل عن الضيوف من يكونون؟

تجمدت مكانها لحظة وهي تمسك بأحد فساتينها، ثم انطلقت إلى جدتها التي كانت في المطبخ تعدّ بعض الطعام والقهوة التي فاحت رائحتها.

"من هؤلاء الضيوف يا جدتي؟".

"ألم تلبسي بعد؟".

"من يكونون؟".

التفتت إليها الجدة وهي تنفض الماء عن يديها وقالت "عريس قادم لخطبتك".

كيف ومتى دبّرت الجدة كل ذلك؟

"عملت على الأمر منذ أيام..."، قالت الجدة لحفيدتها، "ولو أخبرتك عنه ما كنت لأضمن حضورك. لكنك هنا الآن. فانتظري وانظري ثم قرري".

* * *

فيما عاد سلومي إلى مكانه، ينظر بين حين وآخر إلى نافذة أم عتيق حيث كانت غرسة تقف طوال الأشهر الماضية، كانت هي تجلس بجوار جدتها، في بيتهما المتواضع، أمام رجل تصحبه امرأة. ما كان لغرسة أن ترفض رؤية القادم لطلب يدها. ولا اعتادت أيضاً أن توافق جدتها على استقبال أي منهم، ثم تبحث في ما بعد عن سبب للرفض، مقنع أو واه.

لكن حتى غرسة، ما تخيّلت أن الوضع هذه المرة سيختلف.

عمر الرجل يقترب من خمسين عاماً، ولا يزيد عمر المرأة التي معه على ثلاثين. كانت له طلة مهيبة، وحنان يشع من عينيه. ومن تحت شماغ أحمر يضعه على رأسه، بانت بعض خصلات شعر أبيض غزير.

تساءلت، إن كان الرجل هو العريس، فمن تكون المرأة التي معه؟

بعد أن رحّبت بهما الجدة بما يكفي، وقدمت القهوة، تحدث الرجل وابتسامة عذبة تعلو وجهه. قال بلا مقدمات إن له ابناً

يدرس في الخارج. عمره خمسة وعشرون عاماً، وهو يريد أن يطلب غرسة له.

ليس هو العريس إذاً. لكن لو قدّر لها أن تحب رجلاً وتتزوجه، غير سلومي، لكان هذا الرجل الجالس أمامها الذي يطلبها من أجل ابنه.

قال الرجل أيضاً، إن قرابته التي تربطه بالجدة من بعيد، تجعله واثقاً من حسن اختياره. هو يسكن في مدينة جازان جنوبي البلاد منذ أكثر منذ خمسة وعشرين عاماً. وهناك أخبروه عن غرسة، وجمالها وشخصيتها، فأتى بصحبة ابنته البكر يطلب يدها.

أنقى ما في الرجل، بخلاف حديثه ومظهره، أنه ليس من ساكني الحي. فكرت غرسة. تمنّت لو بقي الرجل يتكلم من دون توقف. فقد بقيت تنظر إلى شفتيه كلما أمكن، وكأنها تصغي إلى شاعر يتغزل بها. كان يخرجها بكلماته وصوته الرخيم من إعيائها وفكرها المضطرب بعد لقاء سلومي. انتبهت إلى أن الرجل ينتظر ردّها عندما وكزتها جدتها بلطف وهي تسأل "هاه يا ابنتي... ما رأيك؟".

لم تقوَ على النظر إلى عيني الرجل المترقبتين لردّها، فنظرت إلى الأرض قبل أن ترفع رأسها وتنظر إلى المرأة بصحبته حتى لا يفهم أن صمتها موافقة خجولة.

أخرجت ابنة الرجل صورة لشقيقها، وأعطتها لغرسة. نظرت إليها فرأت شاباً فيه شيء من ملامح والده. لكنه أكثر امتلاءً منه. تعلوه سمات طفل أكثر منه رجل راشد. بشرته داكنة حتى لتبدو

عيناه كعيني قط في حلكة ليل.

"ما رأيك فيه يا ابنتي؟"، سأل الرجل.

بصوت هادئ أجابت "أريد فسحة من الوقت لأفكر".

"هذا حقك يا ابنتي"، قال الرجل وغرسة تغرس عينيها في عينيه، وكأنها تبحث عن مغزى تلك المفردة الجميلة التي نطق بها وهو يقول كلمة "ابنتي". جمال عينيها، وثباتهما في عيني محدثها، كانا يتحدثان أيضاً بما هو أكثر من حنان الأبوّة.

لم تنطق ابنته بأكثر من قولها "أنت جميلة يا غرسة، كما قالوا لنا تماماً. وكم أتمنى لو تكونين زوجة أخي".

ردّت بابتسامة، وهي تمد يدها باتجاه المرأة تعيد إليها صورة العريس.

"من حقك أن تريه وتجلسي معه أيضاً"، قال الأب، "ولن يكون هناك قران قبل أن تقتنعي به، فهي حياتك. لكن هذه صورته قد رأيتها بأي حال لتعرفي كيف هو شكل طالبك".

"هل سيعيش في الخارج أم سيعود إلى هنا؟"، سألت الجدة.

"بقي له عام واحد فقط قبل أن ينهي تعليمه ويعود. سيعمل في الاتصالات. هكذا قال لي. وسيكون مقرّه هنا في جدة. وسيأتيان دوماً لزيارتك، وقريباً إن أراد الله يأتيانك بحفيد جميل".

من قلب أعماقها، شعرت غرسة بغبطة فارقتها منذ زمن. منذ وفاة سلمى بل وقبلها. سعادتها في تلك الليلة برؤية الأب كانت أعظم من سعادة فتاة بشاب يتقدم لخطبتها.

وكأنه سهم اخترق عقلها، حضر سلومي إلى ذاكرتها. جلس

في إطار الصورة التي تراها للضيفين. الخلفية هو، وفي الصورة أمامها الرجل المهيب، الوسيم، المثير، وابنته.

برقة لم تعهدها في ذاتها، أجابت وقد تمنت لو اقتربت من الأب "هل أتصل بك إن أردت ردّي؟"، سألت من دون تردد ومن دون أن تلقي بالاً إلى دهشة سكنت عيني جدتها مما تقول.

أجاب الرجل الوقور بتواضع واحتشام "نعم... نعم... هذا هو رقمي. اتصلي بي ساعة تشائين".

طوت الورقة وأخفتها في يدها. كانت دافئة. ومن جديد حضر سلومي.

قاطع الأب حضوره وقال "خذي من الوقت ما يكفي. وإن شئت عدت بعد أسبوع أو شهر لأسمع الرد منك".

أفكار وأصوات كثيرة دخلت إلى رأس غرسة. زهور، قبلات، سيوف، وخناجر.

"حسناً، سنمضي الآن"، قال الأب مخمداً كل صوت في رأسها.

"عشاؤكما جاهز، ولا انصراف قبله"، قالت الجدة وهي تمسك بيده تدفعها إلى الأسفل كي يعود إلى جلسته.

بعد عشاء دسم وأحاديث متنوعة، ونظرات مختلسة كثيرة إلى الرجل ذي الحضور الطاغي، وصورة سلومي الحاضرة هي الأخرى، غادر الضيفان.

"ما رأيك يا غرسة؟"، سألت الجدة.

إن أجابتها بشيء الآن، فكل ما ستقوله خاطئ. لو قالت هي

موافقة، أو ستفكر، أو لا بأس به، فستخدع قلبها. ولو قالت هو سيّئ، ولا أرضى به، فهي تخدع عقلها.

لم يكن الفرق بين نعم ولا هو سلومي، بل ضياع أحسّت به وهي واقفة بقرب جدتها على مجلى المطبخ تعينها على غسل الأطباق.

"ما رأيك يا ابنتي؟"، عادت الجدة تسألها.

"سأفكر في أمرهما".

"أمر من ومن؟"، تساءلت الجدة مستغربة.

استدركت غرسة..."أمر الخاطب".

انسلّت إلى غرفتها وألقت بجسدها على السرير، منهكة وكأنها تسلّقت للتو واحدة من قمم خيباتها. جاهدت كي تهنأ بنومة ليلة واحدة تغسل آلام النهار. لكن سلومي لم ينم. لا في واقعه ولا في فكرها. وكأنه كان بقربها يحثّها على مساعدته. تلطمه حوائط المقبرة، وهو متشبّث بتراب سلمى، ويمد يده في الوقت ذاته إلى غرسة يستجديها أن تساعده.

ثم أخذت تفكر في الكهل الذي كان هنا، فيزيحه سلومي، وتختلط الصورتان إحداهما بالأخرى، حتى كادا يلتحمان في جسد واحد.

في الرجل شيء جذبها. أهو حنان الأب الذي لم تعرفه؟ أم هو سلومي في كهولته كما تمنّته؟

واقع الآن وخيال الغد، يزيدان من إحساسها بالضياع، وألف شيء آخر.

عندما أغمضت عينيها ونامت، حلمت به يقف فوق قبرها هي وفي يده غرفة ماء، تشبه تلك التي رأتها في الخيمة في حلم سابق. لكن سلومي عوض أن يسكب الماء عليها أو يسقيها، قرصها في المكان ذاته وهو يقول "قومي من أحلامك. أنا هنا".

هبّت من نومها فزعة. وضعت يدها على موضع القرصة القديمة فأحسّت بألم خفيف، وجعلت تلهث. شرّعت نافذتها ووقفت تلتمس هواءً عليلاً. رأت في وقفتها تلك سلمى تقفز صغيرة أمام بيتها. تلتهم حلوى سلومي وتضحك بسخرية وهي تنظر إليها. أين ستهرب منهما؟

ارتفع صوت أذان الفجر، مترافقاً مع أصوات السكارى في الحي ومواء القطط. ولأول مرة تردد خلف المؤذن... "لا إله إلا الله".

عادت تسترجع صورة خاطبها. نعم، هو طفل بالنسبة إليها. وفي سرّها رددت "ليتك كنت أباك!".

رغم قوتها كانت كملايين النساء غيرها في حاجة إلى ما هو أعظم من الحب... إنه الحنان الذي لم تعرفه سوى في خيالاتها مع سلومي. وها هو حنانه يقوده إلى قبرها. كان أدنى قدر منه يكفيها. يد تربت رأسها، أو يد مجهولة تمسح على شعرها بخشوع العابدين، هو كل ما تحتاج إليه. ولأنها كذلك، فقد أعجبها الرجل الذي طلبها لابنه، وليته طلبها لنفسه. لكن... هل كانت لتوافق لو حدث ذلك بالفعل؟

إن كانت مهابة الرجل، ووسامته أيضاً، قد جعلتا غرسة

تفكر فيه، فليس سلومي بريئاً من شطط ما ذهبت إليه. فموقفه الأخير،عندما طلب منها أن تساعده كي يموت ويدفن مع سلمى، أعطاها إحساساً بعدمية وجودها في حياته. كانت خيبة عظيمة فيه. وعادت تنعته بـ"الأناني التافه"، وكررت ثانية "ليته مات".

وكأنها كانت في حاجة إلى شتمه، فقد استطاعت مع بزوغ الفجر أن تنام بضع ساعات بعمق.

في الصباح، قطع الصمت العالق في فضاء المنزل صوت جرس الباب، الذي قليلاً ما كان يقرع!

فكرت وهي تفتح عينيها بتثاقل إن كانت تحلم، أم هو صوت طفل. هبّت جالسة. لكن الصوت ما لبث أن تحول إلى رجل... إنه صوت سلّومي!

* * *

أيكون قد ترك المقبرة أم لم يفعل؟ هل زارها في منامها، في بيتها، في جسدها، أم لم يفعل؟

تساءلت ثم هبّت مذعورة لتجد جدتها تجلس على سريرها وهي تقرأ بعض الأدعية وتنفث في وجهها المضطرب.

"أين هو؟".

"من؟".

"سلّومي".

"ابن جارنا خالد؟ الله يعلم أين هو. ثم ما لنا وله. بسم الله،

ولا حول ولا قوة إلا بالله"، وعادت الجدة تكمل أدعيتها وتنفث في وجه حفيدتها.

"ألم يقرع أحدهم الباب؟".

"أعوذ بالله... أعوذ بالله. إنها العين يا ابنتي".

"ماذا حدث يا جدتي؟".

"لا أعلم ما أصابك. وجدتك تسيرين إلى الباب وتفتحينه وكأنك تحادثين أحدهم. لم يكن هناك أحد وأخذت تبكين. لقد كنت تبكين يا غرسة حتى أبكيتني معك. ولا أعلم أي قوة أعطاني الله إياها كي أعيدك إلى سريرك. أخبريني يا ابنتي... ما الذي يحدث معك؟ حالك ليست كالسابق؟".

"لقد سمعت جرس الباب، ثم أتاني صوت... رجل".

"قد يكون نظري ضعيفاً، لكن الله عوّضني بسمع قوي، وما سمعت شيئاً".

باتت أحلام غرسة موصولة بواقعها، كما هو واقعها موصول، بالقدر ذاته، بأحلامها.

مضى يومان لم تره فيهما. في اليوم الثالث، وجدته جاثماً مكانه. من بعيد، بدا لها حليق الذقن حسن الهندام. وبشكل يبعث على السخرية، فكرت أنه هذه المرة لا يجلس هناك من أجل سلمى، بل من أجلها هي. إنه ينتظرها كي تساعده. بعينين زائغتين، نظرت باتجاه صف القبور التي تفتح كل يوم، وهي تسير في خط منتظم باتجاه الرقم ٢١٥. حتى هي، شعرت بقشعريرة. هل لأن موعد الفراق قد اقترب، أم هي رهبة الموت؟ كلاهما يشبه الآخر، كلاهما نهاية.

ذاك الصباح، وعندما عادت غرسة وأم عتيق تجتران قصة سلومي، سألتها العجوز "لم تخبريني برأيك بعد في من تقدم لخطبتك... هل ستوافقين عليه، أم ستنتظرين المجنون الذي لا أمل يرتجى منه؟".

وقفت الفتاة صامتة أمام النافذة.

"الرأي عندي"، قالت أم عتيق، "إن مراقبتك لهذا المجنون وهو يموت من أجل امرأة أخرى، إن هو إلا موت لك".

أجابت غرسة بكلمة واحدة "أعرف"، وامتلأ فضاء الغرفة بدخان سيجارتها.

لم تكن شمس الظهيرة حارقة. ولم يطل سلومي بقاءه. رأته ينهض من مكانه ويمضي إلى حجرة خليل، مدير المقبرة. بقي هناك قرابة نصف ساعة، ثم غادر. لا تعرف لِمَ أحسّت بأن زيارته القصيرة لسلمى ذاك الصباح إن هي إلا زيارة وداع، أو تجديد عهد بالاجتماع قريباً تحت التراب. ومن جديد تساءلت إن كانت ستراه ثانية، خاصة بعد أن رفضت مساعدته في تنفيذ ما عزم عليه. لم تلبث طويلاً قبل أن تقود نفسها إلى اتجاه معاكس تماماً عندما تساءلت إن كانت هي تريد أن تراه ثانية أم لا؟ تحبه... نعم. لكن أن تساعده كي يموت من أجل سلمى...؟ لا.

وكأن أم عتيق تقرأ أفكارها، قالت "لست واثقة من أنه سيقتل نفسه من أجلها".

من دون أن تنظر إليها أجابت "من اعتاد رفقة الموتى، لن يخاف الانضمام إليهم".

”رؤية الموتى شيء، والانضمام إليهم شيء آخر“. قالت العجوز ”وعلى كل حال، فقد كان قرارك صائباً بعدم مساعدته. فإن أراد أن يموت فليحمل الذنب وحده؟“.

”هل سمعت أحداً فعلها من قبل؟“.

”لا... لكن ها قد سمعنا. هل تعلمين أنهم قد اكتشفوا قبل سنين عدة أن عمال المقابر كانوا يدفنون أكثر من شخص في قبر واحد من دون علم أحد!“.

نظرت إليها غرسة مستغربة.

”نعم... قد فعلوا ذلك. أذكر أنه كان حديث الساعة حينها. كل الصحف نشرت الخبر. مسؤول في البلدية أو الحكومة، لا أذكر، نفى الواقعة. لكن بعضهم أكد حدوث الأمر، مبرراً ذلك بازدحام المقابر، وأن لا ضير في أن يتشارك أكثر من شخص المكان ذاته، فهو يتسع لخمسة إن أرادوا. والحقيقة يا ابنتي، أن الإنسان إذا مات، لا يضيره إن كان وحده أو بجوار قبيلة كاملة، فرحمة الله تعمّ الجميع؟“.

”وما كان ردّ الأهالي عندما علموا بذلك؟“.

”إيه...“، تنهدت العجوز، ”سكنت هذه الدار منذ ٥٠ عاماً، ولست أذكر أني قد رأيت سوى قلة تزور موتاها. نحن نبكي من نحب حين موته. وداع مؤدّب لا أكثر. فور أن يطمره التراب، فكأنه ما كان... وينصرف كل إلى حياته“. أطلقت أم عتيق تنهيدة ثانية وهي تضيف ”نحن لا نريد أن يذكّرنا أي شيء بالموت... من أجل ذلك كانت المقابر كلها خارج المدن. اليوم بات الموتى

يسكنون بيننا، أو نحن من نسكن بينهم. لقد زحفنا إلى سكونهم. هكذا نحن، نخاف الموت ونزحف كل يوم باتجاهه".

"إنه سلومي... عاشق الموت"، قالت وهي لا تزال على وقفتها تلك.

"نعم... ليس لأنه مخلص لسلمى، بل لأنه أبله".

نظرت غرسة إليها، ثم أشعلت سيجارة ثانية من دون أن تعقب على كلام العجوز التي مضت تؤكد "لعل الموت راحة له، لكن لا تحملي ذنبه، وإن كان من شيء آخر أقوله لك، فهو ألا تصبحي مثله. فإن كان جنونه قاده ليقرر موته ودفنه، فلا تدفني نفسك معه، وامضي في حياتك".

نفثت دخانها وسألت "هل صحيح أن الموتى يصرخون في قبورهم؟".

"يقولون إن العصاة منهم يصرخون من عذاب ما يلقونه نتيجة سوء أعمالهم؟".

"وهل تصدقين الأمر؟".

"لو كانوا يفعلون يا ابنتي لسمعت صراخ أبي عتيق ولو كنت في آخر الدنيا".

"وهل هو مدفون في هذه المقبرة؟".

"بل في مقبرة الأسد... ليست بعيدة من هنا. هكذا قالوا لي أنه مدفون هناك والله وحده يعلم".

"وهل زرت قبره من قبل؟".

"لا... إن لم يعِ ألمي وهو حي، فهل سيسمعني وهو ميت؟

كما أنهم يمنعوننا من زيارة المقابر وأنت أدرى بذلك. ولعل هذا أفضل لكلينا؟".

أطفأت سيجارتها وأخذت تنظر إلى السماء الصافية وظهرها إلى العجوز "سيتقلب العشرات مكان سلمى"، تمتمت.

"ماذا قلت يا ابنتي؟".

"قلت... ما نفع أن يدفن سلومي في قبر سلمى، وما عاد فيه سوى بقايا منها؟ هل تعتقدين يا خالتي أن الروح تبقى مكانها إن اختفى الجسد. أعني أنها تبقى حيث دفنت؟".

"عندها ستنفجر القبور من زحمة الأرواح فيها"، قالت أم عتيق بضحكة خفيفة.

اقترب المساء، ولم يعد سلومي بعد. رغم ما أظهرته له من تشكيك في ما عزم عليه، فقد كانت خائفة من أن يكون، بالفعل، أقوى من شكها، وقد يطول الأمر قبل أن تسمع بخبر موته. الوقت ينفد، وهي من نافذتها هنا تستطيع أن ترى سلسلة القبور الجديدة تفتح باتجاه قبر سلمى. وعاودتها القشعريرة ذاتها.

تلفعّت بعباءتها، ومضت إلى بيتها. كادت تدخل إلى المدينة القديمة لولا تأخر الوقت. لا تعلم لِمَ أحسّت بأن الطفل الغريب موجود الآن في مكان قريب منها. أحسّت أيضاً بأن سلومي نفسه قريب رغم غيابه. هو لا يستطيع أن يبتعد كثيراً. تهادت في مشيتها كمن تنتظر من يتبعها أو يقول لها شيئاً. وفكرت للحظة أنه لن يموت من دون مساعدتها، ولا بد أنه الآن في مكان ما ينتظر رداً منها، كما هو الرجل الذي طلبها لابنه ينتظر رداً منها، وجدّتها

تنتظر هي الأخرى رداً، وكأن العالم "يقف على قدميه في انتظار كلمة مني"، حدثت نفسها ساخرة.

سلومي هو الأهم حتى هذه اللحظة. لكن هل عرف يوماً ما تحمله في صدرها من حب له؟ هو قطعاً ولا شك أعظم من حب سلمى له، بل وحبه هو لسلمى؟ كيف له أن يعترف بمعرفته وهويطلب منها أن تساعده على الموت ليدفن مع منافستها عليه؟ إنه يقتلها مرتين: بموته، وبدفنه معها.

ارتفع أذان المغرب وهي جالسة، فوق سريرها، حائرة في أمرها. أحسّت بالمؤذن يخترق طبلة أذنها، وكأنه يحرّضها على مغادرة المكان. ثم تداخل صوته مع قرع على الباب. نهضت، وأصاخت السمع محاولة فصل صوت المؤذن عمّا يدور خارج حجرتها. هل هو قرع حقيقي هذه المرة؟

نعم... إنه كذلك ولا شك. فور أن شرّعت الباب رأت الطفل ذاته، الذي سمعت صوته صباحاً قبل يومين. ناولها ورقة مطوية. أخذتها وسحبت الطفل من يده إلى الداخل. نقدته عشرة ريالات، وجلست تتأمل فيه قبل أن تنظر إلى الورقة... "كيف أنت يا علي؟".

"بخير"، أجابها وانصرف.

"ما الذي تخفيه هاتان العينان الجميلتان؟"، همست غرسة وهي تراه ينصرف على عجل.

"من تحادثين يا غرسة؟". أتاها صوت الجدة وهي عائدة من الحمام بعد أن توضأت.

"لا أحد هناك يا جدتي".

نظرت إلى الورقة في يدها "قابليني بعد صلاة العشاء في بيت الإمام".

"كانت تلك الحجرة هي بيت الإمام إذاً"، قالت في سرها، "يا له من مغرور... هل يعتقد أني طوع إرادته؟ لن أذهب".

قبل أن تنتهي الصلاة، تلفّعت، وذهبت إليه.

* * *

كان المصلون يخرجون من المسجد. لم تبالِ وهي تشق طريقها بينهم إلى الحجرة الملاصقة للمسجد القديم عبر الزقاق الضيق حيث قادها الطفل أول مرة.

بعد لحظات كان يجلس قبالتها. هي على السرير، وهو على كرسيّه الخشبي. وعلى أطراف السرير أوراق متراصة بانتظام بعضها فوق بعض.

"لم يبقَ الكثير من الوقت"، قال لها.

سرت عبارته في جسدها كتيار كهربائي.

تفرّست ملامحه على ضوء الغرفة الشحيح. لم يبدُ عليه الحزن قدر ما فضحه إعياؤه. لكن في الحالتين، ما كان لأحد يراه أن يدرك ما عزم عليه.

"هل ما زلت مصرّاً على جنونك؟".

التقط بعض الأوراق وقدمها لها "انظري". حملت الأوراق

رسومات وأرقاماً. نظرت إليها بطرف عينيها بلامبالاة متعمّدة. "انظري إليها أكثر"، قال آمراً. التقطت الأوراق فرأت رسوم تفاصيل كثيرة للمقبرة، تتقاطع عليها صفوف طويلة على شكل خطوط، يحمل كل منها رقماً. إنها القبور. على الرقم ٢١٥ وضع دائرة. قبله ببضعة خطوط وضع دائرة أخرى. قال لها، "لقد وصلوا إلى هنا". نظرت إلى حيث وضع إصبعه. كان يرتجف. قال لها "أعرف أن في داخلك غضباً عليّ. أنا لا أطلب مساعدتك الآن، بل أرجوها!".

"ولَمَ لا تطلبها من والدها... خالد؟".

"سيمنعني، وتعرفين ذلك".

"ولَمَ تعتقد أني سأوافق؟".

"لأنك لم تتخلّي عني طوال الأشهر الماضية. أعرف أنك كنت تراقبينني. وحدك كنت معي... من تلك النافذة".

"كنت هناك... لأني أحبك. ولأني كنت آمل أن تعود إلى صوابك، وإليّ أنا. لكنك اليوم تريد أن أساعدك على الابتعاد عني... فكيف تتخيّل الأمر؟".

زمّ شفتيه من دون أن يبعد ناظريه عنها.

"لم أكن أدرك أنك أنانيّ إلى هذه الدرجة".

"أنا...؟".

"نعم... أنت. فأنت لا تتركني وحدي فقط، بل وتتركني من أجل أخرى ما عاد لها وجود"، قالت بغضب.

"لكنها ميتة"، أجاب وكأنه يدافع عن نفسه.

"ها أنت قلتها أخيراً... إن كنت أدركت للتو أنها ميتة، فلماذا تريد أن تموت معها؟"، أجابته بنبرة قوية وصوت يزداد غضباً.

"كنت... كنت أفكر...".

"تفكر في ماذا...؟". وأمسكت زمام الحديث غير مبالية بما يراه منها ويسمع "كنت تقتلني كل يوم. تضع خنجراً في صدري كل يوم. والآن تضع عشرة خناجر معاً. ولا أعرف الآن، هل أدعو لك أم أدعو عليك".

"هوّني عليك..."، قال وهو يضع يده برفق على يدها.

سحبتها بسرعة ونهضت باتجاه الباب.

لحق بها وأمسك بطرف ثوبها "الألم العظيم في صدرك، في صدري ما هو أعظم منه. أتوسل إليك... اجلسي واسمعيني، ثم قرري ما تشائين".

لم تقاوم كثيراً، وعادت إلى حيث كانت. لكن أنفاسها كانت تتسارع.

طأطأ رأسه قبالتها "أنا لست مثلك... لا أمل لي في الحياة. كنت أعتقد أن حبّها سينتهي بعد وقت ما. لكنه لا يزال يكبر. لم أفكر في نفسي فقط، بل فيك أيضاً. وجودي هنا يزيد من عذاباتك ولا أريد لك ذلك. أعلم أنك ستتألمين مما أفعله، لكنك ولا شك، لا شك أبداً، ستتغلبين على ألمك من بعيد".

"وهل خلقت من حجر؟ هل تعتقد أن الألم سلطة نملكها، أو تملكها أنت لتقرر متى أتألم ومتى أبتهج"، وبكت قليلاً. تركها تفرغ ما استطاعت من حزن حتى قالت "أسلمت نفسك لليأس

ولم تفارق قبرها، ولو فعلت لتجاوزت ألمك وألمي أنا".

"هل تعلمين كيف ماتت؟"، سأل ببرود.

صدمت بسؤاله.

"بضربة خاطئة على رأسها".

"سمعت ذلك... وسمعت غيره أيضاً!".

"ما لم تسمعيه إذاً... هو أنها ماتت بسببي أنا. لقد ضحّت بحياتها من أجلي، فكيف لا أفعل الشيء ذاته من أجلها؟ كيف لي أن أحيا وصوت ألمها لا يزال في أذني؟ كيف لي أن أحيا وقد كانت آخر كلمات نطقت بها هي اسمي؟". حنى رأسه في انكسار.

وضعت يدها على رأسه الحاسر. لحظة واحدة فقط، قبل أن تسحبها "لكن ما ذنبك أنت كي تموت؟".

"لست أموت من أجلها فقط، بل هرباً من حياتي الخالية من أي حب".

"لقد اختلط الأمر علي... فهل تريد أن تموت من أجلها، أم هرباً من حياتك؟"، سألته وكأنها لعبة رهان، حياة وموت، وأضافت "إن كنت تموت من أجلها فبقاؤك أنفع لها من موتك. وإن كنت هارباً من حياة لا حب فيها، فأنا من يحبك هنا، وإن لم أستحق هذا الحب، فسأكون أكثر حاجة منك إلى الهرب".

"أعلم مقدار حبك... وأعلم أنني لو طلبت منك الموت من أجلي لفعلت... أليس كذلك؟".

"... أفعل من أجلك أي شيء!".

"هل ترين الأمر جلياً الآن يا غرسة...؟ أنت لن تترددي في الموت من أجلي، فكيف تلومينني على الموت من أجلها؟ كيف تلومينني على الانضمام إليها؟ إن ألمي أعظم من ألمك!".

"لا أعرف بأي منطق تربط الأمور. لكني لن أجادلك كثيراً" صمتت قليلاً ثم قالت "حسناً... كيف أساعدك؟".

ومض بريق غامض في عينيه وقال "كل تلك الأوراق التي ترينها، قضيت أياماً أعدّها. لقد درست كل شيء عن المقبرة. عدد قبورها، من يدفن كل يوم، من يأتي من الرجال والنساء... كل شيء... كل شيء، حتى إني..."، صمت قليلاً، "حتى إني استطعت أن أحدد، على وجه التقريب فقط، تاريخ وفاتي كي أضمن أن أدفن في الرقم ٢١٥. حساباتي تسير بنحو جيد، لكنها لن تفيدني ما لم أصل إلى معلومة واحدة مهمة". صمت قليلاً "يصعب عليّ الوصول إلى هذه المعلومة، فأنا كما تعرفين، لا أحمل جنسية سعودية. والأجنبي... واسمحي لو قلت ذلك، يعامل هنا بشيء من الإهمال... إنه شبه عدم. ولولا ذلك ما كنت لأشقّ عليك"!

"وما دخل هذا في موتك أو دفنك؟".

"كأجنبي، لا أضمن أن أدفن في مقبرة أمنا حواء، فضلاً عن أن أدفن في قبرها... أقصد قبر سلمى".

"لماذا؟".

نظر إلى عينيها بعمق أربكها، "لأن هناك عدداً محدداً تستقبلهم المقبرة من الأجانب، فالأولوية للسعوديين!".

باستغراب سألته "هل واثق أنت من ذلك؟".

"أخبرني بعضهم بالأمر، وقد تيقّنت منه. لا يوجد قانون رسمي أو قرار معلن. لكن هاك بعض ما كُتب"، وناولها قصاصات كتبت عن الموضوع ذاته، وأضاف "... لقد أوقفوا ميتاً ذات يوم على باب المقبرة، وهو يملك كل تصاريح الدفن المطلوبة، لأنه لم يكن سعودياً. كاد يتعفن لولا تدخل بعضهم". أطلق تنهيدة عميقة ثم أضاف "وكونك سعودية..."،

قاطعته في تهكم، "هل تريد أن أدفن بدلاً منك؟".

"أرجوك... لا تكوني مثلهم. أنت تستطيعين الوصول إلى من يقرر وجهة دفني"، ومضى بانفعال مفرط "انظري إلى هذا"، وأراها مقطع جريدة يحدد قوانين دفن الأجنبي "هذه هي الشروط... اسمعي، المطلوب: تعبئة خطاب، لا علينا، هذا سهل. ثم خطاب من سفارة بلد المتوفى. وهل أعرف سفارة أو وطناً آخر غير هنا؟ أيضا اسمعي... خطاب من الشركة أو الدفاع المدني بالموافقة. بالله عليك ما دخل الدفاع المدني؟ وأيضاً، وهذا الأسوأ، إحضار الكفيل أو بطاقته، وكفيلي، وسيدي أيضاً هو العم خالد الذي رباني، وهو رجل هرم، فماذا أقول له؟ أريد أن أدفن مع ابنتك؟ ثم حتى لو كان هو وليّ نعمتي، بل ولو كان أبي، فهل هو من سيقرر مصيري بعد الموت لأنه كفيلي؟ إن فقد الإنسان حريته قبل الموت، فهل هو قدري أن أسلب حريتي بعد الموت أيضاً؟".

بفظاظة قاطعته "وماذا تريدني أن أفعل؟ أغيّر القوانين؟ كلانا

مقيّد. أنت في حاجة إلى كفيل حتى في موتك، وأنا في حاجة إلى وليّ أمر كي أتنفس. كلنا مقيّد... ألا ترى ذلك؟". خفّت نبرتها قليلاً ثم سألته "ما الذي تريده مني تحديداً؟".

"أريدك أن تصلي إلى صاحب القرار في اختيار مكان الدفن". قال في صوت جاد وحاسم.

"ومن هو صاحب القرار؟".

"البلدية. إن استطعت الوصول إلى متنفّذ فيها، أو المسؤول عن دفن الموتى، الأجانب والسعوديين، فسيعمل لك ما تريدين. وأنا جاهز لأدفع كل ما بقي معي من مال لتحقيق ذلك. معي ما يكفي من المال. سأعطيك إياه، المهم أن أضمن دفني معها"!

في داخلها، عادت غرسة تبكي بصمت. ما كانت لتعتقد أن حبه لسلمى أعمق من مجرد البقاء طويلاً على قبرها. وما عرفت أتحسدها، وهي ميتة تحت التراب، أم ترثي لحالها وهي الميتة فوق التراب؟!

في صوت متهدّج حاولت أن تجعله ثابتاً سألته "وهل تعتقد أني قادرة على فعل ذلك؟ الأجنبي والمرأة كلاهما معاق هنا. ناقص الأهلية والعقل". التقطت أنفاسها وواصلت "للرجال الحق في الموت، لكني عاجزة أمام ما تطلبه مني. كل لعنات الحي تطاردني. ولست أستبعد لو دخلت دائرة حكومية بثيابي هذه أن أطرد كعاهرة".

"لن يفعلوا ذلك، لأنك سعودية، ولأنك... جميلة"!

نظرت إليه وكادت تقول "ليس جمالي للبيع"، لكنها عوض ذلك قالت "لو صدق ما تقول، ما عرفت وجدتي الفقر؟".

"قلت لك... لديّ ما يكفي من المال، خمسون ألفاً أو أكثر، خذيه و...".

قاطعته بغضب "اذهب إلى الجحيم أنت ومالك. هل تعتقد أني لو شئت مساعدتك فمن أجل مالك؟".

"لا... أقسم بالله ما عنيت ذلك. أرجوك... أرجوك...".

نهضت غرسة وسارت خطوتين حتى وقفت قريباً من النافذة الحديدية "هل هذه غرفة إمام المسجد؟".

"نعم... اسمه الشيخ عابد".

"ألا تخشى أن يأتي إلى هنا فيجدنا؟".

"لن يأتي... فقد أخبرته بأني سأراك هنا".

نظرت في أرجاء الغرفة فرأت عوداً للعزف، وبعض الكتب ومن خلفها أسطوانات مدمجة لأغان وضعت بترتيب على رفّ صغير.

"يبدو أن صديقك الشيخ صعلوك أكثر منه إمام مسجد".

"إن رأيت أنه كذلك، فمعرفة الصعاليك أمر جيد، فهم قد يدلّون على الفضيلة أكثر مما يفعل الحكماء".

"وما رأيه في ما عزمت عليه؟".

"لن يمنعني ولن يساعدني".

هزّت رأسها، وعادت إلى مكانها "والآن... هذا كل ما تريد مني، أليس كذلك؟".

التقط ما يشبه السجل الصغير، وفتحه أمامها "انظري إلى هذا". أراها مجموعة أرقام. يقابل كل رقم اسم وتاريخ. قلب لها الصفحات على عجالة "هذه قائمة بكل من دفن في المقبرة

خلال الأعوام العشرة الأخيرة. حصلت عليها من خليل، مدير المقبرة. رفض أول الأمر ثم وافق. انظري إليها". أخذت غرسة السجل "وما هذه الأرقام؟".

"كان لا بد أن أعرف من الذي دفن في قبر سلمى ذي الرقم ٢١٥ قبلها هي، وفي أي تاريخ كي أستطيع أن أحدد الوقت الذي عليّ أن أموت فيه وأدفن مكانها".

"أنت مجنون بالفعل".

"انظري هنا على سبيل المثال، كان آخر من دفن في قبر سلمى، قبلها مباشرة، طفل عمره تسعة أعوام. اسمه يحيى. قضى في حادث سيارة. قبله كانت هناك سيدة شابة وطفلها، قضت وهي تضعه، ودفنا معاً. وقبلهما كان..."،

قاطعته، "إنه قبر مليء بالآلام". ثم رفعت صوتها "هل هذا هو المكان الذي تريد أن تسكن فيه؟".

"نعم..."، قال سلومي بثقة وكأنه يؤدي قسماً عسكرياً، "حتى لو أكلت الأرض عظامها، فكم يسرني أن تأكل عظامي الأرض ذاتها. إن كانت روحها في السماء حيث لا أعرف أين، فعلى الأقل أعرف أين هو جسدها".

بدا أن صبرها على ألم حوارها معه كعقيفة تنتزع من لحمها، فنظرت إلى ساعتها ونهضت "لا بد أن أنصرف... لا أستطيع أن أتأخر على جدتي أكثر من هذا".

حاول أن يبقيها أكثر، ولما يئس سألها "هل أراك غداً؟".

نظرت إليه وهي تفتح الباب، وانصرفت من دون أن تجيب.

مارس/آذار

الأسبوع الأول

انقضت عشرة أشهر كاملة على وفاة سلمى. ربما اندمل شيء من جرح والديها، لكن جرح سلومي يبدو كأنه ابن اللحظة.

بعد أن انصرفت غرسة دخل الإمام، الشيخ عابد، يلوك سواكه وعلى كتفيه عباءة سوداء فوق ثوبه القصير حتى الكاحل. رأى سلومي جالساً كعجوز هرم فوق الكرسي الخشبي. عيناه زائغتان لا تقرأ فيهما شيئاً. وقف على رأسه وأخذ يشتمّ "رائحة أنثى..."، قال مداعباً، "هل كانت هنا؟".

أومأ سلومي برأسه.

أمسكه عابد من يده وقال "تعال معي".

سار به إلى بداية الشارع باتجاه المقبرة. ومع أن الليل قد حلّ، ويقفل الباب فلا يسمح لأحد بالدخول حتى فجر اليوم التالي، إلا أن سلومي من أهل الدار، الأحياء منهم على الأقل. فور أن رآه أحد الحراس أخبره بأن الرجل الطيب قد سأل عنه أكثر من مرة. إنه خالد، والد سلمى، "كان يبحث عنك". لقد مضى وقت لم يرَ

فيه أحدهما الأخر.

"إن عاد ثانية فأخبره أني بخير"، ردّ بصوت ثقيل مثل حزنه، ونقد الحارس بعض المال.

سارا، هو وعابد، بمحاذاة الحائط الجنوبي، إلى اليسار من الباب الرئيسي حيث قبر سلمى ثم وقفا عليه.

"هذا هو، أليس كذلك؟". سأل الشيخ.

هزّ سلومي رأسه.

"حسناً، ما زال بصري جيداً، فقد عرفته من سواد ما علق بترابه من الحلوى"!

لم يقوَ سلومي على الوقوف طويلاً، فأرخى جسمه على حرف ناتئ يحيط بالقبر. ودفن رأسه بين كفيه والشيخ ينظر إليه من وراء كفيه اللذين رفعهما يقرأ الفاتحة. وبابتسامة قال "أنا أقرأ عليكما معاً... والآن أخبرني، هل تريد أن تدفن هنا إذاً...؟ في هذا القبر؟"، هز رأسه.

"حسناً، لا يبدو ذلك أمراً عسيراً"، قال عابد. ثم سار باتجاه صف طويل من القبور القديمة التي فتحت في انتظار ساكنيها الجدد. وقف على بعضها يتأمل غورها. لم تكن تبعد كثيراً عن سلمى. سبعون أو ثمانون يفصلهم عنها فقط.

رجع الشيخ إلى حيث يجلس سلومي وقال "بالفعل... إنهم يقتربون بسرعة"، ثم أخذ بيده ليغادرا. سلّم عليه معظم العاملين هناك، وهم يسألون عن غيابه المتقطع، فكان يرد بابتسامة باهتة.

"لا تخافوا... قد يعود إليكم قريباً"، ردّ عليهم الشيخ بنبرة

ساخرة، وسأله "أليس كذلك يا عزيزي؟".

"هل تهزأ بي؟".

"بل أهزأ من الموت. هيا بنا يا صديقي".

مضى الرجلان باتجاه المدينة القديمة. بعض الأزقة التي أعيد ترميمها وتركيب الإضاءة فيها بدت معتمة ثانية. حتى الفئران التي هجرت الحي، عادت تنتشر في أرجائه. وازدادت معاركها شراسة ضد القطط التي كانت تهرب منها.

في عتمة الليل، كان ثوب الشيخ عابد الأبيض على بشرته الداكنة يعطيه شكل شبح يتحرك. وما كان الرجل الذي يسنده بإحدى يديه، أي سلومي، ليبعد هو الآخر عن سمات الأشباح العليلة بجسمه الهزيل. لم يتحادثا كثيراً طوال الطريق حتى وصلا إلى المقهى ذاته، على سطح أحد الأبنية في سوق التمور، والذي يستتر الشيخ في إحدى زواياه ليدخن نرجيلته.

قبل أن يصلا، قال عابد مبدّداً غيمة ثقيلة سكنت فوقهما "ليتهم هنا يحرقون الموتى كما في الهند! لا قيمة للجسد... العبرة في الروح. سلمى الآن، هي روح نقية أياً كان ما فعلته في حياتها. جسدها لا قيمة له. وأنت تريد اللاقيمة تلك، وتغفو عن الأمر الأهم والأعظم".

"وما هو الأهم والأعظم في رأيك؟"، سأله سلومي وهو يستوقفه من ذراعه.

"روحها... التي تراقبك الآن... وتعلم ما تفعل"!

وكأنه سُرّ بما قال عابد "هل تعتقد أنها تعلم بمقامي على قبرها... مطمئنة بوجودي قربها؟".

"قلت إنها تعلم... ولم أقل إنها مطمئنة بذلك"!

في المقهى، أحضر أحدهم نرجيلة الشيخ، وإبريقاً خزفياً من الشاي المعتق. بعد أن سحب أنفاسه الأولى، التفت إلى سلومي وقال "سأكون صريحاً معك... أقدّر حبك لسلمى، لكنني أقولها ثانية إنك لا تملك القدرة على قتل نفسك من أجلها".

بحدّة أجابه "أنا لست ضعيفاً".

"ليست المسألة أن تكون ضعيفاً أو قوياً، بل أن تكون عاقلاً. وأنا واثق بأن عقلك هو من سينتصر".

"وهل يعيد العقل سلمى إلي؟".

"... وهل سيعيدك الموت إليها؟".

"هو سيأخذني إليها"!

"ستذهب إليها ذات يوم... فلمَ العجلة؟". قال عابد وعاد يكركر ماء نرجيلته.

"أريد أن أكون معها... لا أحتمل أن يدفن أحد مكانها. لا أتصور أن جسداً آخر سيكون معها".

"آااه... رحمك الله يا سلمى..."، قال الشيخ، "أعتقد أن الله قد لطف بها. فما كنت ستفعل لو تزوجتها وأنت تغار من ميت أن يدفن في قبرها؟!"، زفر سلومي ولم يعلق، "ثم من قال إنه سيكون هناك جسد؟ هل هي قديسة؟"، سأل عابد.

"لعن الله دود الأرض إن كان قد مسّ شيئاً من جسدها" قال سلومي

"ومن أين يأتي الدود في جوف القبر...؟."

"لعن الله دون الأرض إن كان قد مسّ شيئاً منها" قال سلومي!

"هو يأتي من الذباب الأزرق. هل سمعت عنه؟ فإن كنت ميتاً فوق القبر، كما رأيتك من قبل، فسيأتيك هذا الأزرق ويضع بيضه الذي يصبح دوداً في جسدك. أما إن أصبحت في الأسفل، بين التراب، فلعله لا يصل إليك؟". ثم أضاف ضاحكاً "هكذا سترى أن وضعك في الأسفل سيكون أفضل"!

"لن يكون هناك دود إذاً؟"، سأل سلومي وكأنه ظفر بجائزة.

"لا... لن يكون. بل قد يأنف الدود من أجسادنا بعد أن سكنتها كل ضروب الحقد والحسد. وظني أنه لو أكل شيئاً منا فسيموت مسموماً. على أي حال، لنعد إلى موضوعنا. أخبرني يا فتى، هل تؤمن حقاً بأنها تنتظرك أم هو خيالك من يخبرك بذلك؟!".

"نعم... هي تنتظرني. حتى ولو لم تكن كذلك، فلن أدعها وحدها. هل تعتقد أن جسدها سيرحل من هنا؟ لماذا إذاً نقول قبر فلان وفلان؟ لا بد أن شيئاً منه يبقى هناك إلى الأبد".

خلع عابد نعليه وتربع فوق كرسيه. بقي يسحب أنفاساً من نرجيلته ويشرب الشاي بتلذذ حتى قال "الحياة جميلة ما دام فيها نرجيلة وشاي معتق، وعشاق مثلك".

"ألم تقل من قبل إن الموت شيء جميل؟".

"نعم قلت... لكن عندما يأتي إلينا لا أن نذهب إليه، وإلا كنت كمن ينزل من القطار في غير وجهته الصحيحة. ستعلق روحك في فضاء لا نهاية له".

فجأة... وقف أمامهما بلا توقع الطفل الصغير ذاته، بعينيه الزرقاوين. وبهدوء جلس على كرسي مرتفع قبالتهما وكأنه معتاد

فعل ذلك، وبقي صامتاً يحرك ساقيه في الهواء.

استغرب سلومي رؤية الطفل هنا. لكن الشيخ لم يفعل. بل بدا أنه يعرفه وربما توقع حضوره، وطلب له زجاجة بيبسي. ثم قال موجهاً حديثه إلى سلومي "هل تعتقد أن الله سيغفر لك ما ستفعله بنفسك؟".

من دون أن يزيح نظره عن الصبي أجاب "حبي هو ما سيغفر لي... ورحمة الله".

"رحمته تصيب الأحياء قبل الأموات...".

"لكن الأموات أكثر حاجة إليها. والله أعلم بذلك منك ومني".

"والله إنك لأحوج إليها من كل موتى التاريخ. لكن حسناً... دعنا من الغيبيات وأخبرني، هل قررت الفتاة أن تساعدك؟".

"ستفعل. هي مترددة لا أكثر"!

"إن كانت تهيم بك كما أخبرتني، فلست ألوم خوفها بين أن تساعدك فلا تعود تراك، وأن تتخلى عنك فتخون حبها لك". ثم أخرج قطعة حلوى قدمها إلى الطفل الذي التقطها وغادر بابتسامة صافية بعد أن أنهى نصف زجاجته.

"هل تعرف هذا الطفل؟"، سأل سلومي.

"وهل تعرفه أنت؟".

"رأيته من قبل".

"وهل لاحظت شيئاً عليه؟".

"شيئاً مثل ماذا...؟".

"إنه يشبهك، وكأنه ابن لك"!

"لم ألحظ ذلك. فلست أملك لون عينيه. لكن من يكون؟".

"إنه أنت"!

نظر سلومي إلى محدثه وهو يسحب نفساً من نرجيلته، ثم واصل حديثه وكأنه ما قال شيئاً "أخال الفتاة تعيش ألماً عظيماً بسببك".

"آمل ألا تنساق كثيراً وراء عاطفتها".

"ولِمَ لا تفعل أنت الشيء ذاته...؟". ثم مال عابد باتجاه سلومي وأضاف بجدية "أكثر من عرفت من الرجال هم الإمام الذي جعلني إماماً مكانه، وأنت، وكلاكما بلا عقل".

"لو أنك مكان غرسة، فهل كنت تساعدني؟".

"ماذا لو كنت أنت مكانها، فما كنت تفعل؟".

لم يجب سلومي.

"هل ترى، أنت نفسك لا تملك جواباً. لكني وكما قلت من قبل... لن أمنعك وإن كنت لا أتفق معك. ثم أنا أكثر الناس عجزاً عن مساعدتك. أنت رجل، لكنك غريب رغم إقامتك الشرعية في هذا البلد. كل ما أملكه في الدنيا هو وظيفتي كإمام بالنيابة في مسجد صغير لا تعلم به حتى دائرة الأوقاف. وصدّق أو لا تصدّق، إن بعض المصلين السعوديين تحديداً، لو علموا بأني لست سعودياً، لرفضوا الصلاة خلفي"!

صمت الرجلان لحظة، ثم أضاف عابد "في رمضان الماضي، وداخل الحي العتيق، رأيت بعضهم، وقد حسبتهم رجال أمن متخفين في زي مدني، وهم يمسكون برجل سيريلانكي يبيع

الألعاب النارية. لقد كانوا يضربونه ضرباً مبرحاً ويشدون وثاقه وكأنه حيوان هرب من قفصه. هل تصدّق أن أحداً من ساكني الحي أو حتى العابرين لم يكلفوا أنفسهم عناء الدفاع عن المسكين. بل وقفوا ينظرون إليه وكأنهم يتلذذون بمصابه؟ تصور...؟ كل ذلك لأنه يبيع الألعاب النارية. والمضحك المبكي، كما علمت لاحقاً، أنهم ما كانوا رجال أمن، بل موظفين في البلدية لا أكثر... هل تعتقد أنهم كانوا سيفعلون الشيء ذاته لو كان من يبيع تلك الألعاب هو سعودي؟ لا يا صديقي... بعد هذه الحادثة، ما عدت أرغب سوى في السير بجوار الحائط، بل وداخل الحائط لو أمكن. فكم أملك من الكرامة كي تهدر هكذا على أيدي مجانين مثل هؤلاء، لا يردعهم قانون ولا إنسانية".

"قلت موظفو بلدية...؟".

"نعم... تخيل؟ ماذا لو كانوا رجال أمن؟".

"ربما... ربما كان الأمن أكثر عقلاً".

"هذا إن وقعت على عاقل منهم".

"صدق توقعي إذاً... لن يساعدني سوى غرسة".

"ربما كان ما تقول صحيحاً... لكن حتى هي قد لا تسلم من الأذى. فهي امرأة، وقد يحظر عليها الدخول إلى دائرة حكومية. لكن لـِمَ لا... قد تكون فرصها أفضل".

أطبق صمت على المكان إلا من صوت النرجيلة تكركر.

ومن جديد... سأل سلومي "من يكون الطفل؟".

" قلت لك... إنه أنت"، أجاب عابد وبقي ينظر إلى سلومي

وابتسامة ساكنة على شفتيه ثم أضاف "حسناً... هو ابن سيدة تصنع طبطاب الجنة في الحي. ومن هذا الطفل كان أحد العاملين في المقبرة يشتري ما تصنعه والدته من أجلك"!

أسند سلومي ظهره إلى مقعده، وأمال رأسه إلى الوراء وأطلق تنهيدة متعبة وهو يطبق بيديه على وجهه "ما عدت أعرف من أنا... ما عدت أعرف ما أفعل".

"لأنك تسير في طريق خاطئ"، أجاب عابد.

"الحب ليس طريقاً خاطئاً. انظر ما تفعل غرسة... إنها تنتظرني... إنها تنتظر وهماً. أنا على الأقل لست واهماً مثلها".

"أناني أنت إلى الحد الأقصى أيها الشاب، تبحث عن راحة نفسك فقط".

"لسنا كلنا أبرياء".

"نعم... صدقت في هذا. لسنا كلنا أبرياء. لكننا نحاول أن نكون كذلك. فإن فشلنا، ادّعينا النقاء". ثم نظر إلى سلومي وقال مبتسماً "شكراً لك".

"على ماذا تشكرني؟".

"أن أثبتّ لي كم هو الحب عظيم... ومجنون"!

* * *

وكأن أم عتيق قد انضمت إلى كوكبة أفكار سلومي، فقد شرعت هي الأخرى تعدّ القبور التي تفتح وتغلق كل يوم باتجاه الرقم

٢١٥. من له أن يعرف إن كانت هي ساعات النهار الطويلة ما دفعها إلى ذلك، أم هو الزحف اللاإرادي نحو الموت؟

لم تزرها غرسة هذا الصباح... ولا اليوم كله. بقيت تنتظرها وهي تطل بين حين وآخر من النافذة.

بعد العصر رأته يجلس تحت رواق المعزين. فور أن أطلت، رفع رأسه تجاهها. بقي ينظر بضع دقائق، وكأنه يترقب طلة غرسة. أمضى المساء كله يفعل الشيء ذاته، حتى خيّم الظلام. وسط همهمات دعواتها له بالهداية والثواب إلى رشده، سدّت أم عتيق النافذة اتقاءً من نسمة باردة ونادرة في شهر مارس.

سلومي يبحث عن غرسة. كأن ميثاقاً يحتّم حضورها ومساعدته.

مع العشاء، وقف لأداء الصلاة مع عدد من العاملين في المقبرة. لم يكن فعلاً معتاداً. لكن أحدهم قال "أحمد الله أن تركت مكانك هناك".

ومن جديد عاد ينظر إلى نافذة أم عتيق المغلقة، وللمرة الألف يسأل "أين هي؟".

قادته خطاه، بعد الصلاة، باتجاه بيت العجوز. وقف أمام الباب الصدئ، ومن ورائه حلكة كبيرة. تردد... ثم واصل سيره منعطفاً باتجاه المطاعم والمتاجر في الجهة المقابلة حتى وقف على بعد خطوات من متجر خالد. رآه في الداخل يسجل بعض الأرقام على ورقة، ويحادث أحد العاملين. للحظة فكر في أن يندفع باتجاهه ويرمي بنفسه عليه. لكنه خاف إن فعل أن يستعطفه كي يعود إلى البيت. لن يعود. وإن فعل، فقد تكون تلك نهاية أعجل ممّا خطط لها.

قطع تفكيره خروج خالد من المتجر فجأة. فدفع بنفسه إلى عتمة شارع ضيق. تجاوزه من دون أن يراه. وبلا تردد، سار وراءه. كانت دقات قلبه تتسارع، وهو يدرك أن خالد يمضي باتجاه منزله. الحي الذي عاش فيه هو وهي، والذكريات التي تملأ المكان، وصوت سلمى يصدح في فضاء الحي. كيف له إذاً... أن يقترب؟ مع هذا، وكأن شيئاً يدفعه إلى هناك، واصل السير خلفه. عندما اقترب الرجلان من مدخل الحي، أبطأ سلومي سيره. عند أحد المنعطفات، لم يعد يرى خالد أمامه، فوقف حيث هو. إنها المرة الأولى التي يزور فيها الحي منذ الحادثة.

لامسته نسمة رقيقة، فتخيّل أنها سلمى تحيّيه. قواه تخور، وقد يسقط على الأرض. لكنه تمالك نفسه وإن لم يتمالك دموعه. ثم مضى في طريقه إلى داخل الحي، ببطء أكثر فأكثر، حتى وقف من بعيد أمام منزل خالد. كان ضوء بسيط وحزين يأتي من مصباح قديم فوق باب الدار. اخترقت رصاصة الذكريات رأسه. وتوالت صور كثيرة. بدأ يلهث، وتتصاعد أنفاسه. وكأنه ارتكب جريمة ما. زوى نفسه داخل أحد الأزقة الجانبية. تطلب الأمر ربع ساعة كي يهدأ، وليدرك بعدها أنه إنما يقف تحت شرفة غرسة. رفع رأسه إلى الأعلى، فما رأى ضوءاً أو سمع حركة في المنزل. عادت أنفاسه تتصاعد وهو يسير بهدوء وحذر إلى وسط الشارع الذي يفصل بين بيت سلمى وغرسة. تحاشى النظر إلى البيت الأول، وآثر البحث عن غرسة التي غابت طوال اليوم. نافذتها موصدة، ولا ضوء في المنزل من هذه الناحية أيضاً، فتساءل أين تراها تكون؟

سمع أصوات المارة من ورائه، وقد بدأت حركة الحي تدب فيه، كحاله كل مساء. صوت الكلاب يعيده إلى الأيام الماضية. القطط المتصارعة تفعل الشيء ذاته. العتمة والصخب والهدوء في آن واحد، الفرح والكآبة اللذان سكنتا الحي، كلها عادت إلى رأسه وهو في وقفته تلك. فكر هل يصعد إلى الأعلى ويطرق بابها؟ لكن إن فعل، وكانت هي وجدتها هناك، فماذا سيقول لهما؟ وماذا قد يقول بعضهم إن رأوا سلومي يدخل منزلهما، وهو ربيب خالد، وحبيب ابنته التي كانت تسكن المنزل المقابل، وشائعات الحي عنه تزكم الأنوف؟

سمع صوت أطفال يعدون من ورائه. نظر إليهم حتى ابتعدوا. للحظة شعر كأنه يرى ظهر الطفل الأزرق العينين، الذي قال عنه الشيخ عابد إنه "أنا... أنا..."، ردد سلومي في سكون نفسه وتبع الصبية. كانوا يركضون، فهرول من ورائهم، قبل أن يختفوا. وكأن حالة من الجنون مسّته تلك اللحظة، فشرع يجوب بعض الأزقة بغير هدى. كان يبحث عنهم، ويحدث نفسه، بأنه إن كنت "أنا" هو ذاك الطفل، فأين هي سلمى؟ أدركه التعب، فأسند جسمه إلى حائط قريب وهو يلهث. تمتم بأشياء غير مفهومة كمن يوقظ نفسه من جنون ما يتصور أنه يراه ويفعله.

نزع نفسه من الحائط، وعاد يسير بهدوء وهو يتلفّت من حوله يريد أن يحدد أين تراه يكون في الحي. دلف يمنة، ثم يسرة. شيء يقوده تجاه ما لا يدرك وجوده. بعد دقائق، وجد نفسه في المكان الأول، أمام دار خالد، وقبالة نافذة غرسة. بعد قليل أدرك أنه ليس

المكان ذاته، بل هو يقف أمام شيء آخر، ولعله آخر ما تمنى أن يراه.
إنه الدكان الصغير للعم صالح الذي كان يشتري منه الحلوى. تلفّت حوله وكأنه يتأكد من هوية المكان. هذا بيت عبد الرحمن، صديق الطفولة الذي ارتحل عن الحي منذ سنوات. وهذا الباب الحديدي لمنزل طارق الشريف لا يزال مكانه. تلك السيارة المعطوبة هناك لا يزال الصدأ يأكل أطرافها، والحائط خلف دكان العم صالح لا يزال على حاله متهدماً. الأرض المسورة التي كان يلعب فيها أطفال الحي لا تزال أكوام القمامة تجود برائحتها وتتراكم كحمم بركان قديم. الحي الخرب كله كما كان. لا يتغير شيء هنا، حتى البشر. إنهم حقيقة... موتى. يبدو أنهم سعداء بموتهم، إذ يشفع لهم أن لا يفعلوا شيئاً ليكونوا أفضل، ليكونوا أحياءً ثانية!

لم تتصاعد أنفاسه، ولا خفق قلبه. كل ما فعله هو أنه بقي صامتاً ينظر إلى المكان من حوله، والدكان أمامه. تراءى له الماضي القريب وكأنه بعيد عنه، حتى تخيّل العم صالح وقد غدا هرماً، أبيض الشعر أجعد البشرة.

للعم صالح شقيق بدآ تجارتهما معاً. لكن طموح أحدهما اختلف عن الآخر. واحد أراد أن يكون مدرّساً، والآخر أراد أن يحيا بسيطاً، كما العم صالح، وأولاده السبعة.

واقفاً أمام الدكان الصغير، تمتم سلومي بأسماء أطفال كان يشتري الحلوى لهم. لم يغفل ولا اسماً واحداً. تذكرهم وكأنهم يقفون أمامه. تذكر ملامحهم وسماتهم كأنه يراهم الآن. بقي يتمتم وهو يسير باتجاه الدكان. رأى العم صالح جالساً هناك ينظر في

تلفزيون صغير وضعه على منضدة خشبية مقابل صندوق آخر يجلس عليه، يضع في درج أسفله ما يحصل عليه من مال. طأطأ رأسه، متحاشياً أن يراه الكهل أو يتعرف عليه. فقد جمع حتى اللحظة من ألم الذكريات ما يكفي.

عاد يتابع طريقه وهو يفكر أي شيء دفعه إلى هنا؟ ولماذا انساق وراء خالد مسلوب الإرادة؟ أم هي إرادته الكاملة أن يستحضر روح سلمى، حيث عاشت، وروحه هو قبل أن يصيبها العطب كما بات يراها؟ أم... تراه يبحث عن غرسة لا أكثر؟

وكأن غمامة انزاحت من أمام عينيه. بدأ يدرك أين هو، وفي أي الأزقة التي أخذ يردد أسماءها كلها. إنها صورة الماضي تعود إلى رأسه الآن، كاملة بكل شخوصها، لا سلمى فقط. سار بمحاذاة البيوت التي كان يدخلها، والأزقة التي لعب فوق عتباتها ومياهها الآسنة، حتى اجتاز باب سلمى إلى اليمين، من دون أن ينظر إليه. نافذة غرسة إلى اليسار في الأعلى، هي وحدها ما نظر إليه. عاد من الطريق نفسه تاركاً وراءه ذكريات الحي، ودكان العم صالح، وصوت سلمى، من دون أن تغيب صورة غرسة عنه، يفكر في سر غيابها، ودارها المعتمة. نظر إلى الوراء وهو يتساءل عن مصير خطته إن أصاب غرسة مكروه حال دون مساعدتها له. ثم هرول نافضاً عن نفسه آخر ذرة من الحي ورائحته. اقترب من المقبرة. المحال الملاصقة لها تعج بالحركة في هذا الوقت من المساء. رفع رأسه إلى نافذة أم عتيق، فرآها مقفلة مع ضوء شحيح يأتي من وراء ثقوب الزمن فيها.

"هل تراها تختبئ منه؟ أو رافضة أن تراه؟"، تساءل من دون أن يرفع ناظريه عن النافذة. أعياه التفكير، ثم أيقن أن لو كانت غرسة خلف النافذة لشرعتها لترى ما حل به، فليست هي من يهرب أو يخاف. لو كان هو، ربما فعل ذلك... فهو يهرب ويخاف.

طرق سلومي الباب الأخضر الكبير، فتحه أحدهم وأدخله. أول ما فعله، كان أن أخرج ورقة من جيبه، فتحها تحت وهج الضوء القوي لرواق المعزين المفتوح على الفضاء من حوله. إنها واحدة من الأوراق التي رسم عليها خارطة المكان، وعدد القبور القديمة والجديدة، المفتوحة والمغلقة. من دون أن ينزل الورقة من يده، سار بها حتى وقف أمام أحد القبور التي أغلقت اليوم. بدأ قلبه يخفق وهو ينظر إلى خمسة من القبور القديمة وقد فتحت لاستقبال ساكنين جدد يتوقع وصولهم بين صلاة الفجر حتى الغسق في الغد. هو يعلم أنهم لا يفتحون قبراً إلا عندما يصل توجيه من البلدية بعدد من سيدفن.

كان عددهم ثلاثة البارحة. وقبل البارحة سبعة. اليوم هم خمسة. "إنهم يقتربون جداً..."، قال بصوت هامس ونظر إلى قبر سلمى غير بعيد عنه. ما أراحه قليلاً أن حساباته شبه دقيقة حتى الآن.

* * *

من على كرسي خشبي في بهو المقبرة، كانت عيناه، وقد علاهما إعياء مع انبلاج الفجر، تراقبان نافذة أم عتيق، وكأن حدقتاه قد

علقتا بدفّتي النافذة. لم ينم هناك، لكنه شارك في تشييع سيدة عجوز احتلت القبر الرقم ١٣١ بعد صلاة الفجر. كان هذا رقمها صعوداً بعد أن اكتمل العدد ٢١٧٠ منذ أيام. عنى هذا أنه بقي على الوصول إلى سلمى أقل من ١٠٠ روح، بل أقل من ٩٠. وفق حسابات سلومي، وبافتراض متوسط خمسة أشخاص ونصف يدفنون يومياً، فإن أسبوعين أو أكثر بقليل هو كل ما يفصل عن سلمى، ما يوافق على وجه التقريب عاماً إلا شهرين. لكن تكمن المشكلة في أن متوسط خمسة أو ستة أشخاص يومياً يؤخذ بمقياس الشهر كله. فأحياناً لا يدفن أكثر من شخص واحد، وأحياناً، ثمانية أو تسعة في اليوم الذي يلي. ونظراً إلى وجود ما يقارب ١٤ مقبرة في مدينة جدة كلها، فإن حساب من سيدفن هنا أو هناك راجع إلى البلدية، وقد يكون قرارها ارتجالياً إن غضضنا النظر عن معضلة الجنسية. من هنا تعاظمت حاجته إلى غرسة الجميلة كي تقوده إلى المسؤول في البلدية عن تحديد الأماكن. لم يضع خطة بديلة إن رفضت مساعدته أو عجزت عنها. وما كان أمامه سوى الاعتماد المطلق عليها.

هذا ما انصرف إليه عندما كان يغيب في الأيام الماضية، بعيداً عن رقابة غرسة. زيارات متكررة للبلدية التي ما شفع له الزي السعودي الذي كان يلبسه، ولا ذقنه الطويلة، في أن يصل إلى أدنى موظف يكون المسؤول بعينه عن توزيع أماكن الدفن. بعض الرشى هنا وهناك كانت تدله على الطريق حيناً، أو تشطح به إلى بعد آخر. وعندما كان يحاول أن يعود إلى نقطة جديدة ينطلق منها، كانت

الأبواب تغلق، ولا سيما إن طلب أحدهم بطاقته الشخصية. إن استمر في الإنفاق بلا حساب، فستنفد مدخراته، وهو لا يزال تائهاً. ما كان المال يعنيه. فأي نفع له إن لم يكن الآن؟ لكن حتى المال يعجز عن فتح ثغرة وسط أكوام الفوضى التي تضرب أكثر الدوائر الحكومية انتظاماً.

لذا تيقّن من أن البلدية إن كانت هي من يقرر مكان دفنه، وأنه إن كان يصعب الوصول إلى من يملك القرار، فليس أمامه سوى غرسة بأنوثتها، والمال الذي بقي معه. لكن... أين هي غرسة؟

رغم ثبات مظهره، فقد كان داخله يزداد تشظياً كلما نظر إلى نافذة أم عتيق المغلقة.

كان أكثر ما يخشاه أن يخطئ في حساباته بمقدار ضئيل يكون كافياً لأن يدفن في قبر آخر، بل وربما في مكان خارج المدينة، ولا سيما أن الأجانب لهم عدد مسموح للدفن هنا، كما قيل له.

جمع سلومي من المعلومات طوال الأيام الماضية ما يكفي لتحديد فترة تقديرية لموعد فتح كل قبر. لكن التقدير الجزافي وحده لن يكون كافياً.

التجأ قبل أيام إلى المدير خليل الذي نادراً ما يحضر. أعاد طرح أسئلة مكررة عليه حول من يقرر الدفن ومتى وكيف، إلى الدرجة التي جعلت خليل يشك في نياته. لا يمكن لخليل أن يساعده أيضاً. ثم ماذا يمكن لخليل أن يقول للبلدية "معتوه يريد أن يدفن في القبر ذي الرقم ٢١٥؟". من هو، وما اسمه، ولماذا، وما هي جنسيته؟ كل ذلك هو في غنى عنه.

رغم يأسه المتعاظم وهو يراقب نافذة أم عتيق، والأرقام تقترب بسرعة من ٢١٥، ما كان يملك سوى انتظار لا كلل يعيه. عندما شرّعت النافذة فجأة، وقف من بعيد كصنم لا يتحرك وهو ينظر إليها. لكنه لم يرَ، حتى المساء، سوى أم عتيق تطل عليه بين حين وآخر، ومن ورائها طرف ستارة تحركها الريح.

في اليوم التالي أدركه الظهر، ثم العصر، وهو جالس هناك. ينظر إلى القبور القديمة تفتح لساكنين جدد، ولا جديد من نافذة العجوز. نهض من مقعده، ليجد نفسه واقفاً وجهاً لوجه أمام خالد، والد سلمى الذي أتى لزيارته في المقبرة. عانقه وقال "أحمد الله أني رأيتك أخيراً، فقد كنت أبحث عنك. ألم يخبروك بذلك هنا؟".

بارتباك أجاب "نعم... نعم... قد فعلوا، لكن..."، قاطعه خالد "لا عليك. المهم أني وجدتك بخير. وأحمد الله أنك قد تركتها في هدوء رحمها الله. والآن... هيا معي"، وأمسك بيد سلومي يقوده، فتحرك بتثاقل واستسلام، وكأن الأمر فاجأه.

"ما بك يا بني؟ أما زلت تريد البقاء هنا؟".

نظر سلومي إلى حيث قبر سلمى وقال "إنهم يقتربون".

لم يدرك خالد ما يقصده، فحاول ثانية أن يأخذ بيده ويغادرا. سار معه وهو ينظر من ورائه إلى حيث بعض العمال يحفرون.

"لا أريد العودة إلى البيت".

"لن نعود إلى هناك إن شئت... الآن على الأقل. لكن دعني أريك شيئاً"، قال خالد وأضاف "لكن ليس في هذا المكان.

تعال معي". ساق سلومي من يده وغادرا. عندما أبدى شيئاً من تردّد، قال له خالد "لا تخف، لن نبتعد عن هنا كثيراً"، ومضى به إلى مقهى مجاور، في الجهة الشرقية من المقبرة. جلس الرجلان أحدهما أمام الآخر تفصل بينهما منضدة خشبية دبقة امتلأ سطحها بالذباب. أخرج من جيبه كيساً أبيض شفافاً فيه مجموعة من الصور القديمة.

"انظر يا سلومي... انظر إلى هذه الصور التي لم ترها من قبل"، قال وهو يفرد بعضها وقد تكسرت أو تمزقت أطرافها. نظر إلى إحداها فكانت لرجل ملتح، حسن الملامح، يلبس ثياباً يمنية تقليدية يتوسطه خنجر معقوف، تقف بجواره سيدة بالكاد يظهر وجهها. ثم صورة أخرى لطفل، ثم صورة أخرى للطفل ذاته مع رجل وامرأة وطفلة، ثم مجموعة صور للطفل ذاته مع أطفال آخرين.

"هذان هما والداك. رحمهما الله"، قال خالد وهو يقدم إليه الصورة الأولى. نظر إليها من دون أن تظهر عليه دلالات انفعال أو اهتمام!

"أما هذه الصورة فلك أنت في عامك الثاني".

أخذ ينظر إليها جنباً إلى جنب مع الصورة الأولى.

"وهذه الصورة الثالثة ستعرفها ولا شك... إنها لك، وهذه سلمى، وهذا أنا ثم أم سلمى".

ترك الصورتين وأخذ الثالثة ونظر إلى سلمى وقد شدّ إليها قماطها.

"وهذه مجموعة من الصور الأخرى. وهذه شهادة ميلادك،

وهذه صورة من خطاب مدرستك الابتدائية. وهذه صورة لك مع بعض فتية الحي... وسترى سلمى في آخر الصورة مع بعض الفتيات الأخريات".

أمسك بالصورة الأخيرة، ونظر إلى سلمى في آخر الصورة مع بعض فتيات الحي، فكانت غرسة بينهن. عرفها على الفور وقد كانت الأكبر. ملامحها شديدة الوضوح حتى في هذا العمر الصغير، وكأن غرسة لم تكبر بعد.

"هذه أيضاً صورة ترى فيها طفلين... إنهما ولداي. توأمان. توفيا قبل سلمى رحمهما الله".

أخذ سلومي الصورة ونظر إلى الصبيين الصغيرين يتّكئ أحدهما على الآخر في وداعة.

تركه خالد يتأمل الصور ويقلّبها بين يديه في صمت. ثم قال "هل تعلم لِمَ أريك هذه الصور الآن؟".

نظر إليه سلومي وبقي صامتاً...

"لأني ما أردتك يوماً أن تشعر بغربتك عنا. أردت أن أكون لك الأب الوحيد الذي تعرف، كما هي زوجتي، أم سلمى، الأم الوحيدة التي تعرفها. كنا في حاجة إلى ابن يعوّضنا ما فقدناه. وشاءت إرادة الله أن تأتي أنت. فكّرنا أول الأمر في أن تنتسب إلينا بالاسم. لكنه فعل غير جائز. فأخبرناك بعد حين بأن والديك توفيا فقط، وأخفينا صورهما، لتكون صورتي أنا وأم سلمى هما ما تحفظهما كأب وأم لك".

"لماذا الآن؟". سأله سلومي بصوت خفيض غير مبال.

"أخبرتك، إني أردت أن أكون الأب الوحيد الذي تعرفه، فتعلم بأن سلمى..."، صمت الأب لحظة وهو يأخذ نفساً عميقاً ثم أضاف "فتعلم أن سلمى هي أخت لك أكثر مما هي حبيبة. لكن إرادة الله غلبت ما أردناه لك ولها". صمت خالد ثانية، ثم تابع "لذلك رفضت أمها أن تكون زوجاً لابنتها، لأنها رأت أن بقاءك كأخ أفضل لكليكما. ولأنها أرادت لها زوجاً من أبناء بلدها، أو أحد أقربائها، فلا تشقى ابنتها بغربتك ويتمك".

"كنتما الأب والأم... وكانت هي الأخت... والحبيبة"، أجاب سلومي من دون أن يرفع ناظريه عن الصور.

"لا ينتظر الحب قراراً من أحد، قد علمت ذلك الآن"، قال خالد، "ولن تعيد هذه الصور شيئاً من الماضي. لكني أردتك أن تعلم بأنه ما عاد لنا أنا وأم سلمى من أحد سواك. إن كنت ابننا بالتبنّي في ما سبق، فأنت اليوم ابننا الحقيقي، والوحيد. وإن كانت سلمى جرحاً عميقاً سيلتئم بعضه أو كله مع الزمن، فلا نريد أن تكون أنت جرحاً آخر لن نقوى عليه بعدها".

نظر إلى عيني خالد المتوسلتين، ثم عاد ينظر إلى الصور بين يديه. جعل يتأمل ثانية صورة والده ووالدته، ثم سلمى في حضن أمها. أعاد الصور وكأنها لا تعنيه، ونهض من مكانه.

"هل ستعود معي؟ لم يبقَ لي سواك. حتى زوجتي، أم سلمى، ما زالت تعيش حداداً طويلاً إلى درجة أن أحداً لم يدخل دارنا منذ زمن. إنها مثلك تماماً، فهي لم تسمح، بعد انقضاء العزاء، لزائرة جديدة بأن تعزّيها في ابنتها التي ما ماتت في خيالاتها!".

وكأن قلب سلومي قدّ تلك اللحظة من حجر. لم يأبه لانكسار الكهل أمامه، واكتفى بأن أجاب متحاشياً النظر إلى عينيه "لم يعد هناك وقت".

"وقت لماذا؟".

"لم يعد هناك وقت". كررها وانصرف تاركاً خالد يجمع صوره وبقايا أحزانه.

مساء ذلك اليوم، سار سلومي باتجاه المدينة القديمة قاصداً مقبرة الأسد، إلى الجهة الجنوبية من المدينة العتيقة. هي أصغر قليلاً من "أمنا حواء". بعد المغرب، رأى جنازة تدخل فدخل معها.

جال على القبور، ووقف يتأمل قبراً بعينه وكأن قريباً له دفن فيه. ثم سار حتى وقف في نهاية طابور المعزين الذين اصطفوا لأداء الواجب. بعد أن مضى جميعهم توجه هو إلى أحد العاملين. كان يعرفه، إذ كان يعمل في مقبرة "أمنا حواء". سأله عمّا يفعله هنا، ولماذا ترك المقبرة الكبيرة هناك؟ فأجابه بأن نظام البلدية يقضي بأن ينتقل عمال المقابر بالتناوب على جبانات المدينة الأربع عشرة.

"لماذا؟". سأل سلومي. قال الرجل إنه لا يعرف السبب، "لكن هذا ما يحدث".

"وكم مدة البقاء في كل مكان؟".

"أحياناً شهراً، وأحياناً شهرين".

عدم وجود قوانين محددة، أو عدم تطبيقها بنحو جيد

إن كانت محددة، تربك حسابات سلومي. فكر في ذلك ثم قال "لكن بعضهم لا يزال يعمل هناك منذ اليوم الأول، أليس كذلك؟".

"ليس كلهم... بعضهم فقط. هم يفضّلونها على أي مكان آخر. فهي مصدر رزق جيد لهم. لكن يجب أن تعرف بأن للبلدية قوانينها المفاجئة أحياناً".

إنها البلدية مرة أخرى... لعنته وهمّه وقاتلة حلمه. لكن ما حكاية "القوانين المفاجئة؟"، تساءل في سرّه.

الحاجة إلى غرسة تتعاظم كل لحظة، ولا مجال لقوانين مفاجئة.

قبل أن يغادر مكانه، فاجأه العامل قائلاً "هل تصدق؟ كان هناك رجل مثل حالتك تقريباً. توفيت حبيبته أو زوجته... لا أعرف، وهو يأتي كل يوم لزيارتها والبقاء بقربها. لكنه لم يكن يطيل البقاء كما كنت تفعل أنت".

"وكم مضى على ذلك؟".

"أسبوعان أو أكثر".

"وأي قبر هو؟".

"إنه هناك".

مضى سلومي إلى حيث أشار العامل، فوجد نفسه يقف على القبر ذاته الذي توقف عنده فور أن دلف إلى هنا، وكأن العاشقات تحت التراب، يعرفنه!

اقترب منه العامل وقال "هو أيضاً لم يكن يجلس في صمت كما كنت أنت، بل يصلي كل حين، أو يقرأ القرآن. الآن هو يزورها من

وقت لآخر. ولو بكرت قليلاً لرأيته".

نظر إليه سلومي قبل أن يهرول خارجاً من المقبرة. مضى عبر الأزقة وكأن أحداً يطارده. سأل نفسه "هل هو خائف من أن يلتقي بالرجل؟". فكر أنه ربما كان يهرب من ذاته، من نفسه، من صورة عنه، وربما من ألم جديد يتكرر.

سكنه ارتياح وهو يبتعد عن المكان. هل كان يشعر بانقباض في صدره في المقبرة، ولماذا الآن؟ ما كان يملك جواباً قبل أن يصل إلى "أمنا حواء"، مكانه الأول والأثير. عندما فعل تجمّدت أحاسيه، فلا ارتياح ولا انقباض، حتى وقف على قبر سلمى. داخله في البدء إحساس الموت الذي يريد أن يذهب إليه، ثم، وبصورة غريبة ومفاجئة، إحساس الحياة التي تسحبه إليها.

وقف صامتاً ربع ساعة. لم يكن ينظر إلى القبر، وإن تسمّرت عيناه عليه، بل ينظر إلى داخل نفسه، ويسألها إن كان ما يفعله صواباً؟

نظر إلى الصف الطويل من الشواهد على يساره، وكأنه ينظر إلى سنوات عمره التي مضت. ثم نظر إلى الشواهد الأخرى على يمنيه، وكأنها السنوات القادمة التي تنتظره.

ومع أنه أمر لم يشعر به من قبل، فإن رعشة سرت في أوصاله، وهو يفكر أن بضعة أيام تفصله عن غايته، بضعة أيام فقط، إن كان لا يزال عازماً عليها!

الشهر العاشر قد انقضى بكامله، وهو لا يزال عالقاً بين شتات فكره، وتسارع الأيام عليه، وغرسة الغائبة منذ أيام.

بعينين لا تقرأ فيهما شيئاً، ابتعد إلى الباب الأخضر الكبير وخرج. مضت لحظات قبل أن يعود ببطء وتردد إلى الداخل، مسنداً رأسه وجسمه إلى الباب. نظر إلى قبرها من مكانه البعيد هذا، ثم تكوّم على نفسه خائر القوة والإرادة.

* * *

كطفل تاه ثم رأى أمه، كانت تلك حاله وهو يرى غرسة أخيراً، تطل صباحاً من نافذة أم عتيق. لكنها لم تكن تنظر إليه. "ما بالها تنظر إلى السماء؟". تساءل في عمقه المتصدع. كان يجلس على الكرسي ذاته في بهو المقبرة منذ الفجر، قبالة دار أم عتيق. لا شيء سوى مراقبة النافذة. الوقت يداهمه، وما جمع من معلومات لا يكفي. عليها أن تساعده، وها هي تقف هناك تنظر إلى الفضاء البعيد.

نهض من كرسيه، ومن دون أن يحرك ناظريه عن النافذة، سار باتجاه قبر سلمى وكأنه يعلم غرسة بوجوده هناك... لكنها بقيت تنظر إلى غير مكانه. أراد أن يصرخ، ويلوّح بيديه. بعد لحظات نظرت إليه. ورغم المسافة بينهما، أحسّ بعينيها وكأنهما لا تريدان أن ترياه. أدركته رعشة، وكاد قلبه يتوقف وهو يراها تطبق النافذة من دون إشارة منها.

عجزت قدماه عن حمله فجثا مكانه، بالهيئة ذاتها التي كان عليها في الأشهر الماضية. أخذ ينظر إلى يديه المرتعشتين، ويفكر

ما بال غرسة؟ أين كانت؟ ما الذي حدث؟

عاد ينظر إلى النافذة الخاوية، ثم نهض وقد عفّر التراب ثوبه الأبيض. هرول تجاه الباب الرئيسي، وخرج قاصداً بيت أم عتيق. ألف سؤال يغزو رأسه. عندما وقف تحت النافذة، وجدها قد أغلقت تماماً. تردد في إن كان عليه أن يصعد أم ينتظر. دلف إلى مدخل المبنى القديم. رأى درجاً خرسانياً متكسّراً يقود إلى الطابق الأول حيث منزل العجوز. كان الجوّ معتماً رغم ساعات الصباح، ورائحة رطوبة تنبعث من المكان. وضع قدمه على أول درجة، لكنه لم يلبث أن انسحب خارجاً وهو يسمع صوتاً هابطاً إلى الأسفل. وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل.

أطلّت من ظلمة البهو، بقامة ممشوقة، وعباءة لا تستر ثوباً جميلاً تلبسه. رآها تخرج وأم عتيق تتّكئ عليها، وتهمس لها بحديث. تنحّى سلومي جانباً، من دون أن يزيح ناظريه. بعد أن تجاوزته، التفتت إليه وقالت بصوت ثابت "بعد المغرب، في المكان نفسه". وكأن همّاً انزاح عن قلبه، ابتسم وهزّ رأسه أن سأكون في انتظارك. لكنه تساءل إلى أين تمضي بأم عتيق؟ بقي ينظر إليهما، حتى استقلتا سيارة أجرة، قرب ميدان البيعة.

أكمل سيره مبتهجاً بلقاء المساء، وكأنه مطارحة غرام لا استعداد لموت. ستأتيه إذاً، وتساعده. صدق ظنه بها. لكن عليه أن يحدد المطلوب وأن يكون واضحاً فيه. جلس إلى حساباته وصف القبور التي تفصل قبر سلمى. لقد بلغوا الرقم ١٤٧. لم يبق الكثير. أسبوعان فقط يفصلانه عن الموعد... ربما أقل.

كل شيء بيد ذاك الرجل، موظف البلدية. هو من سيقرر. مساعدة غرسة ستكون إذاً بالوصول إلى هذا الموظف، وإقناعه، بالمال وبجمالها، بأن يصدر أمراً بدفنه هنا. متى تحدد ذلك، فبالإمكان أن تطلب غرسة، ببعض المال وجمالها أيضاً، من العاملين هنا أن يدفنوه في الرقم الذي اختاره. لكن هناك عقبة... لا تستطيع أي امرأة دخول المكان. فكر سلومي في أن عليه العودة ثانية إلى خليل، مدير المقبرة، كي يقوم هو بالخطوة الأخيرة. سيخبره بأنه في اليوم المحدد سيأتي محمولاً على الأكتاف ليدفن هنا. وكل ما على خليل هذا فعله هو مواراته في المكان الصحيح. وإن تساءل عن كيفية تحديد موعد موته، سيقول إن به مرضاً عضالاً وإنه سيدخل إلى المستشفى وقد يموت. بعض المال سيكفي لإقناعه، فهو، على أي حال، لم يسأل يوماً كيف مات أحدهم؟ لكن، هل يمكن الاعتماد على رجل غيابه أكثر من حضوره؟

هذا التصور الهش والسريع لعملية دفنه قاده إلى سؤال أهم: بأي طريقة سيموت؟

جالساً على كرسيه في بهو المقبرة، أخرج أوراقاً من جيبه، وشرع ينظر فيها ويكتب، ثم ينظر إلى الشواهد أمامه، ويعدّ من جديد الأرقام الباقية، ويكتب. وفي كل لحظة يسأل نفسه من جديد: بأي طريقة سيموت؟

بقي حتى العصر، وأدركه التعب من التفكير والحساب. لم يقترب من قبر سلمى، وإن بقي ينظر إليه من مكانه.

أحد الأشياء التي فكر فيها هو مقدار الوقت الذي يفصل بين فتح القبر القديم، وإعادة إغلاقه على ساكن جديد. لم يلحظ ذلك على وجه الدقة منذ يومه الأول هنا. بحث عن عامل المقبرة الأعرج،عبد الله، وسأله "كم من الوقت يبقى القبر الذي تفتحونه مفتوحاً قبل أن يغلق على ساكن من جديد؟". أجابه عبدالله "إن الأمر يعتمد على مزاجية غريبة كما يبدو... فأحياناً يأتي أمر البلدية بنحو عاجل، وأحيانا يأخذ وقتاً". أضاف العامل "لذلك نحن نفتح ستة أو سبعة قبور مسبقاً، فتكون مهيّأة لأي طارئ".

"حتى ولو لم يأت أمر من البلدية بدفن أحدهم؟".

"نعم... فقد نفاجأ بطلب عاجل".

"وما الذي يجعله عاجلاً؟". سأل سلومي وهو يقطّب جبينه "هل هناك واسطة حتى في الموت؟".

ضحك العامل وقال "لا شيء هنا بلا واسطة. لو كنت فقيراً، فستموت إن لم تكن لك واسطة تدخل بها إلى المستشفى. الموت نفسه يخضع للواسطة".

"هل... هل طلب أحدهم أن يدفن في قبر ما على وجه التحديد؟"، سأل سلومي بشيء من تردد.

نظر العامل إليه مستغرباً وقال "كلها أرض الله".

"نعم، هي كلها أرض الله، لكن ماذا لو طلب أحدهم أن يدفن في قبر محدد؟".

"كيف له ذلك إن لم يكن يعرف متى سيموت؟ ثم حتى لو كان يعلم، فما أدراه أنه سيدفن في هذه المقبرة أو غيرها؟".

"أقصد هل له أن يطلب ذلك من البلدية، أليست هي من يقرر الأمر؟".

زاد استغراب العامل وأجاب "وأي فرق سيشكله مكان الدفن؟ المهم أن نكرم الميت بسرعة دفنه. أضف إلى ذلك أن البلدية نفسها قد لا توافق".

"ولم قد تعترض في رأيك؟".

"لا شيء يدعوها إلى الاعتراض، غير أنها ستراه تعدّياً على سلطاتها لا أكثر".

قبل أن يغادر العامل سأله ثانية، وقد بدا بعض الوجل في صوته "هل ستفتحون قبر سلمى قريباً؟".

نظر إليه العامل بشيء من الإشفاق وقال "أعلم أن ذلك سيحزنك. لكن، هل تعتقد أن شيئاً منها قد بقي هناك؟ وعلى كل حال، فقد يبقى قبرها مغلقاً حتى يأتي ساكن جديد، إن كان ذلك يسليك، ومن أجلك فقط". وقبل أن ينصرف العامل أضاف مداعباً "هل رأيت ما تفعل الواسطة هنا؟".

سرت فيه رعشة وهو يفكر إن كان سيُقدّر له أن يلقي نظرة على قبر سلمى المفتوح قبل أن يدفن فيه. فقد يحدث أن يفتح بالفعل بيوم واحد، على الأقل، وربما ساعات، قبل أن يعاد ويغلق عليه.

تشوّشت أفكاره، فأطرق رأسه إلى الأرض وارتخت قبضة يده حتى سقطت بعض الأوراق منها. وراح يراقب ثلاث أو أربع جنازات تلج دفعة واحدة من الباب الكبير.

بعد العصر غادر المكان. لم يكن يملك ساعة. ولا يعرف أين هي منذ حادثة وفاة سلمى. لأول مرة ينتبه إلى أنه لا يملك ساعته. لأول مرة ينتبه إلى أنه لا يملك هاتفه الجوال أيضاً. كيف عاد يتذكر هذه الأشياء؟ إنها عشرة أشهر لا عشرة أيام!

مع أنه ربما لاحظ تغيراً قد طرأ على غرسة، فإنه لم يكن قادراً على رؤية تغير آخر يعمل في داخله هو. راح يحث الخطى وهو يطوف خارج المكان حتى وجد نفسه يقف من بعيد أمام متجر خالد. لا يعرف لماذا يجد نفسه مدفوعاً إلى رؤية الرجل بين حين وآخر؟ وجعل يفكر في أمر الصور التي أطلعه عليها أخيراً، وتمنى لو أنه لم يفعل. ليته تركه يتيماً حيث كان. في ميتم أو ملجأ أو قارعة طريق، فلربما كان القدر أكثر رحمة به. استطاع أن يلمحه يتحرك داخل متجره، ثم أخذ يعبث بذقنه. أحسّها كثّة، وفكرفي أن يحلقها. ثم تلمس شعر رأسه فوجده مثل ذقنه. وهو واقف هناك، أتته رائحة شواء من المطاعم المجاورة، فأحسّ بشهوة للطعام فارقته منذ زمن.

أمامه متسع من الوقت قبل موعد المساء، مع غرسة، ليأكل إن شاء ويحلق أيضاً، لكنه آثر أن ينتظرها منذ الآن. وصل إلى غرفة الشيخ عابد قبل المغرب بقليل. دخل وترك الباب مواربا. وفور أن ألقى بجسمه على السرير ارتفع صوت المغرب وشريط طويل من الذكريات يعمل في رأسه متداخلاً مع صور خالد وطفولته ووالديه اللذين رآهما لأول مرة. هل كان من حق خالد أن يخفي الصور عنه؟ استعاض عن إجابة السؤال بالتفكير في ملامح سلمى

في صورتها كطفلة، وغرسة جالسة بجوارها.

نهض من السرير، وراح يذرع الغرفة وهو يفكر، لَمَ أبطأت...؟

فيما المصلون منصرفون لصلاتهم في المسجد المجاور، وصوت الشيخ عابد يعلو بالتلاوة، سمع سلومي طرقاً خفيفاً. قبل أن ينهض كانت غرسة قد دخلت وأقفلت الباب من ورائها.

* * *

"سعيدة أن رأيتك يا أم عتيق... فلا أعلم كم بقي لي من وقت"، قالت الجدة وهي على سريرها الأبيض في المستشفى الذي أدخلت إليه بسبب اضطراب في ضربات القلب.

"لست أعلم ما كان سيقع لي لولا وجود غرسة معي. ولا أعلم، ما يمكن أن يقع لها هي بعد أن أموت".

"أطال الله عمرك أيتها الغالية. أراك الآن بصحة جيدة والحمد لله"، أجابت أم عتيق.

"ستكون معجزة إن طال عمري أكثر من ذلك... وإن كانت من معجزة أتمناها الآن، فهي أن أطمئن على غرسة، فقد باتت تقلقني كثيراً أخيراً".

"هي بخير".

"أعلم أنها بخير لكن... ماذا أقول لك يا أم عتيق...؟ ماذا أقول؟".

"قولي إن كان هناك ما يستحق أن يقال، أو اخلدي لراحتك

الآن وأخبريني في ما بعد؟".

ترددت الجدّة كثيراً. وكلما همّت بالحديث صمتت. وقد تركتها أم عتيق حتى وجدتها تقول لها "قد لا يكون هناك في ما بعد..."، قالت العجوز وقطّبت جبينها المتغضن، "إنها قصة قديمة، نعم، قصة قديمة".

زمّت أم عتيق شفتيها وهي تنصت باهتمام وتمسك بيد العجوز.

"لقد تقدم لها عريس قبل أيام..."، قالت الجدة وهي تحاول أن ترفع جسمها قليلاً، "شاب يدرس في الخارج. قريب لنا من بعيد. أعرف أهله جيداً، وهم أناس صالحون. طلبها والده. وكانت شقيقة العريس حاضرة".

"نعم... أخبرتني غرسة بذلك؟".

"والحمد لله أنها كعادتها لم تعترض".

"هل وافقت؟".

"لم تقلها صراحة، لكني أشعر بأنها لن تمانع". قالت العجوز، وقد بدا صوتها يضعف، وقطّبت جبينها ثانية.

"ارتاحي... لا تكثري الكلام. أنت مجهدة".

"بل سأتكلم، ففي الغد صمت طويل ينتظرني. اسمعيني يا أم عتيق. سأقول لك شيئاً لا يعرفه أحد سواي أنا وغرسة... لقد تعرضت لأذى كثير في طفولتها. شخص اعتدى عليها، وهو رجل من الحي. لم أخبر أحداً حينها، راجية أن تموت القصة في مهدها، فلا تؤثر في مستقبل فتاة يكفيها من الحياة اليتم والحرمان".

"لا تخبريني بما ستر الله"، قالت أم عتيق.

”أعرف كم تحبينها، وكم تحمل هي لك من التقدير. وما أخشاه، أن تكون تلك الحادثة لا تزال عالقة في ذهنها، أو أنها تركت أثراً عميقاً في جسدها. تفهمين ما أقصد ولا ريب...“، صمتت العجوز لحظة ثم واصلت وكأنها تنفض عن صدرها هماً يخنقها، ”هي فتاة عفيفة. لكن تلك الحادثة قد لوّثت بعضاً منها. ليس أمام غرسة سوى أن تتزوج من الشاب الذي تقدم لها، لأني سأشك بعدها في أن تتزوج أبداً في حياتها. فإن أراد الله أن أموت، فأكملي عني ما بدأت، فإن لم يتم الأمر فهي أمانة في عنقك، ولا أحد لها سواك“.

بقيت أم عتيق صامتة وهي تمسد يد صديقتها العجوز التي بدا وكأن ما قالته زاد من مرضها. أرادت الصديقة الصمت، لكنها وجدت نفسها تسأل رفيقتها ”ما أدراك إن كانت غرسة تحب رجلاً آخر؟“.

”رجلاً آخر...؟“، سألت العجوز وهي تفتح حدقتي عينيها حتى بان بعض بياض عماها، ”هي لا تحب أحداً. وإن كنت تقصدين ذاك المجنون... سلومي، فليس ذلك حباً له بل افتتاناً برجل عاملها بلطف في وقت ما... سلومي حنون لكنه أحمق، ولا يصلح أن يكون زوجاً لها أو حتى لغيرها. إنه فأل سيّئ. هل تعتقدين أني نائمة على نفسي؟ صحيح أني اليوم شبه عمياء، لكن بصيرتي عالية“.

”... لقد كان مجرد سؤال. لا عليك. إن أردت أن أقدم لها النصح فسأفعل، وأنا أفعل ذلك كل يوم على أي حال. لكن أخبريني... هل كانت تحدثك عن حياتها شيئاً؟“.

”آه آه آه يا أم عتيق... لقد عانت طفلتي كثيراً. وأنا أعرف بكل

آلامها من دون أن تخبرني عنها. كل ما أتمناه هو أن تتخذ القرار الصحيح بلا خوف. وأنا لا أرى أحداً أفضل من الذي تقدم لها. على الأقل ستعيش بعيداً عن حيّنا التعيس، فكل ما فيه تجارب مؤلمة. ابنة سعدية، جارتنا التي تسكن فوقنا، تزوجت من رجل تمنته كل نساء الحي، ثم طُلّقت بعد أن دخلت المستشفى عدة مرات بسبب ضربه لها. ابنة خديجة ومرعي، تعرفينهما، في الشارع الخلفي لبيتنا، تزوجت ابنتهما أسماء من رجل جامعي وغني، حتى إنه يملك سيارة جديدة، ومع هذا فقد سجنها في المنزل لا تبرحه، وأقفل عليها بالمفتاح. ولو أرادت طبيباً لعلة أو مرض لماتت وهي تنتظر إذنه. ورغم صبرها فقد طُلّقت بعد أن سلب منها ولديها". صمتت العجوز لحظات وأنفاسها تعلو وتهبط "لكني أقول مع ذلك..."، وصمتت من جديد وأنفاسها تتصاعد أكثر،

"هوّني عليك... هوّني عليك"، قالت أم عتيق وهي تضع يدها برفق على صدر العجوز.

"نعم... أنا بخير... أنا بخير. كنت أقول إن غرسة لا مستقبل لها سوى في بيت رجل يحبها".

"لكن ماذا إن لم تكن تحبه؟".

"سيأتي الحب بعد الزواج"، قالت العجوز وقد أعياها الحديث، "لا تملك سوى أن تحبه، أو تصبر على ما قسم الله لها، هذا إن أرادت أن تعيش. ألسنا كلنا كذلك؟".

أخذت أم عتيق تمسد براحتها على صدرها... ثم واصلت

"كلنا تزوجنا، ثم... أحببنا أزواجنا".

"وهل أحببت زوجك بعد أن تزوجته؟"، سألت أم عتيق بنبرة مداعبة تكسر كآبة الحديث.

زمّت العجوز شفتيها وبقيت صامتة... ثم قالت وقد علتها ابتسامة لطيفة "لا والله... ما أحببته لا قبل الزواج ولا بعده". هه هه هه... أضحكتني يا أم عتيق". وكبرت ابتسامة العجوز كاشفة عن ثلاثة أسنان فقط هي كل ما تكرم به الزمان لما بقي لها من عمر.

"على كل حال"، قالت أم عتيق، "لا تخافي على غرسة، فهي فتاة عاقلة وتحسن تدبير أمورها".

"هي فتاة عاقلة، وأدرى بأمور نفسها، لكنها طائشة".

* * *

"كم بقي حتى يصلوا إليها؟"، سألت غرسة لاهثة وهي تضع عباءتها فوق السرير في غرفة عابد.

"أين كنت؟"، سألها.

"كم بقي؟"، أعادت بنبرة حادة.

"حتى المساء، وصلوا إلى الرقم ١٥٦. إنهم يقتربون بسرعة..."، صمت قليلاً، "كنت أبحث عنك".

"وأين لي أن أذهب؟ ها أنا أمامك"، أجابته بنبرة جافة.

جلست مكانها على طرف السرير، وهو على كرسيه قبالتها.

بقي ينظر إليها حتى أشاحت بنظرها إلى البعيد. وضعت يدها على صدرها وضغطت بأطراف أصابعها. أحست بألم الحلم يعود.

قطع سلومي الصمت، من دون أن يبعد عينيه، "جيد أن اخترت هذا المكان لنلتقي فيه".

"وهل أردت أن نلتقي فوق قبرها مثلاً؟ لا بديل سوى هنا".

"نعم... صدقت"، صمت ثانية ثم سأل "أين كنت تذهبين مع تلك العجوز هذا الصباح؟".

رفعت أوراقه المبعثرة فوق السرير تنظر إليها.

كرر السؤال "أين كنت؟".

من دون أن تنظر إليه قالت "شأن عائلي. فهل يزعجك الأمر؟".

" حسبتك انشغلت في شيء آخر".

"لا تسأل إذاً"، وبقيت تنظر إلى الأوراق.

لزم لسانه وتركها حتى أعادت الأوراق إلى مكانها ثم قال لها "إن لم أخطئ، فقد لا يكون بقي من الوقت أكثر من بضعة أيام".

رفعت رأسها تنظر إلى سقف الغرفة، أخذت تمتم "واحد، اثنان... عشرة... نعم. ربما أقل".

"حسناً، لقد أعددت كل شيء. لكن اسمعي ما سأقول. أحتاج إلى قدر بسيط من المعلومات. القليل جداً، لكن بنحو دقيق. انظري..."، قال بتلهف وهو يقدم أوراقه ثانية. لم تنظر إلى شيء سوى عينيه تثقبانها.

نحّى الأوراق جانباً ولمس يديها "موظف البلدية... هو من أريد الوصول إليه، أعني ذاك الذي يقرر مكان الدفن. حصلت من

أحد العاملين في المقبرة على اسم أو اثنين. أحدهما أو كلاهما هو المسؤول عن ذلك. وقد حاولت جاهداً الوصول إليهما لكني عجزت كل مرة".

بقيت تنظر إليه مستعطفاً وهي جامدة كصخرة صوان. لكن داخلها كان يبكي. شتمته. بصقت عليه. لعنته، ثم... مسحت بلطف على رأسه حتى سالت دمعة خفية من عينها. ثم وبحركة سريعة التقط يدها وراح يقبّلها. تركته يفعل ما يشاء، حتى إذا ما فرغ، قالت بعد جرعة رشفتها من عينيه "لقد هيّأت لك كل شيء، ولا حاجة إلى موظف البلدية"!

باستغراب سأل "هيّأت ماذا؟".

"كل شيء".

"كل شيء؟ لا أفهم ما تقصدين".

"أنت لست في حاجة إلى موظف البلدية".

"كيف؟ من سيقرر مكان دفني إذاً؟".

"أنت لست في حاجة إلى أحد الآن... فبعد آخر لقاء بيننا، مرضت جدتي، فأخذتها إلى مستشفى الملك فهد. وهذا للمناسبة سبب غيابي. وهو أيضاً المكان الذي أخذت إليه خالتي أم عتيق هذا الصباح كي تعودها".

"اعذريني. ما قصدت أن..."،

قاطعته من دون أن تأبه لاعتذاره، "أبلغوني في المستشفى أنهم بحاجة إلى الكثير من التحاليل، وأبقوها عندهم. أتاح لي ذلك أن أتجوّل في المستشفى. فجأة وجدت نفسي في طابق سفلي عرفت

أن فيه ثلاجة المستشفى، حيث يودعون الموتى قبل دفنهم. هناك التقيت برجل اسمه صالح. يبدو في الستين من عمره أو أكثر. قال إنه المسؤول عن المكان، وهو من يتولى تسجيل المتوفين وتسليمهم إلى جهة الدفن".

"وهل لكهل مثله أن يقرر مصير الموتى؟".

"رسمياً لا... لكن للرجل خبرة ٣٠ عاماً، وقد ترك له مديره أن يتخذ القرار الذي يريد. وهو إن شاء حدد وجهة من يمر تحت يده. وقد سألته إن كان هو من يحدد مكان الدفن أم البلدية؟".

"بل هي البلدية يا ابنتي. لكني بتّ أعلم أي مقبرة تتاح فيها الأماكن أكثر من غيرها. هم يستعينون بالكمبيوتر، وأنا أستعين بخبرتي، وهي أدق من كل أجهزتهم".

"لكن المقابر كثيرة أيها العم صالح، وليس هذه المستشفى وحده من يقرر المكان".

"نعم... المقابر كثيرة والموتى كثيرون. لكن يصلني من البلدية، كما يصل المستشفيات كلها، كشف يومي يحدد الأماكن المتاحة".

"أليست البلدية هي من يختار المكان إذاً؟".

"البلدية تحدد المتاح كما قلت لك. وبناءً على ذلك نرسل كل شخص إلى حيث تم تحديد مكانه".

"وهل تستطيع أنت أن تحدد مكاناً بعينه؟".

"أحياناً أستطيع ذلك".

"وعلى أي أساس يكون اختيارك؟".

”قد لا يكون هناك اختيار، بل طلب من أهل المتوفى. إلا أنه أمر نادر الحدوث. أنا أختار ما أعتقد أنه الأقرب والأسرع. فإكرام الميت دفنه“.

”ألا تعترض البلدية على اختيارك؟“.

”البلدية لا تهتم بالأحياء يا ابنتي، فما بال الموتى؟“.

صمتت غرسة وأشعلت سيجارة ثم قالت تخاطب سلومي ”كما ترى، فإن رجلاً بسيطاً يمكن أن يحل مشكلتك. وقد وصلت إليه“، ونفثت الدخان وهي ترمقه بنظرة منتصر.

”هل أستطيع أن ألتقي بالرجل... أي العم صالح؟“.

”وما نفع اللقاء به؟ هل ستذهب إليه وتقول أريدك أن تدفنني هنا أو هناك؟ لا يسيرالأمر هكذا. وحيث إني قد قررت مساعدتك، فدع الأمر لي وانصرف أنت إلى ترتيباتك الأخرى. أنا أثق بالرجل. ولولا أن الموت أقوى من قدرتنا على تحديد وقته، لقلت إن هذا الرجل صديق لملك الموت نفسه“.

”هل أخبرته بقصتي؟“.

”نعم“.

”وماذا قال؟“.

”لعله كان يبدي عجباً لو أخبرته برغبة إنسان مثلك بالحياة، لا بالموت. فالموت بالنسبة إليه هو الحياة التي يعيشها كل يوم. كما هي الحياة بالنسبة إليك أنت هي الموت الذي تعيش من أجله“.

”هل هو أهم من موظف البلدية؟“.

"قلت لك، ليس أهم منه. لكن عليك أن تعلم بأن المهمشين في الدوائر الحكومية يملكون القدرة أحياناً على فعل ما يعجز مسؤول كبير عنه".

"إن صح ما تقولين، فأنا على استعداد لإعطائه ما يريد"، قال سلومي بنبرة أحسّت غرسة بشيء من تصنّع فيها، لكنها أجابت من دون اكتراث لما أحسّت به "لا يعنيه من تكون... لا جنسيتك أو حتى دينك. المال سيجعله يتصرف بالطريقة التي تريد. لقد رأيت الأمر بنفسي. ما يحدث هو التالي..."، كان سلومي يحدق في عينيها بنظرة زائغة، "حاسوب المستشفى مرتبط بحاسوب البلدية. عندما يتوفى أحدهم يتم إصدار شهادة وفاة، ترسل صورة منها إلى حاسوب البلدية. وهي هناك تقرر مكان الدفن حسبما هو متاح في كل مقبرة. العملية برمتها تتم تحت نظر العم صالح في المستشفى. وهو فوق ذلك من يجهز الميت إلى وجهة غسله قبل دفنه. وبإمكانه، وبمجهود بسيط، أن يعيد ترتيب أوراق الأوامر التي تصدرها البلدية".

"وهل يملك رجل مثله خبرة في عمل الحاسوب؟".

"ومن قال إنه سيفعل ذلك؟ له طريقته في تنفيذ ما يريد".

في صدر سلومي خوف ممزوج بشيء يعجز عن تفسيره. هل حلت معضلته الكبرى؟ هل يكون اختيار غرسة صحيحاً؟ هل وألف هل أخرى تشابكت في رأسه كعقدة حبل.

"أعرف ما أفعله"، قالت غرسة، "ولم يكن ذلك اجتهاداً مني، بل هي صدفة وجودي في المستشفى لا أكثر. فلست أريد أن

تحسّ بوطأة دين لا أستحقه أنا ولا معروف تستحقه أنت".

نظر إليها بالعين الزائغة ذاتها، وقال بصوت خفيض "هكذا الأمر إذاً... بكل بساطة؟".

"يبدو أن الطريق إلى الموت هو أسهل شيء هنا"، أجابت ساخرة وأضافت بلا مبالاة متعمدة "يجب أن تكون وفاتك في المستشفى. يجب أيضاً أن تكون أوراقك مكتملة، وألا يتخطى الوقت بين موتك ودفنك ١٢ ساعة. يجب أيضاً أن يكون لدينا من يساعدنا عند وصولك إلى المقبرة. فقد يشّيع في الوقت ذاته اثنان أو ثلاثة أو أربعة. لكن وجود شخص نثق به هناك سيضمن أن تسكن القبر الذي تريد".

"سأدّبر الأمر مع عبد الله".

"دبّره مع من تشاء، فأنا لا أستطيع الدخول إلى مملكة الرجال هناك، إلا ميتة فقط"!

"لقد اجتهدت يا غرسة أكثر مما اجتهدت أنا؟".

من دون أن تعلّق قالت "بقيت النقطة الأهم. إنها تتعلق بطريقة موتك. يجب ألا تدع مجالاً للريبة في أن جريمة قد أعدّت مسبقاً للخلاص منك، وإلا احتفظوا بجسدك حتى جلاء الأمر. وقد يستغرق الأمر أشهراً".

بلع سلومي ريقه بصعوبة وكأن الموت ينتظره عند خروجه من الغرفة فقط. وبصوت شابته بحّة قال "نعم... نعم..."، ثم سرح قليلاً يفكر كيف أن غرسة الرافضة أولاً، ثم المترددة ثانياً، ثم المتحمّسة لمساعدته ثالثاً، تبدو الآن أكثر حرصاً على موته بما

يفوق حرصه هو. أخذ يتفرسها وهي تسترسل قائلة "علينا تحديد المكان الذي ستموت فيه أيضاً، وهذا يرتبط بطبيعة الحال بطريقة وفاتك. وكي تحقق ذلك، وبطريقة لا تثير ريبة، عليك أن تكتب رسالة تشرح فيها أسباب وفاتك، أو بالأحرى، أسباب إقدامك على الانتحار، ثم تفعلها".

"أفعل ماذا؟".

"أن تموت... أن تنتحر"!

"و... كيف سيتم ذلك؟"، قال باضطراب متزايد.

أخذت غرسة تسرد الأحداث وتنظر إلى وقع كل كلمة عليه، وفوق نبرتها الواثقة كانت تتحدث وكأنها جلاد ظفر بضحيته. "في اليوم الذي يسبق دفنك، وقبل وصولك إلى المستشفى بثلاث ساعات، ستتناول قدراً من السم بعد أن تكون قد كتبت رسالة تشرح فيها سبب اتخاذك القرار. ضع أي سبب مهما كان واهياً، المهم ألا تثير أي شبهة. ستفارق الحياة في قسم الطوارئ، ثم تنقل إلى ثلاجة المستشفى في الوقت الذي تصدر فيه شهادة وفاتك. العم صالح سيكون في انتظار اسمك على لائحة الدفن التي تحددها البلدية. ثم يحيلك على مقبرة أمنا حواء بعد أن يستخرج الأمر الخاص بذلك وينهي معاملتك بلا إبطاء..."، توقفت قليلاً وهي تنفث دخانها ثم أضافت "في اللحظة التي تفارق فيها الدنيا، سأكون بجوارك، وسأحرص على دقة ترتيب الأحداث كما أخبرتك بها".

بقي صامتاً. ولولا معرفة سلومي المسبقة برأيها في مسألة موته

لتخيّلها في قمة سعادتها بدقة ما خططت من أجله. في تلك اللحظة أيضاً، أحسّ بآخر ذرة ابتهاج تغادر جسده. عندما استدار ونظر إلى عينيها، أحسّ كلّ منهما، وفي اللحظة نفسها، بأنه ينظر إلى شخص آخر غير الذي يعرفه.

اقترب بهدوء، وجلس بعينين زائغتين مواجهاً لها وكأنها لحظاته الأخيرة.

مضت قائلة من دون أن تهتم لمظهره المتكسّر "بقي أن نحدد توقيت حدوث كل ذلك. أعتقد أنه سيكون بعد ثمانية أو تسعة أيام، هذا إن صدقت حساباتك، لكني سأعيد مراجعة كل ما كتب هنا، فلعل وقع الأيام الماضية عليك يدفعك إلى خطأ في تقدير التوقيت الصحيح".

بدا مسلوب الإرادة وهو يدفع إليها كل أوراقه. دسّتها في حقيبتها المنتفخة، وسألته "هل أنت خائف؟".

"لَم افترضتِ أني قد أكون خائفاً؟".

"الموت شيء مخيف. لقد رأيت ذلك في عامل المشرحة".

أغلقت حقيبتها ومضت تقول "لقد أخبرني العم صالح بقصة عجيبة. هل تريد أن تسمعها؟". ومن دون انتظار جوابه مضت تقول "لا يقود العم صالح سيارة ولا يملك واحدة. أحياناً، يوصله زملاؤه آتياً أو غادياً، لكن في معظم الأحيان تكون سيارة الإسعاف هي وسيلته إلى ذلك. حدثني قائلاً: ذات يوم، وفيما أنا عائد إلى بيتي، تلقّت سيارة الإسعاف التي أنا فيها اتصالاً لحالة طارئة. شاب تعرض لحادث سير. توجهنا إلى هناك على

عجل. كان الشاب مصاباً بكسر في يده وفي ترقوته، وينزف دماً من أنفه. وضعناه في السيارة وانطلقنا به إلى المستشفى. فجأة أصيب السائق بذبحة صدرية وكاد يجنح بالسيارة من فوق جسر مرتفع. لكنه ارتطم بحاجز صغير وتوقف. كانت السيارة لا تزال صالحة للسير. لا أعرف أن أقودها، وسائقها شبه مغمى عليه. المصاب في الخلف انتقل إلى مكان السائق ومضى بنا، رغم إصابته، إلى المستشفى. في قسم الطوارئ أشرف طبيب على حالة الشاب والسائق. وقد نجا كلاهما، في حين أن الطبيب الذي عالجهما توفي في اليوم التالي". التقطت غرسة أنفاسها وواصلت "أخبرني عامل المشرحة أنه بعد ٣٠ عاماً من العمل في هذا المكان، بات موقناً بأن الحياة كلها ليست أكثر من سيارة إسعاف"!

"لِمَ تذكرين هذه القصة؟"، سأل سلومي وكأنه ذاك الطبيب.

"لأن سيارة الإسعاف قد تأتيك قبل الأيام الثمانية أو التسعة المتبقية"!

لم يعلّق، وهبّ واقفاً مولياً ظهره لها، وناظراً إلى النافذة الصدئة، وكأنه قد فاض بألم ما فيه. التفت إليها فجأة واقترب منها ثم أمسك كتفيها بعنف وقال "اسمعيني جيداً... إن كنت تعتقدين أني خائف، فأنا جاهز لأموت وأدفن معها، من دون الحاجة إلى سماع قصصك السخيفة تلك". ألقى بها فوق السرير، وانكشف شيء من فخذها.

لم تستر ما انكشف، بل رفعت ساقها حتى انكشف كل فخذها

وهي نصف ممددة، تنظر إلى أنفاسه تصعد وتهبط. تركته حتى هدأ، ثم اقترب منها وأخذ يعتذر. برفق أجلسها. ثم مدّت يدها ومسحت على خده. وضع يده فوق يدها، فأحسّها ملتهبة وكأن جمراً قد أحاط بها.

أخذت تدنو منه وهو يسألها "تريدين موتي الآن... أليس كذلك؟".

اقتربت شفتاها وهي تردّ بشبه همس "لقد فعلت كل شيء من أجلك... فافعل شيئاً واحداً من أجلي"، وبيدها الأخرى فتحت سحاباً جانبياً من تحت إبطها حتى خاصرتها، فبدا جسدها الأبنوسي شبه عار. التصقت الشفاه لثانية واحدة قبل أن يدفع برأسه إلى الوراء هارباً من لذتها. أمسكت إحدى يديه وجعلت تمسح بها على ما انكشف من صدرها، ثم قالت "هيا... افعلها". دفع نفسه إلى الوراء ثانية وهو يردد "لا... لا... أريد أن أبقى نقياً".

أجابته بمكر وهي تداعب شعره "عندما يلامس جسدك جسدي، ستصعد إلى السماء طاهراً، حتى إننا لن نضطر إلى غسلك".

غرست بعض أصابعها في لحمه، وقبل أن تنزلق بيده إلى الأسفل، هبّ واقفاً يرتجف. ثم انزوى إلى ركن من الغرفة وبدأ ينهج.

نهضت غاضبةً، وأطلقت زفرة غاضبة وكأن بركاناً ثار للتو من منخريها. أقفلت سحاب ثوبها بعنف. وضعت عباءتها عليها، ونظرت إليه وهي واقفة عند الباب منصرفة، وقالت "أنت لست

في حاجة إلى أن تموت ثانية، فأنت ميت منذ زمن"!

* * *

الأسبوع الثاني

الأيام التي تلت لقاءهما الأخير، كان كل يوم منها أطول من ٢٤ ساعة ولا شك. تقاسمت وقته بضع لقاءات مع الشيخ عابد، والتجوال في المقبرة وحولها، والجلوس في رواق المعزين. عقله مثل جسمه، لم يكف عن الانتقال من موضع إلى آخر. من خوف إلى خوف، ومن ابتهاج ضحل بقرب اللقاء بسلمى، ومهابة الطريق إليها.

ثقبت الأرقام رأسه، عدد الحفر المفتوحة، والمسافة الفاصلة عن الرقم ٢١٥، الأيام المتبقية، والتاريخ المحدد للنهاية.

داخل المقبرة، يعود بين ساعة وأخرى إلى أوراقه ورواقه، ثم إلى المدافن يحسب عددها. ينظر حيث الشمس الساطعة في السماء حائراً ومتسائلاً في سرّه: هل يريد استعجال يومه، أم زيادة ساعاته؟ سلومي الآن، من حيث الشكل، هو سلومي السابق، لكن داخله كان سلومي آخر يولد. القاسم المشترك بين الاثنين هو سلمى. محبوبة الأول حتى الموت. ومحبوبة الثاني حتى التروّي قليلاً في مسألة الموت. كلما دارت تلك الأفكار في رأسه، يصرّ في نفسه على

المضي قدماً في ما عزم عليه. يتشجع حتى يكاد يحفر القبر بيديه ويدفن نفسه حياً معها. ثم تجتاحه لحظة يفكر فيها كيف هي الظلمة في الأسفل.

بإمكانه التراجع إن شاء. لكن شيئاً يمنعه من ذلك. هل هو شرف الحب العميق الذي أقسم ألا ينساه، أم هي غرسة التي بات حبّها سخرية مؤلمة له؟ ما يشجعه أكثر على المضي في ما عزم عليه هو إيمانه بضياع كل ما عاش منه ومعه. خالد الذي رباه ما عاد كما كان. زوجة خالد لا تريد رؤيته، ومن بقي هم جملة أشخاص عابرين. سلمى التي ما عادت موجودة، سلمى التي رحلت، ولا بد من الرحيل معها، هي من بقي له ولو كانت ميتة. غرسة... تحبه أكثر من سلمى. لكنه يحب سلمى أكثر منها. هي معضلة تشبه شبكة صيد في يد مبتدئ. متشابك بعضها في بعض حتى يصبح الخلاص منها خلاصاً له.

مساء ذاك اليوم، التقى بإمام المسجد عابد. كان يطلبه وقد وجده يغادر حجرته إلى صلاة المغرب. طلب منه أن يرافقه إلى الصلاة ففعل. كانت مرته الأولى التي يدخل فيها إلى مسجد ليصلي بعد حادثة سلمى. لم يكن متوضئاً. ولم يفكر أن يفعل. لكنه صلى، ودعا، ونهض ينتظر عابد عند الباب. سار الرجلان معاً، يخترقان المنطقة التاريخية العتيقة. بقي عابد يهذر بأشياء لم يعِ سلومي أكثرها. فقد كان يتأمل المكان الذي يسير فيه، ويشتمّ بعض حلاوة الأيام التي عاشها، والأحلام التي تمناها بأن يسكن يوماً هنا، في قلب المنطقة التاريخية، مع سلمى. التاريخ كما هي

سلمى، عاشق ومعشوق. الأول له رائحة الزمن الساحر، والثانية هي السحر والساحر معاً.

يبدو أن كل المدينة العتيقة تعرف الشيخ عابد، الرجال والنساء والقطط. يلقون عليه التحية أو يسألونه عن أمر. "يعتقدونني إماماً بحق، ويطلبون مني الفتوى... ستصعق إن علمت أي فتوى يطلبونها! كلها ملذات... عطشى هم للملذات. يبيعون أبناءهم من أجلها، رجالاً ونساءً. وهم فوق ذلك يخافون من عذاب الله. لا أعلم من صوّر لهم أن الله جلاد يمنعهم من التلذذ ويقتنص فرص إنزال العقاب بهم. ما رأيك أنت؟".

"لا أعلم".

واصل الرجلان سيرهما حتى قال عابد "هل ترى الباعة في المحال هنا؟ لكل منهم قصة أعظم من قصتك. لكنهم لا يتحدثون. لو فعلوا، لأصبح العالم مسرحاً مليئاً بالمهرجين. فنحن نستلذ برؤية آلام غيرنا. بائع القماش له مشكلة مع زوجته، بائع الأحذية يعاني من كفيله اللص، بائع الأواني المنزلية به مرض قديم، بائع البخور يشكو همّ الدين بسبب علاج ابنه. وغيرهم وغيرهم". صمت عابد... ثم التفت إلى سلومي وسأل "ماذا تتوقع أن تخرج به لو خلطت كل قصص هؤلاء في قصة واحدة؟".

قلب سلومي شفتيه أن "لا أعلم... لكن ما الذي ستخرج به أنت؟".

"عذابات البشر عمياء. وكذلك نجاحاتهم. هذه وتلك لا تختار إنساناً بذاته. هي أشبه برشق حجارة تصيب أو لا تصيب.

هناك من اجتهد وفشل، وغيره كان أقل اجتهاداً ونجح. قد يكون السبب ما نسميه الحظ، لكن حتى الحظ، أعمى هو الآخر.

نحن البشر، نشبه زجاجة ماء، لكن بأحجام مختلفة. عندما يصيبنا أحد تلك الحجارة، سنراق على التراب. نصبح حفنة رطبة لا تلبث أن تجف".

قاطعه سلومي "لست أعلم ما العلاقة بين الإنسان وزجاجة الماء، ثم ما علاقة التراب بالأمر؟".

"عذاباتنا هي ماء الزجاجة. ومثلها نجاحاتنا وسعادتنا وكل شيء. وهذا الذي هو كل شيء سينتهي عندما نتحد مع التراب... الذي هو نحن. الذي هو أصلنا. ما أريد قوله إن كل ما يواجهنا في حياتنا، من سعادة وشقاء، نجاح وفشل، يجعلنا عميان عن رؤية أن الجيد والسيّئ معاً هما ما يجعل الحياة تستحق أن نحياها، هل فهمت الآن؟".

"ليس كثيراً، ثم أين هي القصة الواحدة التي تخرج بها من قصص كل هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟".

"حسناً... لا أعلم. لكنه سؤال جيد. لنواصل سيرنا".

أخذ سلومي، وهو بصحبة عابد، يردد في همس بضع كلمات فهم منها الشيخ أن موعد الرحيل قد اقترب، فلم يعلّق بشيء. سار به حتى وصل إلى بائع سواك يفترش الأرض. اشترى بضعة أعواد، وقدم واحداً إلى سلومي.

"مرّ أليس كذلك؟".

قبل أن يأتيه جوابه أضاف "بإمكانك أن تتخلص من هذا

السواك، لكنه سيبقى مراً في فمك وفم غيرك". لم يفهم سلومي مقصد عابد الذي بادر إلى سؤال قافزاً به من حديث إلى آخر "هل ما زلت عازماً؟".

صدرت منه تنهيدة عميقة قبل أن يجيب بكلمة واحدة "نعم"!

أكمل الرجلان سيرهما بلا حوار آخر حتى إن جاورا مسجداً قديماً آخر توقف سلومي أمام بابه وسأل مرافقه "هل تعتقد أنهم سيصلون عليّ؟".

نظر إليه عابد بهدوء. أبعد سواكه عن فمه وقال "هل أنت خائف ألا يفعلوا؟".

"أعتقد أن من حق الميت أن يُصلى عليه، أليس كذلك؟".

"إن كنت خائفاً ألا يُصلى عليك بعد موتك، فالأولى أن تخاف من قتل نفسك؟".

لم يكن سلومي في حاجة إلى ما يزيد تيهه. لكنّ عابد استرسل "لا أعرف حتى اللحظة ما تستفيد من قتل نفسك؟ ابدأ حياتك بلا ماض يؤرقك. عليك أن تدفن قصة سلمى خارج قلبك. دع القصة هي من يموت ويدفن هناك، لا أنت. افعل ما كانت تحب فعله. اقرأ ما كانت تحب أن تقرأ. أنت تجيد التجارة ولديك خبرة فيها. لماذا لا تبدأ تجارة خاصة بك. لماذا لا تبيع الحلوى؟ إنها شيء تحبه، وعمل جيد تقوم به".

توقف عابد، وأمسك بذراع سلومي وقال "لمناسبة الحديث عن الأكل، هل أنت جائع؟ ما رأيك لو دعوتك إلى وليمة فاخرة؟ نصف تيس مشوي، وإن لم يعجبك، أخذتك إلى مطعم قريب من

البحر لوجبة أسماك فاخرة؟".

"وهل تملك ما يكفي لوجبة فاخرة؟"، سأل سلومي.

"أملك ما يكفي لأدخل الجنة مرة واحدة في الشهر على الأقل". صمت عابد قليلاً ثم سأل "هل شاهدت فيلم "التيتانك"؟ أنا شاهدته. أعجبني أولئك الأثرياء الذين ماتوا وهم في قمة سعادتهم. لم يبخلوا على أنفسهم برحلة فاخرة من دون أن يعرفوا بأنها ستكون آخر تجاربهم في الحياة. تخيّل لو أن ركاب الدرجة الثانية والثالثة كانوا يعلمون أنهم سيموتون في تلك السفينة، ألا تظنهم كانوا ليختاروا دفع كل مدخراتهم ليموتوا في الدرجة الأولى سعداء وأثرياء؟ أنا كنت لأفعل. لقد أعجبني ذاك الثري الذي وقف بكامل هندامه وأناقته يشرب كأساً ويدخن سيجاراً فيما السفينة تغرق. قال "إن كانت أرواحنا ستصعد إلى السماء، أو ستهبط إلى أعماق المحيط، فلنمت كرجال محترمين"، وأكمل كأسه وسيجاره حتى غرق. لم تكن هذه القصة جزءاً من مخيلة الفيلم كما اعتقدت، بل هي حدثت بالفعل. يا له من رجل عظيم".

"إلامَ تلمّح؟"، سأل سلومي بنبرة جافة وقد توقف مكانه.

"إن أردت الموت ولا بد، فليكن موتك فاخراً".

"أنا لا أفكر كيف أكون عندما أموت، بل كيف سأصبح بعد الموت".

"هذا ما عليك أن تفكر فيه أنت. أما أنا فأفكر كيف أحيا سعيداً قدر ما يتاح لي، وكيف أموت فاخراً قدر ما أستطيع".

قبل أن يعودا إلى حيث التقيا قرب المسجد، قال عابد وابتسامة كبيرة تكشف عن أسنان ناصعة "سيحين موعد أذان العشاء بعد قليل. تعال معي فتصلي وتطرد الشيطان الذي يسكنك".

وكأن تلك الابتسامة العذبة سلبته إرادته فسار بصمت مع الشيخ الذي لزمه من كوعه بلطف إلى المسجد. لكن سلومي توقف بعد خطوات وسأل ثانية "هل تعتقد أنهم سيصلون عليّ؟".

تنهّد الشيخ بمودة وقال "نعم... سيفعلون".

لم تتغير ملامح سلومي التائهة. لكن عندما أضاف الشيخ "حتى إن لم يفعلوا... فسأصلي عليك أنا"، ظهرت عليه سعادة طفل حظي بعد طول انتظار بحلواه.

لكن، هل كانت تلك سعادة حقيقية؟

من يعلم؟

أدرك عابد أن الرجل يتخبّط في قراره. وازداد يقيناً أنه لن يقتل نفسه. لكن الأمور كانت تسير بخلاف ما اعتقد كلاهما.

هرول سلومي باتجاه المقبرة وجثم تلك الليلة فوق قبر سلمى، كأنما هو في الليلة الأولى. نبع من صدره أنين خافت، وأمسك قبضة من التراب وجعل يهذي بكلمات هامسة كحفيف شجرة خريفية. ثم علا صوته وهو ينظر إلى التراب ينساب بين أصابعه،

"أيها اللعين اسمعني

لن تهنأ بموتنا

لن تأكلنا

ولن تغسل يديك بعد أن تفرغ منا

لن أصبح، أنا وهي، أنت
سنبقى خالدين
في ذاكرتك،
وسننتصر عليك،
أيها المغرور بنشوة الرحيل الأبدي"!

وبعينين مغرورقتين رفع رأسه باتجاه نافذة أم عتيق. رأى ضوءاً خافتاً يصدر من شقوق النافذة الخشبية الموصدة، وتساءل في صمت اختلط بنشيجه "أين أنت يا غرسة؟".

كانت هذه الأخيرة مشغولة بجدتها التي غادرت المستشفى. بقيت هناك بضعة أيام أتاحت للحفيدة، من دون قصد حسب قولها، معرفة الكثير مما احتاج إليه سلومي. ما كان لها أن تشجعه على قراره "الغبي"، كما كانت تصفه، لكنها آمنت بأن خلاصه وخلاصها، ربما، في هذا المسار وحده!

"هل فكرت يا ابنتي في أمر خاطبك؟ يجب أن نعطي لهم رداً. وأسأل الله أن يكون ما أتمناه لك. قضيت أيامي في المستشفى أستخير الله. وما أحسّ به الآن هو أن الخيرة تقصده".

"لا ترهقي نفسك بهذه القصة يا جدتي... الآن على الأقل. لنتحدث عن ذلك لاحقاً".

"أريد أن أطمئن عليك قبل موتي. كذلك فقد وعدنا الرجل بردّ لا يطول أوانه، وها قد مضى وقت على ذلك".

"وأنا أريد أن أطمئن عليك أيضاً قبل أن أتزوج".

"هل أنت موافقة إذاً؟".

"قلت لك يا جدتي، لنؤجّل الأمر الآن".

"اسمعيني أيتها الفتاة"، قالت الجدة وقد استجمعت بعض قوتها، "لم أفرض عليك شيئاً من قبل، ولم أرغمك على الارتباط بمن تقدم أبداً. خلتك عاقلة. لكن إن تركتك أسيرة جنونك فأنا الملامة أمام الله أولاً، ثم أمام نفسي، ولن أقبل بذلك؟".

"نعم يا جدتي".

"إذاً... ما هو ردّك؟".

"سأقبل به".

علت تباشير فرح وجه العجوز المتغضن، وقالت بصوت مشبع بالسعادة "بارك الله فيك يا ابنتي. هذا قرار حكيم. ومتى نخبرهم بردّنا؟".

"متى شئت".

"لِمَ الانتظار؟ سأخبرهم الآن".

أومأت برأسها موافقة، وأطلقت العجوز زغرودة متقطعة. كان صداها على الدار غريباً!

وكأن الزغرودة قد صبّت في أذنه. رفع سلومي رأسه من مجثمه فوق القبر، ونظر إلى الاتجاه البعيد، حيث بيت غرسة وجدّتها.

مرّ يومان لم يلتق فيهما بها. لم يراقب نافذتها كما كان يفعل منذ أيام. أيقن، وقد أعياه الترقب، أنها تفعل بصدق ما لا يستطيع غيرها أن يفعله من أجله.

ظهر قريباً من مسجد الجفالي الكبير، غير بعيد عن المقبرة.

لم يقصد المكان بهدف الصلاة، بل لمراقبة عدد الجنازات التي يصلى عليها في المسجد، ويحدد مسار كل جنازة وإلى أي اتجاه من المدينة تمضي.

في الضحى، عاد إلى رواق المعزين وأوراق أخرى في يده أضحت كتاباً كاملاً. رسوم وأرقام ومسافات يتقاطع بعضها مع بعض، تماماً كما هي الأفكار في عقله. قضى الظهيرة مع أوراقه يؤنسها وتؤنسه. في المساء، كانت حصيلة من دفن البارحة واليوم تسعة أشخاص. أي إنهم بلغوا القبر ذا الرقم ١٩٧. وكما هو المتوسط خمسة أشخاص ونصف، فقد يرتفع إلى ثمانية. وإن حدث ذلك، فإن الأيام السبعة أو الثمانية التي احتسب أنها متبقية له ستكون خاطئة، أي لن تزيد على خمسة أيام لا أكثر قبل أن يرتحل عن الدنيا. هذا مرهون بدقة حساباته وحسابات غرسة أيضاً، ولا يهم إن جاء محمولاً إلى هنا قبل قبر أو ثلاثة أو خمسة، طالما فتحت كل القبور التي تسبق قبر سلمى، فذاك أمر يمكن تدبره مع عبدالله أو خليل العاملين في المقبرة، لكن المشكلة لو تأخر، وسبقه أحدهم إلى الرقم ٢١٥.

استرجع سلومي قصة غرسة عن سيارة الإسعاف وعامل المستشفى، وفكر أن الموت ما هو إلا سباق دائم نحو نهاية لا يعرف أحدهم متى تأتي. لكنهم يركضون إليه وهو واحد منهم. الفرق بينه وبينهم أنه يركض عالماً أين مقصده. الآخرون لا يعلمون أنهم سيارة الإسعاف التي تحمل الموت كما تحمل الحياة.

من جديد، يعيد الأرقام والحسابات يجترّها كثور ينتظر ذبحه.

يفكر في عدد من يدفن هنا. يزيد العدد أو يقل. يخاف ويرتعب، ثم يهدأ ويهنأ. لا يلبث أن يعيد كتابة الأرقام، وحسابها، ثم يخاف ثم يرتعب. أدركه التعب أخيراً، فاستسلم للنوم. لم يكن حلماً ما رآه بقدر ما كان كابوساً. فقد رأى أن بناية عتيقة مجاورة للمقبرة قد تهدمت على رأس ساكنيها. كان فيها أكثر من عشرة أشخاص. لا يعرف عدد من سقط صريعاً منهم. ثم رأى مجموعة جنازات تسير باتجاه الباب الأخضر للمقبرة. وبدلاً من أن يدفنوا بالترتيب حسب الأرقام، نثروا فوق أرض المقبرة كي يسقط كل واحد في حفرته وكأنها أعدّت له مسبقاً. هبّ فزعاً وقد ألصق العرق ثوبه بجسمه. كان الوقت مساءً يقترب من العاشرة. نظر حوله فكان الهدوء يعمّ المكان إلا من أبواق سيارات بعيدة. نظر باتجاه الباب الأخضر، فكان مغلقاً. هدأت أنفاسه وهو ينظر إلى قبر سلمى. لم يلبث أن تحول حلمه إلى نصف حقيقة عندما رأى باب المقبرة يفتح وتدخل منه جنازتان. بدا الأمر غريباً أن يدفن أحد في هذا الوقت، وخاصة أن صلاة العشاء قد مضى عليها أكثر من ساعتين، وعادة ما يكون آخر دفن محتمل بعدها مباشرة.

بخطوات سريعة وثب إلى الباب الرئيسي. سأل من كان هناك وكأن المصاب مصابه. ماذا يحدث، من سيدفن، ولماذا؟

بلطف أزاحه أحدهم عن طريق الجنازة الأولى التي مضت إلى مكانها، تلتها الثانية سريعاً. وقف ينظر عاجزاً مرتبكاً حتى فرغ الجميع. كان هناك عاملان فقط أشرفا على المراسم الأخيرة. أحدهما هو عبدالله. اقترب منه وسأله عمّا يحدث، فأخبره بأن

أربع جنازات كانت متجهة إلى مقبرة الأسد، غير البعيدة عن هنا، لكن اكتشفوا في اللحظة الأخيرة أن هناك خطأً في أوامر البلدية، "بسبب خلل في الحاسوب على ما أعتقد"، قال عبدالله، وأضاف "كانت اثنتان تقصدان هذا المكان لا مقبرة الأسد"!

"خطأ في أوامر البلدية... خلل في الحاسوب؟". ردّد ثم سأل ثانية "وهل تتكرر مثل هذه الأخطاء؟".

"هي تحدث. لا ألومهم، فمقابر المدينة مكتظة، والعدد يزداد كل يوم"!

"يزداد...؟".

"أقصد أن حوادث السيارات تزداد، والأمراض تزداد. لكن... والحق أقول، لربما أخطأت، فعدد الموتى الآن قد يكون أقل"، قال العامل وقد أحسّ أنه ربما نطق بمحظور، واسترسل مادحاً "عدد المستشفيات قد ارتفع والعناية الصحية أصبحت أفضل"، ثم وعلى عجل ترك سلومي يتمتم وسط الصمت "يزداد... خلل في حاسوب البلدية... هل هو يزداد أم ينخفض؟". إن صدق العامل في ما قال عن الزيادة، فالمتوسط الفعلي في الأيام القادمة سيرتفع إلى أكثر من ستة أشخاص، لا أقل من ذلك، ولا استثناء. "هذا يعني..."، ردد في نفسه وهو يحسب على أصابعه، "يا إلهي..."، والتفت إلى صف القبور المفتوحة والمغلقة أمامه. لقد كانوا يقتربون من الرقم ٢١٥.

قضى الليل بطوله يفكر في خلل حاسوب البلدية، وفي خلل البلدية، والبلد كله. قدّر أنه لو اعتمد منطق الحساب الإنساني،

فلن يفيد في حالته هذه مع حاسوب يخطئ في حساب الموتى، ومكان دفنهم. وإن أضاف إلى المسألة قضية جنسيته، فسيكون عليه انتظار معجزة كي يتحقق مراده لا مجرد حسابات يزعزع حاسوب متخلف أساساتها.

عليه انتظار الصباح. وعندما أتى، كان عليه انتظار الظهر. وبين الزمنين لم تنزل عيناه عن باب المقبرة. ومن جديد، عاد يلتمس خبراً من غرسة.

قبل المساء، ما عاد قادراً على الانتظار أكثر. قادته قدماه إلى الحي الذي كان يسكنه، بحثاً عن غرسة. كانت هي المرة الثانية التي يدخل فيها الحي منذ حادثة سلمى. وقف تحت شرفتها وهتف باسمها غير عابئ بمن عرفه ولم يعرفه. لكنها لم تظهر. غادر بعد يأس إلى حيث بيت أم عتيق. وتحت النافذة نصف المشرعة فعل الشيء ذاته، ولم يظهر له شيء. متخبّطاً في أفكاره، عاد كعجوز بالكاد يسير إلى المقبرة. أمام بابها، رأى غرسة، إن لم يخطئ في تقدير قوامها وطريقة لبس عباءتها، وهي تحادث أحد العمال هناك، إنه عبدالله.

اقترب بخطى متئدة، محاولاً استراق ما يدور بين الاثنين... وكأنها أحسّت به فالتفتت إليه وهو يقول "كنت أبحث عنك. لا بد أن أحادثك. لكن... ماذا تفعلين هنا؟".

"كنت أيضاً أبحث عنك. انتظرني بعد العصر، في مكاننا المعتاد"، قالت وعادت تحادث العامل وكأن سلومي عابر طريق.

التفتت ثانية إليه وهو لا يزال في مكانه

"لا تقف هكذا. اذهب وانتظرني حيث أخبرتك"!

* * *

أبطأت في حضورها بعد العصر. جلس ينتظرها وهو يقلّب الأوراق أمامه، يفتحها ثم يعيد إغلاقها، ثم يفتحها من جديد. الأرقام تتطاير في فضاء الغرفة نصف المعتمة للشيخ عابد. للحظة سكنته رعشة وهو يتذكر قبراً سيكون أكثر ظلمة من هذا المكان، وأصغر بكثير. لو أبطأت غرسة أكثر، لوجدته ينتظرها خارج الغرفة، تحت نور الشمس واتساع المكان.

بثقة خطت إلى الغرفة وكأنها تدخل بيتها. أخذت مكانها على السرير وجلس هو قبالتها.

بصوت مرتبك سأل "أخبريني... ما الذي يحدث؟ وأين غبت ثانية؟".

"اهدأ ولا تحاسبني على أفعالي. لقد بتّ أعمل لك ما لم أعمله لجدتي المريضة".

"حسناً، هل نحن على الطريق الصحيح؟ يجب أن نعيد حساباتنا. حاسوب البلدية يخطئ، ومع حظي التعس، فقد يخطئ في توقيت دفني".

"اسمعني جيداً... قبل أن تغادر جدتي المستشفى، عرفت أموراً أكثر، مستعينة ببعض أوراقك، وحسبت المدة الكافية بين إصدار شهادة الوفاة والدفن. حساباتي أدق منك. لقد أغلقوا

بعد صلاة العصر الآن القبر ذا الرقم ١٩٩، ويعني هذا أن ١٥ قبراً يفصلك عنها. لن يزيد المتوسط في الأيام القادمة على ثلاثة أشخاص كحد أقصى، لا خمسة ولا سبعة. أي تقريباً، خمسة أيام من الآن". أشعلت سيجارة ونفثت دخانها، ومن وراء سحابتها البيضاء سألته "هل أنت جاهز؟".

"... بعد... خمسة أيام؟". وأضاف في تلعثم "هل أنت... واثقة؟".

"هل أنت جاهز؟"، كررت.

"حسناً، نعم... أنا جاهز. لكن، هل هي خمسة أيام فقط؟".

"هل تريدها أن تكون ستة؟... لا يا عزيزي. عدا اليوم الخميس، هي خمسة أيام كل ما بقي لك، إن كنت لا تزال عازماً".

"نعم... نعم".

"هل تتذكر المراحل التي ستجتازها كما أخبرتك؟".

هزّ رأسه "نعم... أتذكرها".

"تناول السم طريقة آمنة، نصف ساعة قبل المستشفى، لا ثلاث ساعات كما قدّرت سابقاً. ولا تنسَ أمر الورقة التي تفيد بأن موتك كان باختيارك. يجب أن يتم كل شيء بسرعة". رأته يبلع ريقه، لكنها واصلت بثقة بعد أن سحبت نفساً من سيجارتها وهي تلمح ارتباكات أوصاله من تحت ثيابه وجلده "لا ينبغي أن يفتحوا تحقيقاً في الأمر. اليوم هو الخميس، بعد عصر الثلاثاء القادم، وتحديداً في الخامسة، ستتوجه إلى المستشفى فيما الجرعة تبدأ مفعولها. دع الورقة المكتوبة في جيبك. عندما تصل إلى هناك، لن يطول

الأمر قبل أن تعلن وفاتك". صمتت وهي تنظر إلى عينيه الزائغتين، ثم ختمت حديثها كحاكم عسكري يتلذذ بضحية جديدة " بعد ذلك سأتابع أمر دفنك صباح اليوم التالي، أي الأربعاء".

ساد صمت فضاء الغرفة الذي عبق برائحة التبغ، ثم طرح سؤالاً وكأنه يستجدي عطفاً منها "هل تقترحين شيئاً محدداً أكتبه في الورقة؟".

"اكتب ما شئت، المهم أن يكون واضحاً... لقد مت باختيارك. لا تدعهم يرتابون، وإلا اختلفت كل حساباتنا".

"كنت أفكر في الصيغة التالية... اسمعي...".

قاطعته "كفاني ما رأيت من الموت، لا حاجة إلى سماعه"!

صمت وكأنه تلقّى لطمة على خدّه.

استجمع بعض قوته ثانية. أراد أن يخرج أشياء كثيرة من داخله. أشياء تخيفه مثل أشباح تسبح داخله. أراد الهرب منها بأسئلة كثيرة. أراد الهرب من آلام باتت تلك الغرفة الصغيرة أصغر من أن تستوعبها!

ما أراد الحديث عن الموت من جديد. لكنه وجد نفسه يسألها "هل تظنين أن النساء أكثر من الرجال هناك؟".

"أتقصد المدفونين؟".

"نعم".

ردّت بجِدة وكأنها تصفعه ثانية "ما أدراني. أنت من كان هناك لا أنا. ثم هل تراني عاملة إحصاء لأعرف أيهما أكثر؟". ثم قالت وهي تشير بإصبعيها والسيجارة بينهما "هل تعتقد أن المقبرة هي تلك الشواهد فقط؟". أجابت عن سؤالها وكأنها تلفظ غضباً "على

هذه الأرض، كل شيء هو مقبرة"!

"أتحدث عن المدفونين هناك... تحت التراب".

"وأنا أتحدث عن المدفونين فوق التراب"!

أطفأت سيجارتها في منديل سحبته من علبة بجوارها، نظرت إليه وقالت "إن أرهبك الأمر، فسأتركك تفكر حتى صباح الاثنين، أي بعد ثلاثة أيام من الآن. إن قررت المضي في ما عزمت عليه، فسيكون كل شيء معدّاً لذلك. وإن عاد إليك عقلك، فيسعدني أن أدعوك إلى عرسي مساء الخميس".

اضطرابه فضحته عيناه حتى اختلط سوادهما بمنخري أنفه وهو يسمع تاريخ موته وقصة عرسها. ثم قال وهو يجاهد كي يبدو متماسكاً "صباح الاثنين؟". وأمسك بذراعها وهي تخطو باتجاه الباب "ابقي قليلاً... أرجوك". وقفت مكانها تنظر إلى عينيه الخائفتين. قال لها "غريب أن نختلي معاً لنتكلم عن الموت".

"إنه الطريق الذي اخترته أنت".

"هل ستتزوجين حقاً؟ ماذا لو..."، صمت وهي تنتظر ما يقول، ومن دون توقع تحولت نظراته الزائغة إلى عينين تنضحان اشتهاءً. أخذ يدها وقبّلها. ثم دنا أكثر وحاول أن يقبّلها. بهدوء سحبت يدها، وأدارت ظهرها منصرفة، ومن ورائها سمعته يقول "هل كنت تخططين لكل ذلك؟".

التفتت إليه "ماذا؟".

"هل تذكرين؟ إنهما نبوءتاك تتحققان. وكأنك عالمة بما سيكون؟".

"لست أفهم".

"عندما قلت إنها ستموت وأعيش وحيداً متحسّراً عليها، وعندما تمنيت لو تبعثين لي بسمّ يقتلني فأدفن معها؟! هل كنت تخططين لكل ذلك؟!".

"وهل أنا من يطلب منك أن تموت"؟ أم هي أنا من قتلها؟".

"ومن قال إنها قتلت؟ من قال إنها ماتت؟ إنها حية تنتظرني هل تفهمين؟ حية"!

"اذهب إليها إذاً"، قالت بغضب وانصرفت.

* * *

الأسبوع الثالث

جحظت عيناه، وبرزت عظام وجنتيه، وطالت ذقنه.

كانت تلك هيئته عندما نظر إلى نفسه في مرآة المسجد الصغير بعد عصر يوم السبت عائداً من المقبرة. أيقن أن حسابات غرسة، وبما عرفته في المستشفى، أدق من حساباته. فلم يزد عدد من دفن في اليومين الماضيين على ستة أشخاص. أي ثلاثة في اليوم الواحد. تماماً كما قالت. لقد استطاعت، بعد قراءة دقيقة لأوراقه، وربما بعد اتصالها بعامل المستشفى أيضاً، أن تقلص المتوسط من خمسة ونصف في اليوم الواحد إلى ثلاثة. "ألهذا الحد يمكن

التلاعب بالموت؟"، سأل نفسه. بقيت تسعة قبور تفصله عن سلمى. وإن لم يدفن أحد اليوم السبت، فسيكون موعد فتح قبر سلمى مساء الثلاثاء كما تم التخطيط لذلك تماماً. وإن صدرت شهادة وفاته مساء يوم الثلاثاء ذاته، فإنه سيكون أول من يدفن صباح الأربعاء في الرقم ٢١٥.

لتدارك أي طارئ في حاسوب البلدية، أو حسابات غرسة، عليه ألا يغادر المقبرة إلا لقضاء ما عليه قضاؤه قبل الرحيل. لكن ما الذي يستطيع فعله لو حدث هذا الطارئ؟

"لا شيء" قال في نفسه. عليه انتظار مصيره فقط، آملاً أن تسير الأمور وفق ما يريد. لكن ما الذي يريده الآن؟ أن يموت فعلاً وقد أصبح قريباً من الموت، أو يشق طريقاً جديدة في الحياة؟

أرّقه السؤال، حيّره، أغضبه، وكشف رويداً رويداً عن سلومي الجديد الذي يولد!

مشاعر جديدة تسكنه مع كل ثانية تمضي. قرر، قبل العودة إلى المقبرة مساء السبت، أن يسلك متاهات المنطقة التاريخية وكأنه يودعها. ترك قدماه تقودانه. عيناه على الطريق، وعقله في طريق آخر. بعد فترة وجد نفسه أسفل المقهى الذي يجلس فيه عابد. ارتقى الدرجات، فلم يجده مكانه.

عبدالله الفقي، الذي يدير المقهى، أخبره بأن الشيخ عابد لم يأت حتى الآن، لكنه سيكون هنا مساءً كعادته. وقف سلومي لا يعرف، هل يجلس أم ينصرف؟ قطع تفكيره سؤال من الفقي "هل أعدّ لك إبريقاً من الشاي المعتق؟".

"نعم... أشكرك"، أجاب وهو يأخذ مقعده.

"هل تعرف الشيخ عابد منذ زمن؟ "لم أرك معه سوى أخيراً".

رفع سلومي رأسه للرجل وسأله "أيمنيّ أنت؟".

"نعم".

"وكم سنة مضت على وجودك هنا؟".

"أوووه... سنين طويلة. أكثر من أربعين عاماً".

"هنا... أربعون عاماً في جدة؟".

"بل في هذا المقهى نفسه. أسّسته مع صاحبه. رجل يقال له الفضلي، قد تخطّى الثمانين من عمره. آآآه... لا أعرف أي مصير ينتظرنا إن حدث له شيء؟".

"وهل حياتكم مرتبطة به؟".

"أربعون عاماً كافية لتربطك بالحجر. هل تعتقد أني قادر بعمري هذا على استجداء كفيل آخر؟ إن مات الفضلي، أفضّل أن أعود إلى بلدي اليمن. سأزرع القهوة، أو القمح. وإن لم أنجح، فسأزرع القات وأمضغه حتى أموت وحزمة منه في فمي".

غادرسلومي المقهى وفي فمه كلام كثير لم يقله. فكر في حديث عبدالله الفقي. "أربعون عاماً تربطك بالحجر. ماذا لو كان الحجر فتاة اسمها سلمى؟".

مضى يحدوه أمل برؤية عابد في غرفته الصغيرة بجوار المسجد. لكنه آثر وهو واقف أمام بابه أن يدعه في سكينته، فأي جديد سيخبره به؟ تردد... وتردد... ثم انصرف إلى رواق المعزين داخل المقبرة.

انتصف الليل وهو هناك. بقي شبه مستيقظ حتى أعياه التعب، فنام على كرسيه. لم يوقظه أحد. تركوه حتى الفجر. نوم عميق جرفه بعيداً عن آلامه وشتات فكره. عندما أفاق كان ضوء الصباح لا يزال في بدايته. داعبه هواء عليل. وللمرة الثانية، يفتقد ساعته، وجواله.

لسبب ما، وسط الصمت المحيط به، شعر بوحشة المكان. نظر إلى العاملين وقد بدأوا يومهم. عندما أخذ أحدهم بسكب بعض الماء على الأرض لتنظيفها، وجد نفسه يساعده في مهمته، وكأنه يعمل هنا. إنها إشارة أخرى إلى حياة جديدة تولد هنا، حيث لا شيء سوى الموت. إلا أن جسده الهزيل المنهك من التفكير والانتظار، دفع بعامل التنظيف إلى أن يشكره ويعيده إلى مقعده.

إنه صباح الأحد.

فور أن أطلّ عبدالله، العامل في المقبرة، سأله سلومي عن عدد من يتوقع دفنهم اليوم. أخبره بأن تقرير البلدية أشار إلى شخص واحد بعد الظهر، "سيكون رجلاً".

"واحد فقط؟".

"إنه الصباح بعد. قد يأتي لاحقاً ثلاثة أو أربعة... من يدري؟".

"ثلاثة أو أربعة؟ لا يمكن".

"لماذا لا يمكن؟". سأل العامل "الأعمار بيد الله. وقد يكون هناك من يتناول إفطاره الآن، لن يأتي المساء إلا وقد دفن هنا؟".

مع أنه عزم على البقاء وقته الأطول في المقبرة، حتى يحين موعد لقائه القادم بغرسة يوم غد الاثنين حسبما اتفقا، إلا أنه آثر

الخروج، ومرة ثانية بلا وجهة محددة. لم يقصد المدينة العتيقة هذه المرة، بل أخذ اتجاه الشمال، متجاوزاً مبنى وزارة الخارجية، ثم دار من خلفه وعاد إلى نقطة البداية. مضى ثانية إلى مسجد الجفالي ودار من حوله، ومن جديد عاد إلى حيث بدأ. أحسّ بنفسه محاصراً داخل تلك الدائرة الضيّقة. خائف أن يغادرها.

سنوات عمره، كل سنوات عمره، لم يتخطَّ فيها حدود المكان. أبعد ما وصل إليه، كان حيث يقف هنا غير بعيد عن البيت الذي كبر فيه ومبنى الخارجية. دائرة هذا كل قطرها فقط، كانت هي حياته وعالمه.

"ماذا يوجد بعيداً عن هنا؟"، سأل نفسه. إنه عالم جديد لم يعرفه بعد. "لعله يختلف". وفكر هل رغبته في الموت عائدة إلى أنه يعيش هنا، ميتاً بالفعل؟ لم تكن حياته تعرف بهجة أكثر من لقائه بسلمى. عالمه كله هنا، مع سلمى حية أو ميتة. الكرة الأرضية كلها هي الممتدة من بيته إلى متجر خالد الذي عمل فيه، لا أبعد من ذلك. ليست وفاة سلمى فقط هي ما جعلته يتمنى الموت إذاً، بل هي الحياة داخل الموت نفسه.

"ماذا يوجد وراء تلك العمائر البعيدة؟ كيف هو شكل البحر؟". البحر الذي لا يبعد عنه أكثر من مئة متر، حتى هو لا يعرفه. العمائر البيضاء النظيفة في البعيد، لا يعرفها. البشر القادمون من هناك يبدون أنظف. يبدون أكثر إنسانية من الساكنين هنا.

الأنوار الساطعة الممتدة إلى عمق المدينة البعيد باتجاه الشمال تلمع في عينيه في هذا الوقت المبكر من الصباح. كل شيء جميل

ومضاء هناك، لكن العتمة والبؤس هما أفضل ما يتصف به المكان هنا. "كيف لحبّ في عتمة البؤس أن يعيش؟".

ثانية وثالثة وعاشرة سأل نفسه إن كانت حياته هنا في حي العمارية، بين البيت الذي كبر فيه والمتجر الذي عمل فيه، وحتى المقبرة التي سكنها، كلها جعلت من موته بوابة حياة أخرى قد تكون أجمل من العمارية ومتجر خالد وسلمى النائمة بهدوء. عندما ماتت هي، ماتت الحياة الصغيرة التي نشأ فيها، وتعفن الحي الميت أصلاً. لكنّ صوتاً داخل سلومي كان يفكر بعكس ما يحدّث به نفسه. إن حياة أكبر تدور خارج هذا المكان. من مكانه هنا، في ساعات الصباح تلك، متجوّلاً بين مبنى الخارجية المهيب بلونه الأبيض، ومسجد الجفالي بقبابه البيضاء، ورائحة البحر، كلها أشياء تتغير في داخله، هو نفسه لا يعرف كيف يصفها.

أدار ظهره إلى العالم الجديد، ووقف ينظر إلى المقبرة البعيدة. إن رأى صورة إنسان يحب أن يكون معه الآن، حيث يقف، فليست هي سلمى. ردّد في صمت نفسه "تلك العمائر البعيدة النظيفة، والبحر، والناس بثيابهم الجميلة، موتى إن لم يعرفوا الحب، كانوا هنا أو كانوا هناك. الحب هو الحياة"! من دكان مجاور، ابتاع بعض الحلوى، وقفل عائداً إلى المقبرة.

وكأن غرسة هي القدر نفسه، سيقت جنازتان مساء ذلك اليوم إلى "أمنا حواء"، وهي إضافة إلى الأولى في الظهيرة، تكون في مجملها ثلاثاً لا أكثر كما قالت تماماً. لقد بلغوا الرقم ٢٠٨.

ثلاثة في الغد، وثلاثة يوم الثلاثاء، ويكتمل العدد، ثم صباح

الأربعاء سيكون الرقم ٢١٥ في انتظاره.

* * *

قبل أن تقام صلاة ظهر يوم الاثنين، كانت غرسة تطرق باب الغرفة الصغيرة، وفي يدها كيس صغير.

بتبرّج كامل، لم يره عليها من قبل، خطت إلى الداخل. أسكته جمالها. وعندما نزعت عباءتها، تجلّى له ثوب يلتصق بانحناءات شديدة الأنوثة، فأطلق شهقة عميقة.

كان ثوباً صمّمته بنفسها. مليئاً بالألوان، ضيقاً في الأعلى متسعاً في أسفله ومزركشاً. يشبه ثوب راقصة إسبانية. وهو رغم مظهره البسيط، فقد بدت به كأيقونة مقدسة.

جلست على السرير مكانها وسحب كرسيه بهدوء وجلس قبالتها.

"تبدين رائعة".

"ألا تعتقد أنك قد تأخرت قليلاً؟". سألته في تهكّم.

لم يعرف بمَ يجيب، لكنه قال "أعتذر عمّا بدر مني في لقائنا الأخير. لم أكن أقصد..."،

قاطعته "هناك أشياء أعظم لتعتذر عنها. لكنني لا أنتظر منك شيئاً".

"هل تشفع لك أنوثتك أن تكوني جافة إلى هذا الحد؟"، سألها مستدرّاً عطفها.

"ألم تشفع لك هذه الأنوثة لترأف بصاحبتها؟".

"وما الذي اقترفته بحقك أنا... أنا...؟"،

قاطعته ثانية "يا لك من ميت حقيقي. دعنا من ذلك الآن. غداً هو الموعد. هل ما زلت عازماً؟"، سألته بنبرة جلّاد.

"أحببت أن أقول... أولاً..."، صمت ولم يكمل.

"خائف أنت؟"، قالت في تهكّم.

استدرك وقال "لا... لا... غداً هو الموعد، ولست خائفاً، لكن... هل سترفّين حقاً يوم الخميس؟".

"سأخطب يوم الخميس، وسيكون الزفاف في الصيف. لكن ما شأنك بذلك؟".

"وهل ستعيشين في الحي نفسه، أم ستغادرين؟".

"سأذهب إلى مكان بعيد. ربما آخذ جدتي معي، فلم يبقَ في الحيّ سوى الكلاب على أنواعها"!

صمت قليلاً ثم قال "لو كنت متردداً في ميتتي يوم غد، فقد بتّ الآن أكثر إصراراً عليها. فمن يبقى هنا بعدك؟".

"ماذا قلت؟".

طأطأ رأسه وكأنه في لحظة اعتراف.

"انظر إليّ... ماذا قلت؟".

"وبماذا يفيد ما قلت؟ لن يحدث الأمر فرقاً. سيذهب كل في طريقه".

"لم أرَ من هو أحمق منك".

"إن كنت أحمق، فلمَ ساعدتني؟"، قال وهو يرفع رأسه.

"تلومني الآن؟ لا بأس ما دمت قد غيّرت رأيك".

"من قال إني قد غيّرت رأيي. بل هو مجرد سؤال. لماذا ساعدتني إن بدوت لك إنساناً أحمق؟".

"لأني مثلك"!

"ماذا تقصدين؟".

بقيت صامتة حتى اخترق صوت رعد بعيد فضاء الغرفة.

"أعتقد أنها ستمطر"، قالت صارفة إياه عن سؤاله، "منذ الصباح والغيوم تحجب الشمس".

بقي ينظر إليها منتظراً جواباً لسؤاله....

"أحب جدة في الشتاء"، أجابته وهي تستمع إلى صوت الرعد وكأنه ما قال شيئاً. وأضافت "تحمل السحب الكثير من الأحلام. عندما تهطل مطراً، فهي تحقق الأحلام على الأرض".

بعيداً عن الأحلام والسحب باغتها بسؤال "أتحبينني؟". أشاحت بوجهها، فكرر سؤاله وهو يدير رأسها تجاهه "أتحبينني؟".

أشاحت بوجهها ثانية وقالت "لا".

"أنت تكذبين"!

دمعت عيناها وسال على وجنتيها خطان أسودان اختلطا بكحلها.

"أنت مجرم حقيقي"، قالت وأطبقت على وجهها تخفي حزناً مكبوتاً نضح من عينيها. تركها حتى هدأت قليلاً. وقبل أن يسألها من جديد، أخرجت من الكيس الصغير الذي أحضرته معها ثوباً

أبيض مطرّزاً طُوي بعناية.

"ابتعته العام الماضي من أجلك. أردت أن يكون هديتي لك في عيد الفطر. خلتك حينها ستخرج من محنتك، لكنك لم تفعل... خذه".

أخذه منها وهو ينظر إلى التطريز على ياقته وصدره "إنه جميل".

"البسه في الغد، كي تكون آخر صورة يرونك فيها بهذا الثوب؛ نظيفاً، حسن الهندام، علّ ذلك يخفي بعض جنونك. وإن ثاب لك عقلك..."، صمتت قليلاً، "فالبسه مساء الخميس من أجل خطبتي".

"سأموت في الغد، حتى لا أموت ثانية مساء الخميس"، قال ذلك ولمس يدها برقة.

نظرت إليه من دون أن تسحب يدها وقالت بأنفة "إنه ما تستحق".

اقترب منها قليلاً من دون أن تزيح ناظريها عنه. قبل أن يقترب أكثر قالت "استعد ليوم الغد، فلن تنال مني شيئاً".

"ومن قال إني أريد شيئاً؟".

"أنا أدرى بما يريد الرجال"!

"وما أدراك بالرجال؟".

"وما أدراك بالنساء أنت؟".

"كل النساء يتشابهن"!

"حتى سلمى؟".

لم يبدِ أي ردّ عند سماع الاسم، ولزم الصمت.

"ألم أقل لك إني أدرى بالرجال منك؟".

"هل لأنك تغوينهم"، نطق سلومي بذلك، وللفور أدرك خطأه "اعذريني... فما قصدت".

قاطعته "لم أغوِ أحداً سواك. أما البقية فالخطيئة نفسها أكثر عفافاً منهم". أشعلت سيجارتها ثم أضافت "هل ترى كيف أنك كباقي الرجال؟".

"أعتذر عمّا قلت. لكنه الماضي عندما أفكر فيه. أقسم إني..."،

قاطعته ثانية، "تعرف الرجال من أمرين: عندما يثملون، وعندما يسألون المرأة عن ماضيها"!

أمسك بيدها من دون أن يرفع رأسه "سامحيني... أرجوك".

"على أي خطأ أسامحك؟ يا لي من حمقاء. لمَ أجادلك؟ هيا أيها الرجل، اختر طريقك. بقيت أمامك ساعات فقط، وتذكر أن الخامسة مساء الغد هو موعدك".

"الخامسة مساء الغد. نعم... نعم... هي ساعات فقط"، ردّد بصوت خافت وهو يعود إلى كرسيه.

أشارت إلى الكيس الذي أحضرت الثوب فيه "في كيس صغير هناك ستجد كمية من السم، كافية لقتل عشرة رجال. تناولها كلها، كي تضمن نهاية سريعة".

حدّق في عينيها من دون أن ينظر إلى حيث أشارت، ثم قال بشفتين ترتعشان "تفضّلين موتي... هه؟ يا لك من امرأة قاسية".

لم تجبه، ثم أضاف وكأنه يهذي "حسناً، ذاك أفضل"! وعلته ابتسامة خفيفة "على الأقل سأقرر بنفسي مصيري... متى أموت، كيف، وفي أي قبر سأدفن".

بقيت صامتة تنظر إليه حتى قال "لقد كنت أفضل مني".

"بل أكبر منك"!

"نعم... أكبر مني بعام على ما أعتقد. ليس بفارق كبير لتكوني بهذه القسوة".

"بل أكثر من عام. عندما تقاس الحياة بحجم تجاربنا، فأنا أكبر منك بكثير". نظرت إليه في كبرياء وهي تهبّ واقفة، فيما هو منكسر على نفسه.

نظر إلى الكيس الصغير وسأل "هل سيكون احتضاري مؤلماً؟".

أجابته وقد تلفّعت بعباءتها "ألم الفراق أقوى من الاحتضار". نظرت إليه غير عالمة إن كان يستحق الرثاء أم هي من تستحقه أكثر منه. أدارت ظهرها منصرفة قبل أن تقف لحظة وتسأله من دون أن تلتفت إليه " ما الذي كنت تفكر فيه وأنت على قبرها، جاثم كصنم حتى كاد الذباب يأكلك؟".

"لم أكن أفكر في شيء"، أجاب بصوت متحشرج.

"الموت... أو رعشة الجنس، أحدهما فقط يوقف العقل عن عمله. ولمّا كنت لا تعرف شيئاً عن الجنس، على ما أظن"، قالت بخبث وهي تنظر إليه من فوق كتفها، "فقد كنت إذاً تعيش حالة من الموت. وها أنت تتهيّأ لميتة ثانية. لكن كن واثقاً بأنها ستكون

أرحم في ألمها من الميتة الأولى".

"كنت أفكر في شيء واحد..."، قال وكأنه يثبت خطأ ظنها، "كنت أسأل نفسي وأنا جالس هناك... ماذا لو كانت لا تزال على قيد الحياة فعلاً وهي في قبرها؟". استغربت غرسة ما قال وهي تلتفت بجسمها كله إليه وتركته يكمل "منذ اليوم الأول، وأنا أسترجع قصص أناس دفنوا ولم يكونوا قد ماتوا بعد، فبتّ أسأل نفسي، ماذا لو لم تكن ميتة بالفعل؟".

هزّت رأسها وقالت بنبرة لاذعة "حسناً... عندما تموت سنتأكد أنك ميت بالفعل قبل دفنك"!

وانصرفت من دون كلمة وداع.

"هل كانت تدرك أنه اللقاء الأخير؟". سأل سلومي نفسه وهرول خلفها حتى أدركها عند منعطف الزقاق الضيق المفضي إلى الساحة الصغيرة أمام المسجد. من دون أن يهتم بمن يسمع ولا يسمع سألها "هل سأراك ثانية؟".

التفتت إليه... وبقيت واجمة.

كرر سؤالة بنبرة متوسلة وكأنه يذكّرها بأن الوداع الأخير كل ما يريد منها.

علتها ابتسامة صافية وقالت "نعم... ستراني"!

* * *

تمدد على سريره، متسائلاً لمَ هي غرسة تزداد قسوة كل يوم؟

في اللحظة نفسها، كانت غرسة تبكي قسوتها عليه، وتبحث عن الجواب ذاته. فمن قال إنها ما عادت تحبه؟ لكنه الجرح عندما ينكأ.

في لحظاته الأخيرة، كان يحتاج إلى شيء من عطفها، لكن أي عطف هو الذي منحه لها؟ إن كان هو على وشك الموت، فهي قد ماتت ألف مرة بما فعله معها.

جلس في غرفته وكأنه في زنزانة ينتظر ساعة إعدامه. أغمض عينيه من الإعياء والخوف، ثم فتحهما على أصوات تنادي باسمه. رأى صور الماضي في فضاء الغرفة. خالد، سلمى، أمها، غرسة، أم عتيق، خليل، عبدالله وعابد. أبطال قصته تجمعوا تلك اللحظة ينظرون إليه وكأنهم يودّعونه.

اعتدل في جلسته بتثاقل. نظر إلى الكيس بجواره وأخرج منه كيساً صغيراً فيه مادة بيضاء. قلّبه بيدين مرتعشتين، ونظر إلى الثوب الأبيض المطرز الذي وضع على طرف السرير. سمع أذان المغرب يرفع. بقي جالساً يجاهد لتصفية عقله المشوّش. بعد دقائق سمع إقامة الصلاة، ثم صوت عابد يؤمّ المصلين.

أطبق بيديه على وجهه وشرع يردد "يا الله... يا الله"، حتى انتهت الصلاة وغادر على عجل. وجد الشيخ عابد جالساً على باب المسجد بعد أن انتهت الصلاة. اقترب منه ووقف قبالته. نهض الشيخ والسواك في فمه. من دون أن ينطقا، تعانقا سريعاً، ومضى كل في طريقه.

اتجه سلومي إلى "أمنا حواء". كانت هادئة. علم منذ الصباح

أن جنازتين ستدفنان بعد ظهر هذا اليوم الاثنين، وستأتي الثالثة لاحقاً. جلس ينتظرها... فكّر وهو جالس في رواق المعزين لَمَ تأخرت؟ إن أصاب خلل آخر حاسوب البلدية، فقد تكون تلك إشارة من الله بألا يموت. صوت عميق في داخله تمنى ذلك. نظر إلى حيث قبر سلمى، فرأى القبور الأربعة المفتوحة قبلها.

"لا بد أن تكون قد أحسنت الحساب". قال في نفسه وشك عظيم يكبر في صدره حول سلامة ما اتخذ من قرار.

اسيتقظ من أفكاره على يد تربت كتفه. كان عامل المقبرة عبدالله. قال له إن تلك السيدة التي كان يقف معها نقدته مالاً، وإنها "تكفلت بكل شيء".

"ماذا تقصد بكل شيء؟". سأله سلومي.

لم يجب عبدالله ومضى مسرعاً.

رآه يبتعد، فلم يتبعه. فقد بات على يقين بأن غرسة قد أعدت بالفعل كل شيء عندما يأتي محمولاً إلى هنا. نظر إلى نافذة أم عتيق، فرآها مغلقة، وابتسم في تهكّم. بقي جالساً هناك حتى سادت العتمة ولم تأت الجنازة الثالثة. غادر باتجاه المكان الذي قصده أمس، عند أطراف الحي، بين جامع الجفالي ومبنى وزارة الخارجية. وقف ينظر إلى السيارات تدخل ميدان البيعة وتغادره. تراءى له ثانية الطرف الآخر من المدينة أشبه بعالم بعيد وغريب. سار إليه متقدماً مسافة تزيد على مئة متر، ثم توقف وقفل عائداً. كانت صلاة العشاء قد أذنت. قادته قدماه إلى مسجد الجفالي. أبطأ في وضوئه، ثم صلى العشاء جماعة، وسبع ركعات بعدها.

كان هو آخر من غادر المسجد. قبل أن يعود إلى "أمنا حواء" سار باتجاه متجر خالد. وقف أمام الباب. رآه خالد من وراء الزجاج المتسخ، فترك من كان يحادثهم وهبّ باتجاهه.

"أحمد الله على سلامتك يا بني"، قال وهو يحيطه بذراعيه.

وكأنه كان يعانق تمثالاً، لم يبدِ سلومي أي فعل. أمسك بيده وقاده إلى الداخل. استأذن من ضيوفه، فانصرفوا، واختلى هو بربيبه.

"تبدو متعباً".

بقي سلومي صامتاً ومضى خالد يحدثه بحماسة وسعادة "ستعود إلى العمل، أليس كذلك؟".

لم يجبه.

"هل أنت بخير يا بني؟ كنت قلقاً عليك، لكن الشيخ عابد جزاه الله خيراً كان يطمئنني دوماً".

سحب سلومي نفساً عميقاً ثم فاجأ خالد بسؤال "لو بقيت سلمى على قيد الحياة، فهل كنت لتزوجني بها؟".

ما عرف خالد بمَ يجيب وقد صدمه السؤال، ثم قال "أنت تعبث بجرح لم يشفَ بعد؟".

"هل كنت لتزوجني بها؟"، كرر سؤاله.

أجاب خالد بعد تردّد "إن كان يريحك الأمر، فسأقول نعم، فأنت بمثابة ولد لي، وهي..."، صمت قليلاً ثم قال بصوت منكسر "وهي كانت ابنتي... رحمها الله".

فاجأه سلومي ثانية "وهل توافق على زواجي بها الآن؟".

نظر إليه وقد تعاظم استغرابه وجحظت عيناه "هل أنت بوعيك

يا سلومي؟ كيف أزوجك من قد أصبحت في ذمة الله؟".

"هل توافق؟". كرر السؤال بإصرار أكبر.

"لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا تريد أن أقول لك؟".

"هل توافق؟".

"لست أملك أمرها الآن. لكني أشهد الله أني كنت لأزوجها لك لو بقيت على قيد الحياة. فهل سيجيب ذلك عن سؤالك؟".

تبدلت ملامح سلومي وهزّ رأسه راضياً. لمعت عينا خالد بدمع غمر مقلتيه، ثم مسح على رأس سلومي وقال له "لم تتغير ملامحك البريئة. هي ذاتها مذ كنت طفلاً. تعال إليّ يا بني، دعني أحضنك".

بقي سلومي جامداً حتى انصرف من دون أن يضيف كلمة أخرى.

عندما دخل "أمنا حواء" سأل عن الجنازة الثالثة. أخبروه أن أحداً لن يأتي اليوم، أي أربعة قبور ستبقى على حالها. فكّر ثانية إن أخطأت غرسة في حساباتها، وإلا أين هي الجنازة الثالثة؟ توجه إلى قبر سلمى، جثا وأغمض عينيه. ستكون تلك المرة الأخيرة التي ينام فيها هنا. قبل أن يغرق في صمته، تساءل للمرة العاشرة، أين الجنازة الثالثة؟

الهدوء من حوله، ثقب حاجزاً في عقله يحجب الخوف من القادم، والرعب من الموت القريب، والقرار الذي بدأ يتصدع.

انكمش على نفسه كتفاحة يبست، وبدأ يرتجف، واصطكت أسنانه تطحن من عزيمته، وجلب بعض الأسئلة بعضاً آخر كأم يتبعها أطفالها "غداً هو الثلاثاء. هل سأموت يوم الثلاثاء؟". بقي

على موعد الغد أقل من أربع وعشرين ساعة. بل أقل من ١٢ ساعة. رفع رأسه إلى السماء التي صفت من غيومها "هل للزمن أن يتوقف؟".

"ثم... وألف ثم... لمَ هو محكوم بالإعدام بأمر منه؟". قبض على حفنة من التراب "هل لا بد من ذلك. هل لا بد؟". صدرت منه صرخة مؤلمة وهو يسأل نفسه.

انكمش أكثر، مرعوباً أكثر وأكثر. أخيراً، وكأنه الاحتضار يتهيّأ له. سيطر عليه هذيان حتى بات مهيّأً بالفعل لموت يتبعه موت.

عيناه تغوران. مسح عليهما بكفين مغبرتين، وغزاه سؤال لو سمعته غرسة لضحكت "إن كان الانتحار يأتي في لحظة ضعف، فأي انتحار ذاك الذي يتطلب فرحاً لوقوعه؟".

كان سلومي، في لحظته تلك، يموت قبل موته، وأخذت نفسه تحدثه بأشياء كثيرة...

إنها ساعاته الأخيرة... وسيكون الغد آخر يوم له. بعدها، سيعمّ الصمت، "أم سيكون هناك صخب في الأسفل ينتظرني؟". فكر، هل سيسمع صوت خالد ثانية، عابد، غرسة...؟ "وهل سيكون كل شيء حتى الغد، هو المرة الأخيرة؟".

"ليفرحوا. فلن يكون هناك سلومي بعد الغد. سيرحل ويترككم تبكونه". لكن، هل سيبكونه بالفعل؟

صوت خالد يدعوه إلى الدار، وصوت عابد يدعوه إلى المسجد، وصوت غرسة يدعوه إلى عرسها، وصوت المقبرة صمت مظلم... أيّ عبث هذا؟

أصابه الإعياء. أحسّ برغبة في النوم. أغمض عينيه، لكنه لم يلبث أن فتحهما بأقصى اتساع. خاف من الصمت والعتمة.

نظر إلى بوابة المقبرة، وسأل نفسه إن كان سيدخل غداً من هذا الباب محمولاً؟

لكن... أتراها الحياة خارج ذاك الباب تدعوه إليها، أم هو الشيطان يغريه بترك سلمى، وبوأد الحب معها والرحيل عنها؟

"هل الشيطان مع الحب، أم مع الموت؟".

نظر إلى القبور الأربعة المفتوحة قبل سلمى، وجلس ينتظر الجنازة الثالثة.

* * *

أغلق مع فجر يوم الثلاثاء قبران جديدان. بقي بعدهما الرقمان ٢١٣ و٢١٤ مفتوحين. حسابات غرسة دقيقة إن أتى اثنان آخران، واحد يكمل نصاب البارحة وآخر يكمل اليوم. لم تبهجه دقة حساباتها. أخذ مكانه تحت الرواق وهو يبدو كورقة هزيلة تحملها قدمان نحيلتان. لم ينم لحظة واحدة. منعته أفكاره من النوم، ومنعه خوفه من النوم، ومن الأشياء التي ستكون المرة الأخيرة في حياته. قبل الضحى، رأى أحدهم يتوجه إلى قبر سلمى ذي الرقم ٢١٥ ويفتحه. هرول باتجاهه، لكنه توقف عند منتصف الطريق. فقد عرف أن القبر لا بد أن يفتح، وإلا كيف سيدفن هو فيه؟ لكن هل استعجلوا فتحه، ولماذا لم ينتظروا ستر المساء؟

خانته شجاعته في أن يرى قبر سلمى وقد فتح، فانهزم عائداً.

لم يغفل العاملون أهمية حدث كهذا لسلومي مراعين ما استطاعوا شعوره. بعد أن عاد إلى مكانه، وجلس بصمت ينظر إلى القبر المفتوح من بعيد، اقترب منه عبدالله وربت كتفه كمن يعزيه. رفع رأسه وسأله "هل وضعتم بقاياها في البئر؟".

"لا"، أجابه مبتسماً كما لو هو عارف بقرار سلومي، فترك كل شيء في القبر على حاله. لكن من قال إن سلومي نفسه يعرف ما قراره الآن؟

شجاعتان في يوم واحد أقوى من قدرته على التحمل: رؤية قبر سلمى يفتح، وموعد الخامسة بعد الظهر. أمامه بضع ساعات فقط. ربع يوم أو أقل إن كان لا يزال عازماً. أراد أن يستحم أولاً، ويلبس ثوب غرسة الأبيض، ثم ينتظرها تزوره للمرة الأخيرة. لا بد أن تزوره في لقاء واحد أخير يجمعه بها، فهي لم تودعه بعد... بعدها ربما أخذ طريقه الأخير إلى المستشفى، وقبل أن يصل سيتناول سمّه. لكنه فكر تلك اللحظة في أن المستشفى بعيد. إنه في العالم الذي لم يزره يوماً، ولا يعلم عنه الكثير. وتساءل "هل تعلم غرسة عنه شيئاً، أم هي مثله موؤودة في هذا المكان؟".

نظر من مكانه تحت الرواق إلى قبر سلمى المفتوح وتساءل "ماذا سيرى لو سار إلى قبرها؟".

انصرف عن سؤاله بإعادة ترتيب ما سيأتي في الساعات القادمة ثانية وثالثة وعاشرة "تستحم، وتلبس ثوبك الأبيض، ثم تستقل سيارة أجرة في الخامسة مساءً، تتناول الجرعة في منتصف الطريق.

بعد نصف ساعة يبدأ مفعولها. ستكون قد أدركت المستشفى، وفي قسم الطوارئ ستكون قد أصبحت معها". هكذا قالت غرسة في لقائهما الأخير أمس. لكن، ألن يكون هناك لقاء آخر يجمعه بها؟ قالت إنه سيراها، وهي لم تأت بعد، ولم يبق الكثير من الوقت. هل ستبلغ بها القسوة حدّ إنكاره وهو على شفير الموت؟ أسئلة كثيرة جعلت تعبث برأسه حتى كاد صدغاه ينبعجان من فرط ضغطه عليهما.

رغبة عارمة لرؤية غرسة تجتاحه كل ثانية. أشياء كثيرة يريد أن يقولها لها، ولعله يعدل، إن رآها، عن قراره. ستفاجأ. ماذا ستقول لو فعل ذلك حقاً؟ جلس وكأنه وصل إلى قرار ينقذه من تخبّط الأفكار في رأسه. فقد لا يبعده عن الموت الآن سوى أن تعيد هي استجداءه، أو تطلب منه ذلك بلا استجداء، ولربما تكفي إشارة بسيطة فقط. غرسة أصبحت في تلك اللحظة ملاك موت أو رحمة. إن شاءته ميتاً أو أبقته على قيد الحياة، كلاهما رهن إرادتها. عندما امتلأ عقله بصور غرسة، بدأت تغادره رويداً رويداً ارتعاشات مظلمة. كلما قفز الزمن دقيقة إلى الأمام، بدا كمحكوم بالإعدام قد نال عفواً. الساعة الآن هي العاشرة صباحاً حسبما قال أحدهم. توقع أن تأتيه الإشارة، الآن ولا بد، من نافذة أم عتيق، أو من أم عتيق نفسها، أو غرسة بقامتها، أو من الشيطان ذاته، فإن لم يحدث ذلك، حتى الظهيرة، فسينتظرها في بيت عابد، فقد قرر أن لا يموت قبل أن يراها... ولعله لن يموت إن رآها.

"نعم... حسبما وصلنا من البلدية، فلن يدفن اليوم سوى

اثنين"، قال له عبدالله عندما سأله عن عدد من يتوقع وصولهم إلى المقبرة.

زمّ شفتيه وسادت عقله عتمة وكأن شمعة أطفئت فيه. لا يعرف أي شعور طغى عليه. إن كان من وصف دقيق فلا شيء سوى صورة غرسة. فما عاد هو السعيد بقرب موته كما أراد، ولا هو القانع بأن سلمى قد أصبحت الآن، في وقفته تلك، ودقائقه التي تمر ببطء، مجرد ذكرى.

فكر في أن يذهب ليستحم، ويلبس الثوب الأبيض، لكنه لم يغادر مكانه. يطوف بين حين وآخر في المكان مقترباً من نافذة أم عتيق، ومتحاشياً ما استطاع قبر سلمى المفتوح، ويعود إلى مكانه. كانت عينا طفل تختلسان النظر إليه من فرجة صغيرة في الباب الرئيسي الكبير. كاد قلبه يقفز عندما رآه. لكنه لم يتحرك من مكانه. هل كان الطفل يبكي أم تراءى له أنه يبكي؟ وهل هو الطفل نفسه أم آخر يشبهه؟ غادر الطفل في لمحة عين. لم يتبعه، لكنه ترك في نفسه إحساساً غريباً.

الساعة الثانية عشرة، ولا إشارة بعد. سيغادر بعد ربع ساعة إلى بيت عابد، ليستحم، ويلبس الثوب الأبيض. لكنه عدل ثانية عن فكرته وجلس يراقب وينتظر، ويسأل عن الوقت كل لحظة، ويفكر في الطفل. هل كان هناك فعلاً؟ أتراه كان يبكي؟

الساعة الواحدة بعد الظهر. إن أراد أن يشرع في خطته، فما بقي سوى أربع ساعات، ولم تظهر غرسة، ولا أم عتيق، ولا عاد الطفل.

الساعة الثانية بعد الظهر. بقيت ثلاث ساعات. إن كان عازماً على المضي في خطته، وهو ما بات يشك فيه، فعليه احتساب مسافة الطريق. تلمّس الكيس بمحتواه الأبيض في جيبه، وتسارعت ضربات قلبه وهو يفكر في المصير الذي وضع نفسه فيه، وركز ناظريه على قبر سلمى المفتوح، يسبقه قبران جاهزان، ورفع رأسه باتجاه نافذة أم عتيق.

الساعة الثالثة بعد الظهر، لم يتغيّر شيء، ولم تظهر غرسة بعد، ولا رسول منها يضع في يده ورقة، أو رسالة أخيرة. بدأ يتصبّب عرقاً. هل سيرحل قبل أن يراها؟ وهل سيرحل بالفعل؟

سأل عن الساعة للمرة الألف، وقرر أن ينتظر نصف ساعة أخرى.

الرابعة إلا خمس دقائق. انتهت صلاة العصر. لا أمل في رؤية غرسة، وعليه أن يقرر الآن، والآن فقط، إن كان سيذهب إلى المستشفى أو لا. وقف على بعد أمتار من قبر سلمى. تأمله مفتوحاً، ثم توجه إلى باب المقبرة الأخضر الرئيسي. قرر أن يستحم، ويلبس الثوب الأبيض، ثم يرى ما يكون. مع كل خطوة له وهو يغادر المقبرة، كانت صورة سلمى تتلاشى في عقله، في قلبه، في أوردته، وتحتل مكانها صورة أخرى... غرسة!

أخرج الكيس الصغير من جيبه ورماه وكأنه جمرة أحرقت يده. وقبل أن يصل إلى الباب الأخضر الكبير، وهو مترنح بين موت يبتعد عنه، وحياة جديدة تنتظره على يد غرسة، الغائبة حتى اللحظة، إذا بالباب يفتح على مصراعيه، وتدلف منه ثلاث جنازات. ارتبك قليلاً، فقد أتت جنازة إضافية ثالثة، وستدفن

مكان سلمى. زال ارتباكه بأسرع ممّا أتاه، وكأنه ما عاد يعنيه أن يدفن أحد غيره مكانها.

ثلاث جنازات، اثنتان لرجلين، وواحدة لأنثى وقد اعتلى نعشها قفص صغير يميّزها. جمد مكانه ينظر إلى المشيعين يحملون الثلاثة إلى حيث القبور المفتوحة، بما فيها قبر سلمى.

كان عددهم وراء الرجلين كثيراً، لكنهم لم يتجاوزوا ستة أو سبعة وراء المرأة. سُجّي الرجل الأول في الرقم ٢١٣، والرجل الثاني في الرقم ٢١٤، والمرأة في الرقم ٢١٥.

فجأة، أدرك سلومي كل شيء. انتفض قلبه وارتعدت أوصاله. ولو كان للمشاعر صوت، لسمع الموتى ارتطامات تنبع من صدره. جثا على ركبتيه، وسالت دمعة من خده، وأخذت شفتاه ويداه ترتجفان.

لم يكن في حاجة إلى ذكاء عظيم، ولا وحي سماوي، ولا من يخبره بأن تلك التي تدفن الآن في القبر ذي الرقم ٢١٥، قبر سلمى، إن هي إلا غرسة نفسها. تهالك جسده حتى بات كومة على الأرض، وشرع يبكي.

أكمل المشيعون مهمتهم، ومرّوا من جواره وقد ربت أكثرهم على كتفه، ظناً منهم أنه قريب أحدهم. عزاء سريع أقيم في الرواق، وانصرف الجمع تاركاً وراءه نصف إنسان ينتحب.

اقترب منه عبدالله، العامل في المقبرة، ربت بدوره على كتفه وأوقفه على قدميه. سار معه بتثاقل حتى أجلسه على كرسي قريب في الرواق.

"لقد تركت لك هذا"، قال عبد الله، وناوله ظرفاً أبيض اللون.

بقي الظرف معلقاً في يده لا يقوى على رفعه. بعد جهد، والدموع تغمر وجنتيه، فضّه وهو يرتعش. وجد فيه لوحاً من طبطاب الجنة، تصالب عليه شريط أحمر عقد طرفاه على شكل وردة. تحت الشريط طويت ورقة صغيرة بعناية. فتحها وقرأ...

"نعم، إن الموت يصبح شيئاً جميلاً عندما تخلو الحياة من الحب، وأنت أضعف من أن تموت لغاية سامية كهذه!

لقد أصبح حبّي الآن أبعد مما تقدر عليه، ومما تستحق.

أوصيك خيراً بجدتي، فما عاد لها أحد سوى خالتي أم عتيق، وللأسف... أنت!

الآن، ومن دون أن تلمسني، سأصعد إلى السماء طاهرة على متن سحابة مليئة بالحلوى. فالحب يطهر الإنسان أكثر مما تفعل الصلاة والماء".

أطبق على الورقة بقبضة يده، وعاد ينتحب.

* * *

بعد العاشرة من صباح اليوم التالي، الأربعاء، صعد سلومي، بعينين غائرتين وخطى ثقيلة، الدرج المؤدي إلى بيت غرسة.

طرق الباب...

"من هناك؟". أتاه صوت العجوز يسأل.

حال بكاؤه الصامت دون أن يجيب.

"هل هذا أنت يا غرسة؟"، قالت الجدة وهي تفتح الباب.
"أنا..."، وحاول أن يمسك دمعه، ثم واصل بصوت مبحوح "صديق قديم لغرسة".
"يبدو صوتك مألوفاً؟ أين هي غرسة؟".
تحشرج صوته ولم يجب.
سألت العجوز ثانية وشرعت تبكي "لم تأت منذ يومين؟ قالت إنها ستغيب ثم تعود. عليها أن تجهّز لعرسها يوم غد".
ساق العجوز باكية إلى الداخل وجلس بجوارها، فيما هي تسأله برجاء ودموع "أين هي غرسة؟ هل رأيتها؟ هل أرسلتك إليّ...؟ أين هي...؟". واختلطت أسئلتها بدموعها.
نظر إلى باب غرفة مشرّع أمامه. قدّر أنها غرفة غرسة. دخل إليها، ونحيب العجوز يملأ المكان.
وجد فستاناً أبيض اللون، ممدّداً فوق السرير، نائماً ينتظر صاحبته التي لن تأتي أبداً. كانت رائحة عطرها تعبق في الغرفة. جثا على ركبتيه، والتقط كمّ الفستان يشتمّ رائحته ويقبّله، وصوت العجوز من ورائه تجهش بالبكاء. "غرسة... عرسك في الغد... أين أنت يا ابنتي؟".

تمت

3/9/2017

لا أحد يعلم ما الذي حدث تلك الأمسية... لكن سلمى تموت فجأةً، فيلازم حبيبها سلّومي قبرها. غرسة، التي تحبّ سلّومي بدورها، تراقبه من نافذة بيت صديقة جدتها، أم عتيق، المطلّة على المقبرة.

يحاول خالد، والد سلمى ومتبنّي سلّومي اليتيم، بمساعدة الشيخ عابد إمام المسجد، أن يقنعه بمغادرة مقبرة "أمّنا حواء" في مدينة جدة والعودة إلى البيت، لكن دون جدوى. فقد قرّر أن ينتحر ليُدفنَ معها في القبر نفسه.

وهكذا راح يعدّ القبور ويحسب الأيام ليعرف اليوم الذي سيُفتَح فيه قبر سلمى. لكنّه بحاجة إلى من يساعده على تنفيذ خطّته بدقّة لكي يموت في نفس اليوم الذي سيُفتَح فيه القبر...

هاني نقشبندي كاتب وصحافي سعودي. صدر له في الرواية عن دار الساقي "اختلاس"، "سلاّم"، "ليلة واحدة في دبي"، "نصف مواطن محترم".



ISBN 978-6-14425-826-2
DAR AL SAQI
دار الساقي
9 786144 258262
www.daralsaqi.com